لمحات

في علوم القرآن

واتجاهات التفسير

تأليف

محمد الصبّاغ

اهـــــــداء2005

أ.د.عباس عبد الحميد

جامعة الإسكندرية

لمحات
في علوم القرآن
واتجاهات التفسير

تأليف
محمد الصبّاغ

القسم الأول

القرآن وعلومه

الباب الأول

القرآن

سنتحدث في هذا الباب عن القرآن وتعريفه ووصفه وخلوده ودوره في حفظ لغتنا والابقاء على امتنا وإصلاح أوضاعنا ونهضتنا وكونه دستور المسلمين وعن أسماء القرآن وعن ظاهرة الوحي وعن نزوله منجماً وعن آياته وسوره وإعجازه .

الفصل الأوّل

في تعريف القرآن ووصفه ودوره في ماضينا ومستقبلنا

تعريف القرآن الكريم :

القرآن هو كلام الله المعجز ، ووحيه المنزل على نبيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبَّد بتلاوته .

ويقتضينا فهم هذا التعريف شرح بعض الأمور :

- فقولنا (كلام الله) إشارة الى ان هذا القرآن كلام الله . فخرج بهذا القيد سواه من كلام البشر والجن والملائكة .
- وقولنا (المعجز) إشارة إلى ان هذا الكلام اعجز البشر والجنّ أن يأتوا

بمثله . وسنفرد موضوع الإعجاز بفصل خاص إن شاء الله . وخرج بهذا القيد كلام الله الذي عبر عنه الرسول بلفظه .

- وقولنا (وحيه المنزل على محمد) مخرج للكلام الإلهي الذي نزل على الأنبياء السابقين ، والكلام الإلهي الذي ألقاه الله إلى ملائكته ليعملوا به ؛ لا لينزلوه على أحد من البشر . وسنفرد موضوع الوحي بفصل خاص .

ووحي الله كثير . وكلماته لاحصر لها . قال تعالى : **(قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)**[1] وقال تعالى : **(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)**[2] .

- وقولنا (المكتوب في المصاحف . المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) مخرج للأحاديث القدسية ، والأحاديث النبوية التي كانت وحياً من الله [3] ، وللآيات التي نسخت تلاوتها فلم تعد مكتوبة في المصحف ، ولبعض القراءات التي نقلت إلينا بطريق الآحاد .

ومما ينبغي شرحه كلمة (التواتر) التي وردت في التعريف ، فالمتواتر هو ما يرويه جمع يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم في كل مراحل السند من أوله إلى آخره [4] .

وصف القرآن الكريم :

القرآن – كما أسلفنا – هو كلام الله المعجز ووحيه المنزل ، نزل به

---

(١) الكهف : ١٠٩

(٢) لقمان : ٢٧

(٣) ذكرت في كتابي « الحديث النبوي » ص ٢٩ – ٣١ أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقسم الى قسمين : قسم أوحى الله اليه معناه ولكنه لم ينسبه الرسول الى ربه ، وقسم قاله الرسول اجتهادا . وذكرت أنه لا فرق بينهما من الناحية العملية ، لأن على المسلم أن يمتثل أمر الرسول سواء أكان الحديث من هذا القسم أم من ذاك . اذ أنه عليه الصلاة والسلام متصل بالوحي يقره على الصحيح وينبهه على الخطأ .

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابي « الحديث النبوي » ص ١٦٤ .

الروح الامين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين . وهو كما جاء في الحديث الضعيف التالي :

« كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم . وخبر ما بعدكم . وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذي لا تزيغ به الاهواء . ولا تلتبس به الألسنة . ولا تشبع منه العلماء . ولا يخلق على كثرة الرد . ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (**إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به**) (١) من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل . ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم »(٢) .

خلود القرآن الكريم :

والقرآن الكريم باقٍ ما بقيت الدنيا . يتحدى كل عوامل الافناء والفناء ، وذلك بحفظ الله له . فلقد تولى الله تبارك وتعالى حفظه . قال تعالى : (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**) (٣) ولم يكله إلى الناس يحفظونه كما فعل سبحانه بالكتب السابقة قال تعالى : (**إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**) (٤) .

وبما تضمنه من الحلول المحكمة لكل مشكلات الانسان في كل زمان ومكان . ولكمال شريعته ، إذ كان آخر الكتب السماوية (**اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**)(٥) .

ومن ادلة خلود هذا الكتاب الكريم ان الانسانية رأت كثيرا من الروائع

---

(١) سورة الجن : ١ ـ ٢

(٢) اخرج هذا الحديث الترمذي عن علي مرفوعا . وسبب ضعفه وجود الحارث ابن عبد الله الأعور في سنده ، وهو ضعيف . توفي سنة ٦٥ هـ انظر « ميزان الاعتدال .

(٣) سورة الحجر : ٩

(٤) سورة المائدة : ٤٤

(٥) سورة المائدة : ٣

أعجب بها الناس حيناً من الدهر ؛ ثم لم تلبث هـذه الروائع ان بليت ؛ واستنفدت اغراضها ، واصبحت قطعة من الماضي لاتتصل بحاضر الناس بسبب او ان يكون قد سحب عليها النسيان بذيله فلم يعد لها وجود على الاطلاق .

كم طرحت حلول ! وكم عرضت نظريات ! وكم اعلنت مبادىء ادعت قدرتهاعلى حلمعضلات الحياة !!. ولم تلبث ان عجزت وافلستوتوارت، ولم يعد يذكرها أحد .

أما القرآن فهو الخالد إلى أبد الدهر . الجديد الذي لاتبلى جدته مهما تقدم الزمان .

دور القرآن في حفظ لغتنا والابقاء على أمتنا :

لقد مرّ على امتنا خلال عصور تاريخها الحافل أيام قاسية ونكبات سود . وكانت بلادها هدفاً لموجات همجية ووحشية ؛ اهلكت الحرث والنسل . ودمرت كل مظهر من مظاهر الحضارة . وكانت هـذه البلاد مسرحاً لفتن طائشة عمياء روّعت الآمنين . وقضت على اسباب الازدهار والاستقرار . وآل الحكم فيها خلال أحقابطويلة الىعناصر اعجميةلاتعرف العربية ولا يستريح كثير منها الى العرب ؛ وعم ابناء الأمة جهـل مطبق وأمية بشعة ، فصارت أمتنا الى التفرق والهوان ، وتعرضت لغتنا الى الضعف والانحلال .

ولو ان هـذا الذي ذكرناه حـدث في امة اخرى لذهب ريحهـا ، ولانقرضت لغتها ، ولكن هذا القرآن الكريم بقي الحارس الأمين الذي حفظ على هذه الأمة كيانها ، ومقومـات وجودهـا وذاتيتها ؛ وحمى لغتهـا من الضياع . ولولاه لانقرضت العربية وذابت خـلال هاتيك الكوارث التي غشيت هذه البلاد وسكانها اوقاتا طويلة .

إننا لنستطيع أن نقرر بكل ثقة وقوة ان الأمة العربية هيأمة إلقرآن، وان اللغة العربية هي لغة القرآن ، وان القرآن سبب خلود لغـة العرب واستمرار وجودهم .

القرآنأساس الاصلاح وسببالنهضة والمجد وهو دستور المسلمين :

كان ألقرآن الكريم المشعل الوقاد ، والمنار المضيء ، ينير لاجيـال امتنا الطريق نحو المجد والرفعةوالسعادة وقيادة الدنيا الى الخيروالحق .

بل لقد كان القرآن هو الذي يربي الأمة على اباء الضيم والانفة ، وينفخ في افرادها روح التمرد على الظلم والفساد ، ويدفع الأمة الى سلوك السبيل المستقيم (**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا : فيم كنتم . قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا : الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيراً**)(١) ومهما تقدمت الأيام ، وكرت الليالي فسيبقى القرآن ملاذ هذه الامة تفزع إليه في الأزمات . فيأخذ بيدها إلى الخير والتقدم والصلاح ، ويبلغها السعادة والمجد والفلاح .. بل يبقى الملاذ الأوحد الذي لا تجد سواه في ، دلهمات الخطوب .

أنزل الله على عبده ورسوله محمد بن عبدالله هذا الكتاب ليهدي الناس الى الحق ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ويسلك بهم طريق الرشاد ، فكانت فيه الأسس الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والروحية والخلفية التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي :

ففي هذا الكتاب الكريم العقيدة الصحيحة السليمة التي حلت للانسان اعظم مشكلة تلح على وجدانه متمثلة بالسؤال التالي : لماذا خلقت ؟ قال الله تعالى : (**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**) (٢) .

ووضعت هذه العقيدة نظرة متميزة للانسان والكون والحياة . فهذا الكون من صنع الله (**إنما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون**)(٣) (**الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**) (٤) .

فليس الكون عدوا للانسان ، وليست الطبيعة خصما له يصارعه ويغالبه ، انما هي من خلق الله ، وهي صديق . فالارض مذللة للانسان ،

---

(١) سورة النساء : ٩٧

(٢) سورة الذاريات : ٥٦

(٣) سورة يس : ٨٢

(٤) سورة الملك : ٣ ــ ٤

وكل ما فيها مخلوق له (**هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه**) (١) (**خلق لكم مافي الأرض جميعاً**)(٢) .

وقرر القرآن أن الإنسانية مخلوقة من ذكر وأنثى ، وموزعة الى امم متعددة لتتعارف (**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**)(٣) .

والانسان مخلوق من مخلوقات الله ، أصله من تراب (**والله خلقكم من تراب**)(٤) .

وهو يشارك الحيوان بأنواعه في كثير من صفاته وغرائزه : (**وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا امم امثالكم**)(٥) - ولكنه مكرم (**ولقد كرمنا بني آدم**) (٦) وخلق في احسن تقويم (**لقدخلقناالانسان في أحسن تقويم**)(٧) .

والناس متساوون ولا يتفاضلون إلا بالتقوى (**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**)(٣) .

والحياة الدنيا هي وحدها الطريق الى الاخرة (**ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا**) (٨) (**فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم وذوقواعذاب الخلد بما كنتم تعملون**) (٩) .

(١) سورة الملك : ١٥
(٢) سورة البقرة : ٢٩
(٣) سورة الحجرات : ١٣
(٤) سورة فاطر : ١١
(٥) سورة الانعام : ٣٨
(٦) سورة الاسراء : ٧٠
(٧) سورة التين : ٤
(٨) سورة النساء : ١٢٤
(٩) سورة السجدة : ١٤

وقرر القرآن العقيدة السليمة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فالله جل جلاله واحد **(قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد)**(١) **(هو الله الذي لاإله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح لـه ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم)**(٢) **(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)**(٣) .

ومن يكفر بركن من اركان الايمان فهو كافر **(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً)**(٤) .

والبعث هين على الله **(أيحسب الانسان أن لن نجمع عظـامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه)**(٥) .

إلى آخر جوانب هذه العقيدة (٦) .

وفي هذا الكتاب الكريم أسس النظام الروحي التي حققت للمرء أن يمد شطر ذاته بغذاء مستمر ، يتمثل بعبادة الله وذكره والاتصال به (٧) . تبارك وتعالى : **(واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان . فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون)** (٨) **(فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)**(٩) .

---

(١) سورة الاخلاص

(٢) سورة الحشر : ٢٣ ــ ٢٤

(٣) سورة الانبياء : ٢٢

(٤) سورة النساء : ١٣٦

(٥) سورة القيامة ٣ ــ ٤

(٦) انظر تفصيل ذلك في « نظام الاسلام » لمحمد المبارك « والعقائد الاسلامية » لسيد سابق و « خصائص التصور الاسلامي » و « العدالة الاجتماعية في الاسلام » لسيد قطب .

(٧) انظر كتاب « الاركان الاربعة » للاستاذ ابي الحسن الندوي .

(٨) سورة البقرة : ١٨٦

سورة البقرة : ١٥٢

وفي هذا الكتاب الكريم اسس النظام الاخلاقي العظيم الذي جاء به الاسلام . فلم يتجاهل طبيعة النفس الانسانية ، ولكنه في الوقت نفسه اخذ بهذه النفس الى ان جعلها تحقق المثل التي كانت تتراءى لكثير من الفلاسفة والمصلحين اهدافا بعيدة .

فقد دعا الى مكارم الاخلاق ، وحذر من مساوىء الاقوال والافعال ولنقرأ قوله تعالى : (**إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**)(١) .

(**قل تعالوا اتل ما حرّم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لاتكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**)(٢) .

وهذه الأخلاق التي دعا اليها القرآن اخلاق إيجابية وعملية وشاملة(٣) .

وفي هذا الكتاب الكريم اسس النظام الاجتماعي الذي يصوغ الفرد والمجتمع صياغة متكاملة لايجور احدهما على الآخر (٤) .

والذي يقيم الأسرة على قواعد متينة من التراحم والتعاون والتكافل مما يحقق لكل فرد من افرادها السعادة الحقة (٥) .

---

(١) سورة النحل : ٩٠ .

(٢) سورة الانعام : ١٥١ – ١٥٢

(٣) انظر في ذلك : « خلق المسلم » لمحمد الغزالي و « الاسس الاخلاقية » للمودودي و « نظرية الاسلام الخلقية » له وكتاب « الاخلاق في القرآن » للدكتور محمد عبد الله دراز.

(٤) انظر القسم الاول من كتاب « الحجاب » للاستاذ أبي الاعلى المودودي .

(٥) انظر « نظام الاسرة في الاسلام » للاستاذ مناع القطان و « تفسير سورة النور » للمودودي .

والـذي يقيم المجتمع على اسس العدالـة والتكافل الاجتماعـي والمساواة والتراحم والتعاون(١) والذي يحدد القواعد العامة في قضايـا المعاملات من تجارة وقرض وبيع ومداينة وما الى ذلك (٢) من تلك القواعد التي لاتستقيم الحياة إلا بها .

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس النظام الاقتصادي الذي يحرم الاستغلال والظلم والعدوان ، ويحقق الكفاية والعدالة والرفاهية(٣) .

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس النظام السياسي الذي تقوم عليه دولة الاسلام معتمدة على الشورى والعدل والمساواة واحقاق الحق وابطـال الباطل ، وهدف هذه الدولة اقامة معالم الاسلام والعمـل على نشره في الأرض(٤) **(الذين إن مكّناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور)(٥)** .

وهكذا فان القرآن هو الدستور الذي حوى كل هذه الأسس . وقد اثبتت الأيام والتجارب أنه الدستور الصالح لكل زمان ومكان ، وأن احكامه هي العلاج الناجع لأمراض الحياة ، لا اختلاف فيه ولا تناقض وصدق الله العظيم : **(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)(٦) (إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجراً كبيراً)(٧)** .

---

(١) انظر في تفصيل ذلك كتاب « العدالة الاجتماعية في الاسلام » للاستاذ سيد قطب و « التكافل الاجتماعي في الاسلام » لمحمد أبو زهرة .

(٢) انظر « المجتمع الانساني في ظل الاسلام » لمحمد ابو زهرة و « في المجتمع الاسلامي » له و « تنظيم الاسلام للمجتمع » له أيضا . و « التشريع الاسلامي وحاجتنا اليه » لمحمد الصبـاغ .

(٣) انظر « اسس الاقتصاد في الاسلام والنظم المعاصرة » للمودودي و « معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام » له .

(٤) انظر « نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور » للاستاذ المودودي.

(٥) سورة الحج : ٤١

(٦) سورة النساء : ٨٢

(٧) سورة الاسراء : ٩

ومن المفيد أن نشير الى أن القرآن بحكم كونه دستوراً ، فقد وردت آياته مجملة ، وقد تركت كثيراً من التفصيلات الجزئية للسنة ، على ان القرآن الكريم في بعض الأمور الهامة يذكر التفصيلات حسماً للنزاع والاختلاف كالإرث[1] واللعان[2] والطلاق[3] وما شابهها من الأمور حتى لا يدع مجالا للفرقة في المجتمع الاسلامي[4] .

اثر القرآن في البيان والفكر :

* كان المستوى الرفيع الذي بلغه القرآن في البيان مثلا يحتذى بالنسبة لأدباء العربية وبلغائها . فكانت آياته سببا في النهوض بأساليبهم نهوضاً عظيماً . كما كان لترديد المسلمين لآياته آناء الليل واطراف النهار اثر كبير في ارتقاء البيان العربي .

* اما أثره في الفكر فلقد كانت آياته البينات سباقة في كل ما يعود على الانسانية والحضارة بالتقدم والرفاهية والسعادة . وما خلت حركة ظهرت بعده من التأثر بذراه السامقة .

واد ان اختم هذا الفصل بكلمة للاستاذ الزرقاني قال فيها : (وهو ــ اي القرآن ــ أولا وآخراً القوة التي غيرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك . وحولت مجرى التاريخ ، وانقذت الانسانية العاثرة ، فكأنما خلقت الوجود خلقا جديدا)[5] .

---

(١) انظر سورة النساء فقد تعرضت آيات منها لتقسيم الارث .

(٢) انظر الآيات ٦ و ٧ و ٨ و ٩ من سورة النور .

(٣) انظر الآيات المتعلقة بالطلاق في السور الآتية : البقرة والاحزاب والطلاق .

(٤) أنظر كتابنا الحديث النبوي ص ٣٣ .

(٥) انظر « مناهل العرفان » ٣/١

الفصل الثاني

في
أسمـاء القـرآن

لهذا الكتاب الكريم اسماء ثلاثة مشهورة وهي : القرآن والكتاب والفرقان . واشهرها الاسمان الأولان .

وقد اورد ابو المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة[1] المتوفى سنة ٤٩٤ هـ في كتابه « البرهان في مشكلات القرآن » ــ كما نقل ذلك السيوطي ــ خمسة وخمسين اسما[2] ، وبالغ بعضهم فأوصل عددها الى نيف وتسعين[3] .

وعندما ينظر المرء في هذه الأسماء الكثيرة التي ذكروها يتبين له أن معظمها اوصاف مثل : كريم ، ومبارك ... الخ ...

وسنقتصر على ذكر الأسماء الثلاثة التي اوردناها آنفاً ونخصها بالبحث :



القـرآن :

وينطق بها على وجهين : مهموزة وغير مهموزة .

١ ــ القرآن (مهموزة) : مصدر على وزن (فُعلان) ــ بالضم ــ كالغفران والرجحان والشكران .

وفعل هذا المصدر هو (قرأ) . وهناك مصادر أخرى غير (قرآن)

---

(١) انظر ترجمته في « وفيات الاعيان » لابن خلكان و « طبقات الشافعية » للسبكي « وكشف الظنون » لحاجي خليفة و « شذرات الذهب » لابن العماد ٤٠١/٣

(٢) انظر « الاتقان في علوم القرآن » للسيوطي ٥٠/١ و « البرهان » للزركشي ٢٧٣/١

(٣) انظر « البرهان » ٢٧٣/١ و « مناهل العرفان » ٨/١ .

تقول : قرأ (قراءة) و (قرءاً) و (قرآنا) وهذه المصادر الثلاثة بمعنى واحـد .

ولكلمة (قرآن) معنيان :

احدهما : مصدري ؛ بمعنى القراءة كما ذكرنا . وقد جاء استعمال (القرآن) بهذا المعنى المصدري في القرآن الكريم وذلك في قولـه تعالى : **(إن علينا جمعه وقرآنه • فاذا قرأناه فاتبع قرآنه)**[1] .

وثانيهما : علم شخصي على ذلك الكتاب الكريم . وهذا هو الاستعمال الغالب ، ومنه قوله تعالى : **(إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم)**[2] وهذا العلم الشخصي مشتق من القراءة وعندئذ يكون المصدر قد اطلق على اسم المفعول (قرآن) اي (مقروء) . واصل معنى (قرأ) في اللغة : (جمـع) . ومنه : قرأ المـاء في الحوض إذا جمعه ومنه قولهـم : قرات الناقة إذا حملت[3] .

وإذا اردنا معرفة العلاقة بين المعنى الاصلي ؛ والمعنى العلمي فان كلمة (قرآن) يمكن ان تكون مصدراً استعملت بمعنى اسم المفعول (مجموع) او ان تكون مصدراً استعمل بمعنى اسم الفاعل (جامع) .

أما كونه مجموعاً فلأنه مجموع السور والآيات ؛ أو مجموع المعاني السامية والحقائق العظيمة ؛ والحلول المحكمة لكل مشكلات الانسانية ؛ وصنوف الخير والبر والعدالة . او لان الحفظة يحفظونه فهو مجموع[3].
وهكذا فان المصدر بمعنى التلاوة اطلق على اسم المفعول .

وبمعنى الجمع والضم اطلق على اسم المفعول او على اسم الفاعل[4].

٢ ــ والقران (غير مهموزة) :

وهناك ثلاثة تخريجات لهذه الكلمة :

---

(١) سورة القيامة : ١٧ وما بعدها . وانظر « نكت الانتصار » للصيرفي وهو اختصار « الانتصار » للباقلاني ص ٦ه تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام .

(٢) سورة الاسراء : ٩

(٣) « نكت الانتصار » للصيرفي ص ٥٧

(٤) انظر « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ه .

احدها : ان تكون مسهلة من « القرآن » فيرجع القول فيها الى ما سبق ذكره .

ثانيها : انها ليست مأخوذة من شيء - ومن القائلين بهذا القول الامام الشافعي رضي الله عنه ، الذي كان يرى أنها علَم على الكلام المنزل على النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وانها ليست مأخوذة من شيء ، ويرى ان هذه الكلمة في علميتها مثل التوراة والانجيل .

وقد روى الخطيب البغدادي والعبادي وابن الجزري والسيوطي أن الشافعي قرأ على اسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين وكان يقول : القران اسم وليس بمهموز ولو اخذ من قرأت لكان كل ما يقرأ قرآنا . بل هو اسم كالتوراة(١) .

ثالثها : انها مشتقة من (قرن) . وذكروا في العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى العلمي انها اشتقت من (قرن) ، لاقتران السور والآيات والحروف فيه . ومن القائلين بذلك الأشعري .

وقال الفراء في العلاقة بين هذين المعنيين : ان كلمة (القران) اشتقت من (قرن) ، لأن الآيات قرائن ، يصدق بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا .

ملاحظة اولى :

نون (القران) بلا همز نون اصلية ، سواء قلنا : إنها علم غير مشتق من شيء ام قلنا هي مشتقة من (قرن) . اما نون (القرآن) المهموزة فمزيدة .

ملاحظة ثانية :

تطلق كلمة (القرآن) و (القران) على القرآن كله ، وعلى بعضه . فيقال لمن قرأ المصحف كله : إنه قرأ قرآنا .

---

(١) انظر « تاريخ بغداد » ٦٢/٢ و « طبقات الشافعية » للعبادي ص ٢١ و « غاية النهاية في طبقات القراء » لابن الجزري ص ١٦٦ و « الاتقان » ٥٠/١ وانظر فيه الآراء والتخريجات الاخرى وانظر تعليق العلامة الاستاذ أحمد شاكر على « الرسالة » للشافعي ص ١٤ و ١٥

ويقال لمن قرأ آية منه أو آيات : إنه قرأ قرآنا[1] .

* * *

الكتــاب :

وهو اسم آخر للقرآن ، ورد في عدد من الآيات الكريمة . كما في قوله تعالــى : (**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعــل له عوجا**)[2] وقوله : (**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقــين**)[3] وقولــه سبحانه : (**تلك آيات الكتاب**)[4] .

وكلمة (الكتاب) مصدر (كتب يكتب) . تقول : كتب يكتب كَتْباً وكتابة وكتاباً .

وهذا المصدر على خلاف القياس ، والمصدر المقيس الكَتْب ، وقيل : الكتاب اسم مصدر كاللباس[5] ثم أصبحت كلمة (كتاب) علما على القرآن .

واذا أردنا أن نربط بين معناها اللغوي المعروف والمعنى العلمي كانت هذه الكلمة (الكتاب) مصدرا استعمل بمعنى اسم المفعول (مكتوب) .

والكلمة (كتب) في أصل معناها اللغوي تدل على الجمع ، ومنه : كتب الكتيبة ، أي جمعها ، وكتب النعل والقربة ، أي خرزها بسيرين[6] أي جمعهــا .

وإذا أردنا معرفة العلاقة بين المعنى الاصلي والمعنى العلمي فان كلمة

---

(1) مناهل العرفان ١٥/١

(2) سورة الكهف : ١

(3) سورة البقرة : ٢

(4) سورة الشعراء : ٢

(5) تاج العروس : مادة كتب

(6) أساس البلاغــة : مادة كتب

(كتاب) يمكن ان تكون مصدرا استعمل بمعنى اسم المفعول (مجموع) .
او ان تكون مصدرا استعمل بمعنى اسم الفاعل (جامع) .

وترد العلاقة نفسها التي ذكرناها في (القرآن) :

فهذا الكتاب جامع للسور والآيات ، بل وللمعاني والحقائق والحلول التي يتطلع اليها البشر .

وهذا الكتاب ايضاً مجموعة فيه السور والآيات ، بل وتلك المعاني والحلول .

* * *

لماذا سمي القرآن (قرآناً) و (كتاباً) ؟

هناك حكمة في إطلاق هذين العلمين (القرآن والكتاب) على كلام الله تعالى ذكرها العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز فقال (١) :

[روعي في تسميته (قرآنا) كونه متلواً بالألسن ، كما روعي في تسميته (كتاباً) كونه مدوناً بالأقلام . فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه . وفي تسميته بهذين الإسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني انه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً .. فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة .

ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز . إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول : **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** (٢) ولم يصبه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها .

(١) « النبأ العظيم » : ص ٥ ــ ٧

(٢) سورة الحجر : ٩

بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى : **(والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله)**[1] .

الفرقـــان :

أما (الفرقان) فهو اسم للقرآن أيضاً . وهو مصدر أطلق على القرآن فأضحى علماً .

وقد استعمل بهذا المعنى العلمي في قوله تعالى : **(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)**[2] .

وهذا المصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل . اي انه كلام فارق بين الحق والباطل[3] . أو استعمل بمعنى اسم المفعول ، اي انه كلام مفـروق بعضه عن بعض في النزول أو في الســور والآيات[4] .

* * *

---

(1) سورة المائدة : 44

(2) سورة الفرقـــان : 1

(3) انظر « نكت الانتصار » للصيرفي ص 57

(4) مناهل العرفان : 1/7 — 8

الفصل الثالث

في
الوحي

الوحي في اللغة :

قال ابن فارس في « مقاييس اللغة » :

الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك. فالوحي الاشارة . والوحي الكتاب والرسالة . وكل ما القيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان . وكل ما في باب الوحي فراجع الى هذا الأصل الذي ذكرناه .

وقال الراغب الاصفهاني :

أصل الوحي الاشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل : أمر وحي . وشيء وحي ، أي عجل مسرع ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وباشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة .

قال تعالى : **(فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً)**(١) أي أشار إليهم ولم يتكلم .

إذن فمعنى الوحي من الناحية اللغوية : الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه ، بحيث يخفى على غيره ، ويدخل تحت ذلك أنواع عديدة من الإعلام :

* منها : الإلهام الغريزي . كالوحي إلى النحل **(وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)**(٢) .

---

(١) سورة مريم : ١١

(٢) سورة النحل : ٦٨ ــ ٦٩

* ومنها : إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الانسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى ام موسى **(وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)**(1) .

* ومنها : وسوسة الشيطان **(وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم)**(2) **(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا)** (3) .

ووحي الله تبارك وتعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الاصليان لهذه المادة : وهما : الخفاء والسرعة(4) .

وأوحى ، ووحى لغتان ، والأولى أفصح وبها ورد القرآن ، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول أي (الموحى)(5) .

الوحي في الشرع :

ومعنى الوحي في الشرع تكليم الله سبحانه واحدا من عباده بطريقة من طرق الوحي . والوحي أمر غيبي لا نستطيع ان نفصل القول فيه إلا بحدود ما ورد في شأنه من النصوص الشرعية .

إن كل من آمن بوجود الله وقدرته لزمه ان يسلم بموضوع الوحي على انه بديهية مسلمة لايحتاج إلى مزيد من الأدلة عليه ، فلا يمكن لنا إذا آمنا بوجود الخالق المدبر إلا أن نتبع هذا الايمان بالايمان بضرورة رعايته لخلقه ، وتدبيره المستمر للكون على ما يرضى ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا بالوحي .

اما إمكانية الوحي فان العقل السليم لا يستبعدها ، لأن الذي يؤمن بوجود الله ـ سبحانه ـ وكماله لايصعب عليه الاقتناع عقلياً بامكانية الوحي من الناحية الواقعية ، ذلك أننا نجد في دنيا الواقع أن الانسان العاجز المحدود

---

(1) سورة القصص : ٧

(2) سورة الانعام : ١٢١

(3) سورة الانعام : ١١٢

(4) « الوحي المحمدي » للسيد رشيد رضا : ٣٧

(5) « عمدة القاري » للعيني ١/١٤

الطاقة استطاع ان يصل بواسطة بعض التصرفات والبحوث والآلات إلى أن يؤثر في إنسان مثله . . فما القول في قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك وأكبر من ذلك ؟.

ففي التنويم المغناطيسي نجد إنساناً عاجزاً يقوى على الإيحاء إلى إنسان آخر ، وفي محطات الاذاعة يستطيع رجال الاعلام الموهوبون أن يوحوا إلى نماذج عديدة من الناس ما يشاؤون من الأفكار والآراء . إذا كان ذلك كذلك فان ايحاء الله إلى عبد من عباده اختاره لهداية الناس لا يمنع العقل السليم إمكان وقوعه . إذا كان صاحب هذا العقل مؤمنا بقدرة الله سبحانه وكماله .

* * *

صور الوحي :

هناك صور للوحي حددتها الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة ، نورد بعضها فيما يأتي :

قال الله تعالى : **(وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء . إنه علي حكيم)**[1] .

وجاء في الصحيحين عن اول بدء الوحي الحديث الآتي :

عن عائشة قالت : « اول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : إقرأ ، قال : « ما أنا بقارىء » .

قال : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال : اقرأ . قلت : ما انا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ،

---

(١) سورة الشورى : ٥١

ـ أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما انا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة ، ثم ارسلني فقال : « إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده . فدخل على خديجة فقال : « زملوني زملوني » ... الحديث (١).

وسنعدد هذه الصور التي يكون الوحي عليها :

١ ـ يكون الوحي بالرؤيا الصادقة :

وذلك كما في حديث عائشة الذي أوردناه قبل قليل : (أول مابدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم) .

وكما في قوله تعالى عن ابراهيم عليه السلام (**يابني إني ارى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى**)(٢) .

٢ ـ ويكون بالهام النبي في حالة اليقظة والقاء المعنى في قلبه من غير أن يرى الملك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب »(٣) .

٣ ـ ويكون بتكليم النبي من وراء حجاب وبشكل مباشر ويسمع النبي الكلام كما كلم الله سبحانه موسى عليه السلام من وراء الشجرة كما نص على ذلك القرآن : (**فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة : ان ياموسى إني انا الله رب العالمين**)(٤) .

٤ ـ ويكون بتكليم النبي بواسطة جبريل ، وهذه الصورة لها شكلان: الشكل الأول : أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس (٥) وكان أشده عليه ،

---

(١) انظر الحديث في « اللؤلؤ والمرجان » ٢٢/١ والبخاري ٣/١ ومسلم ٩٧/١ وانظر شرحه في « فتح الباري » ٢٢/١ وانظر « الاتقان » ٢٢/١ النوع السابع .

(٢) سورة الصافات : ١٠٢

(٣) قال السيوطي في « الاتقان » ٤٤/١ : أخرجه الحاكم .

(٤) سورة القصص : ٣٠

(٥) قال الخطابي : والمراد انه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبته اول ما يسمعه حتى يفهمه بعد (« الاتقان » ٤٤/١) .

حتى إن جبينه ليعرق (١) وحتى تبرك راحلته .
وقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه صلى الله عليه وسلم على فخذ زيد بن ثابت فثقلت على فخذ زيد حتى كادت ترضهـا .

الشكل الثاني : أن يأتيه جبريل ويتمثل له رجلا ، فيخاطبه .
كما قال صلى الله عليه وسلم : « احيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فاعي ما يقول » (٢) .

وزاد أبو عوانة في « صحيحه » : « وهو اهونه علي » (٣) .

وقد يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها ، فيوحي اليه ما شاء الله أن يوحيه . وهذا وقع مرتين كما ذكر الله سبحانه في سورة النجم وفي سورة التكوير . ففي صحيح مسلم (٤) عن مسروق قال :

كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة (وهي كنية مسروق ، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد اعظم على الله الفرية .

قلت : ما هن ؟ .

قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

قال : وكنت متكئا فجلست ، فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : **(ولقد رآه بالأفق المبين)**(٥) **(ولقد رآه نزلة اخرى)**(٦) .

فقالت أنا أول هذه الأمة من سأل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « انما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والارض » .

---

(١) انظر الحديث في « صحيح البخاري » ٣/١ وصحيح مسلم ٨٢/٧
(٢) صحيح البخاري ٢/١ وصحيح مسلم ٨٢/٧
(٣) الاتقان : ٤٤/١
(٤) صحيح مسلم ١١٠/١
(٥) سورة التكوير : ٢٣
(٦) سورة النجم : ١٣

وقالت : اولم تسمع أن الله عز وجل يقول : (**لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**)[1] أو لم تسمع ان الله عز وجل يقول : (**وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب أو يرسل رسولا**)[2] .

قالت : ومن زعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية - والله تعالى يقول : (**ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**)[3] .

قالت : ومن زعم انه يخبر بما يكون في غد فقد اعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : (**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**)[4] .

وهذه الصورة الرابعة واعني الشكل الاول هي التي نزل بواسطتها القرآن .

آثار الوحي على الرسول :

صور لنا الصحابة فيما أوردوا من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم آثار هذه الظاهرة : ظاهرة الوحي ، فذكروا ان الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تبدو على وجهه الكريم امارات معينة في كل مرة ينزل عليه القرآن .

وكان امر هذه الظاهرة لا يخفى على احد ممن ينظرون اليه . فكانوا ــ كما تروي الأحاديث الصحيحة ذلك ــ يرونه قد احمر وجهه فجأة ، واخذته البرحاء (٥) حتى يتفصد جبينه عرقاً في اليوم البارد ، وثقل جسمه حتى كاد يرض فخذه فخذ الجالس الى جانبه ، وحتى لو كان راكبا لبركت راحلته كما سبق أن مر بنا .

---

(١) سورة الانعام : ١٠٣

(٢) سورة الشورى : ٥١

(٣) سورة المائدة : ٦٧

(٤) سورة النمل : ٦٥

(٥) برحاء الحمى : شدة اذاها .

وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه صلى الله عليه وسلم أصواتا مختلطة تشبه دوي النحل(١) .. ثم لا يلبث أن تسرى عنه تلك الشدة فاذا هو يتلو قرآنا جديدا وذكرا للعالمين (٢) .

وقد ذكر الاستاذ المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز أن هذه الاوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبي داود والترمذي(٢) .

* * *

صدق ظاهرة الوحي :

ان هذه الظاهرة العجيبة لا يمكن ان تكون متكلفة ولا مصنوعة لا سيما اذا تاملنا تلك الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه النبوي الشريف .

ولو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه ، فكانلايشاء يوماً أنيأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاد في تحضيره (٣) .

وإليك بعض الأدلة على أن الوحي أمر لا يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

١ ـ كانت تنزل بالنبي نوازل يتطلب لها حلا ، وكذلك كل من حوله ؛ ولكنه لايجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس(٤) .

ومن هذه النوازل والأزمات حديث الافك عن زوجه السيدة المصونة عائشة رضي الله عنها ؛ فلقد أبطأ الوحي ، وطال الانتظار والناسيخوضون في هذا الحديث المؤذي ، ويلوكون عرض النبي النقي ، حتى بلغت القلوب الحناجر . وهو لا يستطيع أن ينهي هذه المشكلة ، ويحسم هذا الموضوع ،

---

(١) انظر « شرح السنة » للبغوي ٥/١٧٧ واخرجه احمد والترمذي والحاكم
(٢) انظر « النبأ العظيم » ص ٧١
(٣) « النبأ العظيم » ص ٧٢
(٤) « النبأ العظيم » ص ١٦

ومضى شهر بأكمله وهو ينتظر راي السماء ، وما زاد على ان قال لها آخر الأمر :

« يا عائشة اما إنه بلغني كذا وكذا . فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألمت بذنب فاستغفري الله »(١) .

هذا كلام رجل من البشر لا يعلم الغيب ، وكلام المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم . على انه لم يغادر مكانه بعد ان قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءتها ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها .

فماذا كان يمنعه ـ لو ان امر القرآن اليه ـ ان يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ، ويذب بها عن عرينه . ويقطع بها السنة القاذفين المتخرصين وينسبها إلى الوحي ؟

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله(٢) .

٢ ـ وفي مرات اخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه ويخطئه في الراي يراه ، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه ، فمن ذلك قوله تعالى : **(وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله احق أن تخشاه)**(٣) وقوله تعالى : **(عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)**(٤) وقوله تعالى : **(اما من استغنى فانت له تصدى . وما عليك الا يزكى . واما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فانت عنه تلهى . كلا)**(٥) .

لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه ، معبرة عن ندمه

---

(١) انظر حديث الافك في البخاري ٨٨/٦ ومسلم ١١٢/٨ وكتب الحديث والسيرة .
(٢) « النبأ العظيم » : ص ١٧
(٣) سورة الاحزاب : ٣٧
(٤) سورة التوبة : ٤٣
(٥) سورة عبس : ٥ ـ ١٠
(٦) انظر « النبأ العظيم » ص ١٨

حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه : أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل ؟ الم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه ؟؟(١)

٣ ــ ولقد كان يجيئه الامر احياناً بالقول المجمل ، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا اصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد .

فهل هناك انسان توحي اليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه ؟ وتأمر امراً لا يعقل هو حكمته ؟

اليس ذلك من الأدلة الواضحة على انه ناقل لا قائل ، وانه مأمور لا آمر ؟(٢) نزل قوله تعالى : **(وإن تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)**(٣) فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً ، وداخل قلوبهم منها شيء لم يداخلها من شيء آخر ، لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها ، فقالوا :

ــ يارسول الله انزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها .

ــ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « اتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى انزل الله بيانها بقوله : ((**لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ..**))(٤) .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم تأويلها من أول الامر لبيّن لهم خطاهم ولإزال اشتباههم من فوره ، لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة اليه(٥) .

الخلاصـــة :

وخلاصة ما يمكن أن تذكره في ظاهرة الوحي ما يأتي :

١ ــ انها حالة غير اختيارية .

(١) انظر « النبأ العظيم » ص ١٨

(٢) انظر « النبأ العظيم » ص ٢١

(٣) سورة البقرة : ٢٨٤

(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦

(٥) « النبأ العظيم » ص ٢٢

٢ – وهي عارض غير عادي .

٣ – وهي قوة خارجية : لانها لا تتصل بنفس النبي صلى الله عليه وسلم إلا حينا بعد حين .

٤ – وهي قوة عالمة : لانها توحي إليه علما .

٥ – وهي قوة أعلى من قوة النبي صلى الله عليه وسلم : لانها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة .

٦ – وهي قوة خيرة معصومة : لأنها لا توحي ألا بالحق ولا تأمر الا بالرشد (١) .



(١) « النبأ العظيم » ص ٧٢ – ٧٤ وينبغي ان يقف القارىء على كلام الاستاذ سيد قطب رحمه الله من الوحي في « ظلال القرآن » ٢٥ / ٥٣ – ٥٧ من المجلد السابع .

الفصل الرابع

في
تنجيم القرآن

معنى التنجيم :

التنجيم في اللغة : التفريق . يقال : نجّم المال تنجيماً : إذا أدّاه نجوماً . وتنجيم القرآن اي نزوله مفرقا على دفعات .

مدة التنجيم :

نزل القرآن منجما في مدة ثلاث وعشرين سنة .

وقدرها الاستاذ الخضري باثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً معتبراً بدايته في ١٧ رمضان ونهايته في ٩ ذي الحجة للسنة العاشرة للهجرة (١) .

وقد ردّ عليه الأستاذ الزرقاني رداً رفيقاً في « مناهل العرفان » فقال : (لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة لانه . .) (٢) .

كمية النازل في كل نجم :

وكانت كمية الآيات تتفاوت في النزول ، فأحيانا كانت تنزل آية من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحيانا ينزل بعض آية كما في قوله تعالى : **(غير أولي الضرر)** (٣) حيث نزلت وحدها في قوله تعالى : **(لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم)** (٣) .

وكما في قوله تعالى : **(وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم)**(٤) بعد قوله تعالى : **(انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا)** (٤) .

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ص ٥

(٢) انظر تفصيل ذلك في « مناهل العرفان » ١ / ٤٥

(٣) سورة النساء : ٩٥

(٤) سورة التوبة : ٢٨

.وأحيانا كانت تنزل عليه الآيتان والخمس والعشر فقد نزل في موضوع الإفك عشر آيات جملة واحدة من اول سورة النور(1) .

وقد ذكر السيوطي في « الاتقان » أن من السور التي نزلت جملة واحدة (الفاتحة) و (الكوثر) و (تبت) و (لم يكن) و (النصر) و (المعوذتان) و (المرسلات)(2) و . . .

* * *

موقف المشركين من التنجيم :

كان تنجيم القرآن مثار الاعتراض من المشركين ، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وأجاب عنه .

قال تعالى : (**وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا**)(3) .

ومن المفيد أن ننقل تعليق أبي شامة(4) على الآية كما أورده السيوطي في « الاتقان » قال أبو شامة :

[فإن قيل : ما السر في نزوله منجما ؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى : (**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة**)(3) يعنون : كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم الله تعالى بقوله (**كذلك**) اي أنزلناه كذلك مفرقا (**لنثبت به فؤادك**) أي لنقوي به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان اقوى للقلب واشد عناية بالمرسل إليه ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك ،

---

(1) من الآية 11 حتى الآية 21 .

(2) « الاتقان » 1/37

(3) سورة الفرقان : 32

(4) هو عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي أبو القاسم شهاب الدين ، مؤرخ محدث باحث ولد في دمشق سنة 599 وفيها نشأ وولي مشيخة دار الحديث الاشرفية . دخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه فمات في دمشق سنة 665 . لقب أبا شامة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر .

وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ؛ ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل)(1) .

حكم التنجيم واسراره :

ونستطيع ان نذكر من حكم التنجيم واسراره ما يأتي :

١ ـ تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم : لأن في تجدد الوحي قوة لقلبه صلى الله عليه وسلم واستشعاراً لعناية الله برسوله ، هذا فضلا عن مضمون الآيات المشجعة للرسول صلى الله عليه وسلم المعزية له كما في قوله تعالى : **(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً)** (2) وقوله : (**فلا يحزنك قولهم إنا نعلم مايسرون وما يعلنون**)(3) وقوله : (**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا**)(4) وقوله : (**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**)(5) وقوله : (**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**)(6)

٢ ـ تسهيل حفظه على الرسول والمسلمين وتسهيل فهمه :

فانه عليه الصلاة والسلام أمي لا يقرا ولا يكتب ؛ وكذلك كان العرب المسلمون ؛ وقد سماهم الله اميين (**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم**)(7) .

ولئن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد وعد بأنه سيعان على الحفظ بحيث لاينسى كما قال تعالى : (**سنقرئك فلا تنسى**)(8) إن المسلمين

---

(1) الاتقان ١ / ٤١
(2) سورة المزمل : ١٠
(3) سورة يس : ٧٦
(4) سورة الكهف : ٦
(5) سورة الانعام : ٣٣
(6) سورة فاطر : ٨
(7) سورة الجمعة : ٢
(8) سورة الاعلى : ٦

بحاجة إلى زمن يساعدهم على الحفظ ، ومن اجل ذلك كان نزوله منجماً .

٣ ــ موالاة تقريع الكفار بالحجة بعد الحجة ، وتجديد تذكيرهم بانحرافهم وسوء عقيدتهم : لو نزل القرآن دفعة واحدة لواجه الكفار هذه التقريعات ، وتألموا لها اول مرة ، ثم ألفوها ، ونسيها الناس .

٤ ــ استغلال الحوادث والوقائع للرد على المشركين وفضح المنافقين :

وهذه حكمة عظيمة من حكم التنجيم ، فقد كانت الآيات القرآنية النازلة في حادثة معينة ترد على المشركين وتفحمهم ، وتفضح المنافقين وتكشف خفاياهم مما يجعلهم يتخوفون أبداً أن يكشفوا كما قال تعالى : **(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . قل استهزئوا ان الله مخرج ماتحذرون)**(١) .

٥ ــ تعميق التاثير في النفس والتذكر :

ان ربط الآية بالحادثة والواقعة ادعى الى ان يتذكر الناس جميعا هذه الآية . واعمق تأثيرا في النفس البشرية .

لان الآية عندئذ تعالج جانبا من حياة الناس عاشوه ومثل ذلك من البعيد أن ينسى .

ومن الامثلة على ذلك ربط آية القذف بحادثة الافك . والأمثلة على ذلك كثيرة .

٦ ــ رعاية المجتمع الاسلامي والاخذ بيده في الحياة الجديدة على ضوء هداية السماء : ذلك لان كثيرا من الآيات التشريعية كانت تنزل في الغالب جوابا لسؤال كما في قوله تعالى : **(يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير)**(٢) أو حلا لاشكال ليس في الكتاب الكريم راي فيه ، كما في قصة مرثد الغنوي الذي عرضت عليه امراة مشركة الزواج ، فقبل ووقف ذلك على إذن الرسول صلى الله عليه وسلم له ، فلما عرض

---

(١) سورة التوبة : ٦٤

(٢) . سورة البقرة : ٢١٧

قضيته على النبي صلى الله عليه وسلم نزل[1] قوله سبحانه : **(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن)**[2] .

وقد جلا هذه الناحية على خير وجه الأستاذ سيد قطب فقال :

لقد جاء هذا القرآن ليربي امة وينشىء مجتمعاً ، ويقيم نظاماً ، والتربية تحتاج الى زمن - والى تأثير وانفعال بالكلمة ، والى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع . والنفس البشرية لاتتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد ، إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج وتتدرج في مراقيه رويداً رويداً ، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً ، فلا تجفل كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً ، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح بالتالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية - وأشد قابلية لها والتذاذاً بها .

ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها ، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها ، فجاء لذلك منجماً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهي في طريق نشأتها ونموها ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم في ظل المنهج التربوي الالهي الدقيق ، جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة ، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة او لمجرد المعرفة .. جاء لينفذ حرفا حرفا ، وكلمة كلمة وتكليفا تكليفا ، جاء لتكون آياته هي (الأوامر اليومية) التي يتلقاها المسلمون في حينها ليعملوا بها فور تلقيها ، كما يتلقى الجندي في ثكنته او في الميدان (الامر اليومي) مع التأثر والفهم والرغبة في التنفيذ ، ومع الانطباع والتكيف وفق ما يتلقاه ... من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلا)[3] .

---

(1) هذا قول ابن عباس ذكره ابن الجوزي في « زاد المسير » ١/٢٤٥ وقد روى هذه القصة بسياق آخر الترمذي (٤/١٥٣ من تحفة الاحوذي) وذكر انها سبب للآية التي في سورة النور وهي قوله تعالى : « الزاني لاينكح الا زانية او مشركة » وكذا رواه ابو داود والنسائي .

(2) سورة البقرة : ٢٢١

(3) « في ظلال القرآن » ١٩ / ٣٤

والتدرج في التشريع وسيلة رعاية المجتمع الاسلامي ، والاخذ بيده كما راينا . ومن ابرز الامثلة على التدرج في التشريع الآيات التي ذكر فيها الخمر .

فلقد حرمت الخمر بعد ان امتلات نفوس المسلمين مخافة من الله ورغبة في ثوابه ، وحبا في التزام هديه .

وكان تحريم الخمر على مراحل كما هو معروف :

ـ نزل أولا قوله تعالى : **(يسالونك عن الخمر والميسر قل : فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما اكبر من نفعهما)**(1) .

فلم تصرح الآية بطلب الكف عنهما . ولكنها اكتفت بذكر ان اثمهما اكبر من نفعهما ؛ وفي ذلك تهيئة النفس لقبول ماسينزل من الآيات بحقهما .

ـ ثم نزل قوله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون)**(2) .

وفي هذه الآية نجد المنع مؤقتاً بحالة السكر . ومعلوم أن المسلم مكلف بالصلاة في اوقات متقاربة ، لا يذهب خلالها اثر السكر ، فكان ذلك سبباً في تركها سحابة النهار ، وكانوا اذا صلوا العشاء سكر من اراد منهم السكر . وفي ذلك تدريب على تركها مدة طويلة من يقظة الانسان .

ـ ثم نزل قوله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أنتم منتهون)**(3) .

فانتهى المسلمون ؛ وتركوا الخمر . واهرقوا ما في دورهم منها .

روى البخاري عن عائشة قالت :

(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل؛ فيها ذكر الجنة والنار، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل اول شيء

---

(1) سورة البقرة : ٢١٩

(2) سورة النساء : ٤٣

(3) سورة المائدة : ٩٠ ــ ٩١

(لا تشربوا الخمر) لقالوا : لا ندع الخمر ابداً . ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا : لا ندع الزنا ابداً) (١) .

٧ـ اثبات الاعجاز :

في التنجيم دليل قاطع على الاعجاز ، وذلك من وجهين :

الأول : في كونه محافظاً على المستوى الرفيع في البيـــان ، والدرجة العالية في البلاغة ، ذلك لأننا لانعرف في مجـــال الأدب والبيـــان فصيحاً استطاع ان يبقى محافظاً على مستوى سام في نتاجه الادبي مدة طويلة . بل إننا لنجد ان للنابغين من ائمة البيان سقطات ، وكلما زاد احدهم تفوقا عظمت سقطته ؛ فالمتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس والذي ترك دويا في دنيا الفكر والأدب كبيرا جدا نجد له عددا من الهفوات التي اخذت عليه (٢) وكذلك شأن أبي تمام (٣) وأبي نواس (٤) وهما ـ كما يقول الجرجاني ـ سيدا المطبوعين وإماما أهل الصنعة (٥) وكذلك شأن امرىء القيس وهو كبير شعراء الجاهلية فما اكثر الابيات التي عيبت عليه واطال النقـــاد في ذكرهـــا .

قال الباقلاني :

(ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رايت التفاوت في شعره عـــلى حسب الاحوال التي يتصرف فيها ، فياتي بالغاية في البراعة في معنى ، فاذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره ، ولذلـــك ضرب المثل بالذين سميتهم ؛ لأنه لا خلاف في تقدمهـــم في صنعـــة الشعر ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم ، فإذا كان الاختلال يتأتى في شعرهم لاختلاف مايتصرفون فيه استغنينا عن ذكر من هو دونهم ، وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها .... وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع مايتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف لاتفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا)(٦) .

---

(١) « صحيح البخاري » ٦ / ١٥٢ وانظر « الاتقان » ١ / ٤٢

(٢) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٦٤ ــ ٧٧

(٣) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٥١ ــ ٦٢

(٤) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٤٢ ــ ٥١

(٥) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٦٤

(٦) « اعجاز القرآن » ص ٣٧ طبع دار المعارف تحقيق السيد صقر .

والقرآن ادب كلما امعنت نظراً فيه أطلعك على نـواح جديـدة من الجمال . وكلما تقدم الزمان بدا من روعة اسلوبه وسحر بيانه ما لم يكن بادياً هذا في القرآن على طول المدة التي نجم فيها .

وكذلك فان مما يتصل بهذا المعنى بسبب هو ان التنجيم يبرز معنى الإعجاز في كون القرآن يعالج الموضوع الواحد اكثر من مرة ، ويتكرر عرضه في ظروف متعددة متباعدة ويبقى الاسلوب في كل مرة رائعاً معجزاً .

قال الباقلاني :

(وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بيناً . ويختلف اختلافا كبيرا . ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت . بل هو على نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير . عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب) (١) .

الثاني : في كون الآيات نزلت في اوقات متباعدة ، واستجابة لأسباب معينة . وعلى الرغم من ذلك فقد بدت السورة ذات موضوعات متماسكة ، كل موضوع يمسك برقبة الذي بعده . ويسود السورة انسجام وائتلاف وكأنها انزلت مرة واحدة . وقد يكون اول السورة قد نزل بعد آخرها . وقد حلل هذه الناحية الدكتور محمد عبد الله دراز على احسن وجه فقال : (اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول اكثر من معنى واحد ، وما اكثرها في القرآن ، فهي جمهرته ، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها؟ ووطأت أولاها لأخراها ؟ وانا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به اكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد ام في نجوم شتى ، ولسوف تحسب أن السبع الطول من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة ، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجوما) (٢) .

---

(١) « اعجاز القرآن » تحقيق الصقر طبع دار المعارف ص ٣٧ — ٣٨

(٢) « النبأ العظيم » ص ١٧٢ وانظر ما كتب الدكتور دراز حول هذا الموضوع ص ١٦١ — ١٨٠ .

الفصل الخامس

في
الآيـة والسورة

١ ـ الآيـة :

١ ـ الآية في اللغة :

تدل كلمة الآية على معان عدة . نذكر اهمها فيما يأتي :

١ ـ المعجزة : ومنه قوله تعالى : (**سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة**)(١) .

٢ ـ العلامة الظاهرة : ومنه قوله تعالى : (**إن آيـة ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم**)(٢) .

ومنه قول العرب : بيني وبين فلان آية ، اي علامة . ومنه قـول النـابغة :

توهمت آيات لهـا فعرفتها لستة أعوام وذا العام السابع

٣ ـ الامر العجيب : ومنه قوله تعالى : (**وجعلنا ابن مريم وامه آية**) (٣) . قال الراغب : (وانما قال : وجعلنا ابن مريم وامه آية) ولـم يقل : آيتين ، لان كل واحد صار آية بالآخر) (٤) .

٤ ـ العبرة : ومنه قوله تعالى : (**إن في ذلك لآية**) (٥) .

٥ ـ البرهان والدليل : ومنه قوله تعالى : (**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم**) (٦) .

---

(١) سورة البقرة : ٢١١

(٢) سورة البقرة : ٢٤٨

(٣) سورة المؤمنون : ٥٠

(٤) « مفردات الراغب » ص ٣٢

(٥) سورة آل عمران : ٤٩

(٦) سورة الروم : ٢٢

٦ ـ الجماعة : ومنـه قولهم : خرج القـوم بآيتهم ، او بآياتهم اي بجماعتهم . قال برج بن مسهر الطائي (١) :

خرجنا من النقبين لاحي مثلنـا بآياتنـا نزجي اللقاح المكافلا

وزنهـا :

اختلف علماء العربية في أصل (آية) ووزنها .

ـ فقال سيبويه : (أَيَيَة) على وزن (فَعَلَة) مثل (أَكَمة) و (شَجَرة) فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت الفا فصارت (آية) .

ـ وقال الكسائي : اصلها (آيية) على وزن (فاعلة) مثـل (آمنة) فقلبت الياء الفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتباسها بالجمع .

ـ وقيل : غير ذلك .

* * *

اشتقاقها :

ذكر العلماء أقوالا في اشتقاقها غير ان اقربها للصواب القـول بانهـا مشتقة من (التأيّي) الذي هو التثبت والاقامة على الشيء . يقال : تأيَّ ، اي ارفق .

* * *

جمعها :

آي ، وآيات ، وآياء .

* * *

---

(١) شاعر جاهلي من المعمرين ، كانت اقامتـه في ديارطي بنجـد وذكر الزركلي في « الاعلام » انه توفي نحو ٣٠ قبل الهجرة .

الآية في القرآن :

هي طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها، لها مبدأ ومقطع ، وهي مندرجة في سورة ومعرفتها توقيفية على القول الراجح .

* * *

العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني :

ـ سميت الآية آية لانها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله . اي هي بائنة من اختها ومنفردة .

وقالوا : الآية من القرآن كأنها العلامة ينتقل منها الى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية .

ـ وقيل : سميت آية لانها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه .

ـ وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن الاتيان بمثلها (١) .

* * *

كيف تعرف الآيات ؟

القول الراجح أن معرفة الآيات لا يكون إلا بخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا معنى قولنا (معرفة الآيات توقيفي) . وقد سبق في تعريف الآية .

* * *

وهناك من يذهب إلى ان من الآيات مامعرفته سماعية توقيفية ، ومنها مامعرفته اجتهادية ، يقولون : ماثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائماً تحققنا انه نهاية آية ، وما وصله دائماً تحققنا انه ليس نهاية آية ، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف ان يكون تعريف الفاصلة او للاستراحة ؛ وبالاجتهاد نستطيع تحديد نهاية الآية في مثل ذلك .

---

(١) انظر « البرهان » ٢٦٦/١ و « الاتقان » ٦٨/١

٢ ـ السورة :

في نطقها لغتان : اولاهما (السؤرة) مهموزة ، والثانية : (السورة) بلا همز ، وهي الأشهر .

ـ اما الاولى ـ اي التي تهمز ـ فمشتقة من (اسأر) اي ابقى منها بقية . و (السؤر) البقية التي تزيد عن شرب الشارب في الاناء .

وسميت السؤرة سؤرة لانها قطعت من القرآن على حدة ، فهي قطعة من القرآن .

ـ واما الثانية ـ اي التي لاتهمز ـ فقد قالوا في اشتقاقها اقوالا عديدة (١) .

فقد قيل : ان اصلها (سؤره) ثم سهلت الهمزة ؛ وتكون العلاقة بين معناها اللغوي والقرآني هي التي ذكرناها آنفا .

وقيل : هي من السورة التي تعني في كلام العرب المنزلة الرفيعة .
قال النابغة :

ألم تر ان الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

اي منزلة شريفة ارتفعت اليها عن منزلة الملوك .
وسميت السورة سورة لارتفاعها وشرفها .

وقيل : هي من السور ؛ وسور المدينة حائطها المشتمل عليها .
فالسورة تضم آيات من القرآن تحيط بها إحاطة السور وتشتمل عليها .

وقيل : سميت بذلك لان قارئها يشرف على ما لم يكن عنده كسور البناء .

وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها ، من قول العرب للناقة التامة : سورة .

جمعها :

وجمع السورة سُوَر ، وسُورات ، وسُوَرات .

---

(١) انظر « الاتقان » ١/٥٠ و « نكت الانتصار » ص ٥٧ و « البرهان » للزركشي ١/٢٦٣

السورة خاصة بالقرآن :

نقل السيوطي عن الجاحظ قوله :

(سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل :

سمّى جملته قرآنا كما سموا ديوانا ؛

وبعضه سورة كقصيدة ؛

وبعضها آية كالبيت ؛

وآخرها فاصلة كقافية .) (١)

من سمى سور القرآن ؟

ذهب السيوطي إلى انها مسماة بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وقال : (وقد ثبت جميع اسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، **ولولا خشية الاطالة لبينت ذلك)** (٢) .

هذا ؛ وقد يكون للسورة اسمان فاكثر، والغالب ان لها اسماً واحدا.

---

(١) الاتقان » ١ / ٥٠ النوع السابع عشر

« الاتقان » ١ / ٥٢

الفصل السادس

في
ترتيب آيات القرآن وسوره

١ ـ اما ترتيب الآيات في السورة الواحدة فقد كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وباشارة منه ، وهذا مدلول قول زيد بن ثابت الذي رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين قال : « كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع » .

قال البيهقي : شبيه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيه باشارة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء في حديث عثمان الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا .

ومن الأدلة على أن ترتيب الآيات توقيفي حديث حذيفة الذي رواه مسلم في « صحيحه » قال : صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلي بها في ركعة ، فمضى ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ... وهناك إجماع على أنه توقيفي لا خلاف فيه بين المسلمين .

قال الباقلاني :

(ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا)(١) وقال أيضاً :

(أن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولا أخر منه مقدم ، وإن الأمة ضبطت

---

(١) « الاتقان » ٦١/١

عن ألنبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آيات كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة)[1] .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في هذا الصدد :

(واما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه ، فلم يكن لهم ان يقدموا آية على آية في الرسم كما قدموا سورة على سورة لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً وأما ترتيب السور فمفوض الى اجتهادهم) [2] .

قال الاستاذ سيد قطب رحمه الله :

ان وضع الآيات في السور وترتيبها في مواضعها كان يتم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ؛ وأن سوراً متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد فاذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعاً قائماً او تكمل حكما أو تعدله وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان توضع في موضعها من سورتها ، وبذلك كانت هناك حكمة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات ، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة .

ولقد لاحظنا ــ كما أثبتنا ذلك مراراً في التعريف بالسور ــ أن هناك « شخصية » خاصة لكل سورة ؛ وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية ، كما أن هناك جواً معيناً وظلالا معينة ثم تعبيرات بعينها في السورة الواحدة تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية[3] .

لماذا لم ترتب الآيات حسب نزولها ؟

شاءت ارادة الله أن يوحي الى الرسول صلى الله عليه وسلم بموضع الآية من السورة كما رأينا ؛ وان يجمع على غير ترتيب نزوله ليظل معجزة الى ابد الآبدين . وفي ذلك يقول الأستاذ محمد المدني في كتابه « المجتمع الاسلامي كما تصوره سورة النساء » :

---

(1) « الاتقان » ٦١/١

(2) « مجموع الفتاوى » (٣٦٦/١٣)

(3) « في ظلال القرآن » ١١١/١٠

(لو.انه جمع على حسب ترتيب نزوله لفهم بعض الناس ان آياته خاصة بحوادثها . او انه حلول وقتية للمشكلات التي كانت على عهد الرسول فحسب ؛ والله تعالى يريد كتابه عاماً خالداً لا يختص بعصر دون عصر ؛ ولا بقوم دون قوم . لذلك اقتضت الحكمة بأن يرتب ترتيباً يحقق هذا العموم وهذا الخلود ، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذي نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله)(١) .

٢ ــ أما ترتيب السور فأمر مختلف فيه . فبعضهم يقول : انه توقيفي . وبعضهم يرى انه اجتهاد من الصحابة . قال الباقلاني :

(يمكن ان يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد رتب سوره ؛ وان يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده . ولم يتولّ ذلك بنفسه ؛ وهذا الثاني اقرب)(٢) .

ويرى شيخ الاسلام ابن تيمية أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصا . بل كان مفوضاً الى اجتهادهم ؛ ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد وكذلك مصحف غيره)(٣) .

وقد نقل السيوطي في « الاتقان » ان جمهور العلماء على أن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة(٤) وأورد رأياً لابن حجر يقول فيه : ترتيب بعض السور او معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً ؛ ثم ذكر أدلته على ذلك(٥) .

ومهما يكن من امر فالذي أراه في هذا الموضوع هو :

ان ترتيب السور كما هو في المصحف واجب الاتباع ، وان كان في بعضه او معظمه يعود إلى ترتيب الصحابة . ولا يجوز أن ترتَّبَ سور المصحف على خلاف الترتيب الذي ارتضاه الصحابة رضوان الله عليهم ،

---

(١) نقلا عن كتاب « القرآن والعلم الحديث » لعبد الرزاق نوفل ص ١٤
(٢) « الاتقان » ٦١/١
(٣) «مجموع الفتاوى » ٣٩٦/١٣
(٤) « الاتقان » ٦٢/١
(٥) « الاتقان » ٦٣/١

وأنعقد الاجماع عليه في الأجيال المتتالية التي جاءت من بعدهم حتى عصرنا هذا ، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، ولذلك فان ترتيب السور ترتيباً جديداً يراعى فيه النزول أمر مخالف للإجماع و لايجوز ، وهو غير ممكن ، ذلك لأن هناك سوراً نزل آخرها قبل أولها واستغرق نزولها مدة من الزمن .

اما ترتيب آيات السورة ترتيباً جديداً فالأمر فيه أشد وهو محظور بإجماع المسلمين : بل قد حكم بعض العلماء بكفر من يفعل ذلك ؛ لأن ترتيب آيات السورة ـ كما رأينا آنفاً ـ كان بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم بناء على أمر جبريل .

والله أعلم .



الفصل السابع

في
اعجاز القرآن

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وهذا يقتضينا ان نقدم بين يدي بحثنا في الاعجاز حديثا عن المعجزة .

المعجزة :

المعجزة ظاهرة تكررت في حياة الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ لتكون دليلا على صدق دعواهم النبوة . وقد قص القرآن الكريم علينا كثيرا من انباء المعجزات التي جاءت مصدقة لرسل الله المتقدمين من امثال ناقة صالح وعصا موسى وركوبه البحر وإحياء عيسى الموتى ؛ وإبرائه الأكمه والابرص .

ولا بد في المعجزة من ان تتوافر فيها امور ثلاثة :

١ ـ انها أمر خارق للعادة غير جار على ما اعتاد الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية . ولذا فهي غير قابلة لتفسيرها على نحو ما يجري عادة في الحياة .

٢ ـ انها أمر مقرون بالتحدي ؛ تحدي المكذبين أو الشاكين ، ولابد أن يكون الذين يتحدون من القادرين على إتيان مثل المعجزة إن لم تكن من عند الله . وإلا فان التحدي لا يتصور ؛ إذ اننا لا نستطيع أن نتصور بطلا في الملاكمة يتحدى طفلا ؛ لأن هذا الطفل عاجز عن مقابلته(١) .

---

(١) وفي ذلك رد لزعم النظام من ان العرب سلبوا القدرة على الاتيان بالقرآن مع امكانهم ذلك .

يقدر احد منهم على معارضته . وقد اعتبر القرآن أن مجرد سماعه حجة كبرى عليهم ، وكفى هذا دليلا على إعجازه . قال تعالى في صدد الرد على طلبهم المعجزات مشيرا إلى أن هذا الكتاب يغني عن كل معجزة : **(وقالوا : لولا انزل عليه آيات من ربه . قل إنما الآيات عند الله ، وإنما انا نذير مبين . اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم)**(١) .

فاخبر سبحانه : ان الكتاب الكريم الذي انزله الله والذي يتلى عليهم آية من آيات الله كاف في الدلالة على صدق نبوته . قائم مقام معجزات كثيرة . فلماذا يطلب هؤلاء القوم الآيات ؟ اولا يكفيهم هذا الكتاب الذي يفوق كل معجزات الأنبياء السابقة في الدلالة على نبوته ؟

ويقول تعالى : **(وإن احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله)**(٢) .

واذا سمع كلام الله وتذوقه قاده ذلك إلى الايمان ان كان من المنصفين، لانه لا يسمعه متذوق منصف إلا وينتهي به الى الايمان .

هذا وقد ايد الواقع التاريخي ذلك . فقد حدثتنا كتب السيرة أن مجرد سماع العربي للقرآن كان يوقفه على المعجزة العظمى ، ويحمله ذلك على الايمان . وادرك ذلك كفار قريش ، فكانوا ينهون عن سماع القرآن ، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم : **(وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)**(٣) .

وكانوا يسعون جهدهم للحيولة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين من يأتي من وفود العرب الى مكة . ومن ذلك ما جاء في « سيرة ابن هشام » عن اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي :

(قدم الطفيل مكة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً . فقالوا له :

---

(١) سورة العنكبوت : ٥٠ ــ ٥١

(٢) سورة التوبة : ٦

(٣) سورة فصلت : ٢٦.

ياطفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا(١)، وقد فرق جماعتنا ، وشتت امرنا ، وانما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين ابيه وبين الرجل وبين زوجته . وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيأ . قال الطفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ان لا اسمع منه شيئاً ، ولا اكلمه ، حتى حشوت في اذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا(٢) فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وانا لا اريد أن اسمعه .

فغدوت إلى المسجد . فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة . فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا . فقلت في نفسي : واثكل امي ، والله اني لرجل لبيب شاعر . ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته . وأن كان قبيحاً تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته . فاتبعته، حتى اذا دخل بيته دخلت عليه . فقلت : يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا .. فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت اذني بكرسف لئلا اسمع قولك . ثم ابى الله إلا أن يسمعني قولك . فسمعت قولا حسنا ، فاعرض على أمرك . فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام ، وتلا علي القرآن . فلا والله ما سمعت قولا قط احسن منه ، ولا امراً اعدل منه . فأسلمت وشهدت شهادة الحق)(٣) .

ومن اشهر الذين دخلوا في الاسلام بسبب إعجابهم باعجاز القرآن : عمر بن الخطاب واسيد بن حضير وسعد بن معاذ وغيرهم .
قال الأستاذ سيد قطب :

---

(١) أي اشتد امره بنا .
(٢) الكرسف : القطن
(٣) « تقريب السيرة النبوية لابن هشام » تصنيف محمد الشبراوي ص ١٤٥ وما بعدها و « البداية والنهاية » ٣/٩٨ ـ ١٠١ وانظر تتمة القصة هناك وكيف كان هذا الرجل داعية الى الاسلام بعد ذلك .

(سحر العرب منذ اللحظة الأولى . سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للاسلام ، ومن جعل على بصره غشاوة .

وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وحدها هي داعيتهم إلى الايمان في أول الأمر . كزوجه خديجة ، وصديقه ابي بكر ، وابن عمه علي . ومولاه زيد ، وامثالهم ، فاننا نجد القرآن كان العامل الحاسم . أو احد العوامل الحاسمة في ايمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة ، يوم لم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم حول ولا طول ، ويوم لم يكن للاسلام قوة ولا منعة .

وقصة ايمان عمر بن الخطاب وتولي الوليد بن المغيرة نموذجين من قصص كثيرة للايمان والتولي . وكلتاهما تكشف عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى . وتبينان في اتجاهين مختلفين عن مدى هذا السحر القاهر الذي يستوى في الاقرار به المؤمنون والكافرون [1] .

وقصة ايمان عمر معروفة[2] . وأما قصة تولي المغيرة فيحسن أن نذكر بها :

وموضع الشاهد منها أن قريشاً أوفدت أبا جهل اليه يطلب منه أن يقول في القرآن قولا يعلم منه الناس جميعاً أنه كاره له ، فأجابه الجواب الآتي الذي يدل على تأثره بجمال القرآن : (ماذا أقول فيه ؟ فوالله مامنكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده . ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه) .

قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .
قال : فدعني افكر فيه .

فلما فكر قال : (إن هذا إلا سحر يؤثر ، اما رأيتموه يفرق بين الرجل واهله ومواليه) .

---

(١) « التصوير الفني في القرآن » ص ١١
(٢) انظرها في « تقريب السيرة » ص ١٢٤ ــ ١٣٠

وفي ذلك يقول القرآن الكريم : **﴿ إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾**(1) .

وقد كتب الجاحظ مقالة في موضوع الاعجاز أرى ان أوردها هنا ، فإنها مقالة جديرة بالاهتمام ، قال الجاحظ :

(بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم اكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا ، واحكم ما كانت لغة ، واشد ما كانت عدة . فدعا اقصاها وأدناها إلى توحيد الله ، وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء الى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم بها ، وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشف عن نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفيا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من اخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا . قال : فهاتوها مفتريات .

فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر . . . فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه وخطباء امته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت انقض لقوله ، وافسد لامره ، وابلغ في تكذيبه ، واسرع في تفريق اتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الاموال . وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الراي والعقل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج ، واللفظ المنثور ، ثم يتحدى به اقصاهم بعد ان اظهر عجز ادناهم . فمحال ــ اكرمك الله ــ ان يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف

---

(1) سورة المدثر : ١٨ ــ ٢٤ وقد اخرج هذه القصة الحاكم عن ابن عباس وانظر « الاتقان » ١١٧/٢ و « تفسير القرطبي » ٧٤/١٩ و « تقريب السيرة » ص ٩٤

البين ، مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم اشد الخلق انفة ، واكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، وقد احتاجوا اليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعه ! فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه)(١) .



مدار الاعجاز :

الاعجاز دليل النبي صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته . وعلى ان هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد . ومدار الاعجاز الذي رافقه التحدي إنما كان أسلوب القرآن ونظمه وبيانه . ولم يكن لشيء خارج عن ذلك . وآيات التحدي كثيرة .

لقد تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي إعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم .

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لاياتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(٢) **(أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فلياتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين)**(٣) .

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا :

(أم يقولون افتراه . قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله إلا هو فهل أنتم مسلمون)(٤) .

ثم تنازل الى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهم يعلمون

---

(١) « الاتقان » ١١٧/٢

(٢) سورة الاسراء : ٨٨

(٣) سورة الطور : ٣٤

(٤) سورة هود : ١٣ ـ ١٤

عجزهم وتقصيرهم عن ذلك ، وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبدا : **(وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)**(١) .

قال الامام ابن كثير رحمه الله :

ومثل هذا التحدي انما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لايمكن للبشر معارضته ولا الاتيان بمثله ، ولو كان من متقول من عند نفسه لخاف أن يعارض فيفتضح ، ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له . ومعلوم لكل ذي لب أن محمداً صلى الله عليه وسلم من أعقل خلق الله ، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق ، فما كان ليقدم على هذا الامر وهو عالم بأنه لا يمكن معارضته .

وهكذا وقع ، فانه من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زماننا هذا لم يستطع أحد ان يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه ، وهذا لا سبيل إليه أبدا)(٢) .

* اما اخبار القرآن عن الامم السابقة فدليل على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي. وذلك كاخباره عن نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم : **(كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكرا)**(٣) .

(ذلك من انباء القرى نقصه عليك ، منها قائم وحصيد)(٤) .

(تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ، ماكنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين)(٥) وقال تعالى مخبرا عن بهتان اليهود: **(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيماً وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه**

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ وما بعدها

(٢) « البداية والنهاية » : ٦٥/٦

(٣) سورة طه : ٩٩

(٤) سورة هود : ١٠٠

(٥) سورة هود : ٤٩

لفي شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينـا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً)[1] .

* وكذلك فان اخبار القرآن عن الغيوب المستقبلة يقوم دليلا على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي ؛ وذلـك كاخباره عـن انتصار الروم على الفرس **(الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين)**[2] . وكاخباره عما سيكون عليـه الصحابـة **(علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله)** [3]وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة . وكاخباره عن انتصار المسلمين في المستقبل **(ام يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر)**[4] وقد وقع مصـداق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك . وكاخباره بالاشارة الموحية عن حدوث وسائط للنقل جديدة غير الوسائل المعروفة وذلك في قوله سبحانه **(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون)**[5] .

* وكذلك فان ما تضمنه القرآن من الاخبار عن السرائر ودخائل النفوس من غير ان يظهر منهم بقول أو فعل دليل على صدق نبوته ؛ وعلى أن هذا القرآن من عند الله ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن حديث نفس خطر ببالهم . فأطلع الله عليه نبيه صلى الله عليه وسلم وانزل قوله : **(إذ همّت طائفتان منكم ان تفشلا**[6] **والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون)**[7] والطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة اللتان

---

(1) سورة النساء : ١٥٧ ــ ١٥٨

(2) سورة الروم : ١ ــ ٢

(3) سورة المزمل : ٢٠

(4) سورة القمر : ٤٤ ــ ٤٥

(5) سورة النحل : ٨

(6) اي ان تجبنا وتضعفا

(7) سورة آل عمران : ١٢٢

همتا بالتقاعد عن الخروج يوم احد . وكاخباره عن قولٍ قاله اليهود في انفسهم : (**ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول . حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير**)[1] .

* وكذلك فان احتواء القرآن على شريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان امر يدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي .

* وكذلك فان اشتمال القرآن على نظرات صائبة الى حقائق الكون ، وإشارات صادقة الى بعض الأمور العلمية في الكون والانسان التي كشف عنها العلم الحديث .. ان ذلك يدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي .

* إذن فالاعجاز إنما هو في أسلوب القرآن ونظمه ، وليس في شيء خارج عن ذلك مما أشرنا اليه آنفاً . وقد جلا هذه الفكرة الكاتب الكبير الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقال :

(كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ ؟ وكيف اجتمع على الاقرار بسحره المؤمنون والكافرون سواء ؟

بعض الباحثين ينظر الى القرآن جملة ثم يجيب . وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن اسباباً اخرى يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملا :

* من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان .

* ومن اخبار عن الغيب يتحقق بعد اعوام .

* ومن علوم كونية في خلق الكون والانسان .

ولكن البحث على هذا النحو انما يثبت المزية للقرآن مكتملا ، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم ، ولا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة في القرآن .

---

(1) سورة المجادلة : ٨

انّ هذه السور القلائل قد سحر العرب بها منذ اللحظة الأولى ، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم ، ولا الأغراض الكبرى هي التي تسترعي إحساسهم وتستحق منهم الاعجاب .

لا بدّ إذن أن تلك السور القلائل كانت تحتوي على العنصر الذي يسحر المستمعين ويستحوذ على المؤمنين والكافرين ، وإذا حسبَ الأثر القرآني في اسلام المسلمين فهذه السور الأولى تفوز منه بالنصيب الأوفى مهما يكن عدد المسلمين من القلة في ذاك الأوان ، ذلك انهم إذ ذاك تأثروا بهذا القرآن وحده .... يجب إذن أن نبحث عن منبع السحر في القرآن قبل التشريع المحكم ، وقبل النبوءة الغيبية ، وقبل العلوم الكونية .. فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الاولى كان مجردا من هذه الاشياء التي جاءت فيما بعد . وكان مع ذلك محتوياً هذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب فقالوا : إنْ هذا الأسحر يؤثر (١) .

وقال ايضاً :

« قصة تولي الوليد بن المغيرة واردةٌ في سورة المدثر ، وهي السورة الثالثة غالباً في ترتيب النزول ، سبقتها العلق وسورة المزمل ، أو هي على العموم من السور الأولى في القرآن . فلننظر في هذه السور ، إننا نقرأ الآيات المكية في هذه السور فلا نجد تشريعاً محكماً ولا علوماً كونية ولا نجد إخباراً بالغيب . فأين هو السحر الذي تحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير (٢) ؟ » .

ثم اخذ الأستاذ سيد قطب في تحليل سورة العلق وسورة المزمل ليؤكد ما ذكره من ان موضوع الجمال الفني هو الذي سحر العرب ، وهو بالتالي الذي كان موضع الإعجاز .

ثم عمد إلى النظر بشكل عام وإجمالي في الآيات والسور التي سبقت في النزول سورة طه ، ذلك لأن آيات من هذه السورة كانت السبب في إيمان عمر بن الخطاب الذي سحر بالقرآن وجماله .

---

(١) « التصوير الفني في القرآن » ص ١٧ — ١٨

(٢) « التصوير الفني في القرآن » ص ١٨ — ١٩

قال الأستاذ سيد قطب :

(وانا لننظر فلا نجد فيها جميعاً الا القليل من تلك الاغراض التي يراها بعض الباحثين اكبر مزايا القرآن ، ولكننا نجد في هذه السور جمالاً في العرض وقوة في الاداء ، وايقاعا في العبارة ، وإيحاء في الاشارة - على نحو فريد .

ونجد القضية الإعتقادية التي تتولى عرضها معروضة في إطار من مشاهد الكون ومشاعر النفس تستجيش الحس وتستنهض الخيال)(1) .

وهكذا اثبت الأستاذ سيد بالدليل الملزم أن إعجاز القرآن الذي رافقه التحدي ، وكان معه هذا الاعجاب والسحر إنما كان بلفظه ونسقه وبيانه ونظمه - وليس بشيء خارج عن ذلك(2) .

ومن المعلوم أن العرب لم يستطيعوا أن يأتوا بشيء مما تحداهم ، مع مانعلم من حرصهم على ان يقطعوا حجته ، ومن لددهم في الخصومة ، ومع ما نعرف من فصاحتهم وقدرتهم على البيان فلمّا عجزوا عن معارضته والاتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء ، نادى عليهم باظهار العجز بالآية التي سبق أن اوردناها - وهي قوله تعالى : ((**قل لئن اجتمعت الأنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**))(3) .

بل لم ينقل أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ، لأنهم كانوا من المعرفة على جانب يصدهم عن مثل هذه المحاولة الحمقاء ، وكذلك كانوا امناء على البلاغة لا يغالطون فيها ولا يكابرون ، فعدلوا الى المعاندة والاستهزاء ، والى أن يقولوا : (**إنْ هـذا إلاّ اساطير الأولين**)(4) او ان يقولوا : (**إنْ هذا إلا سحر يؤثر**)(5) .

---

(1) « التصوير الفني في القرآن » ص ٢٣

(2) انظر مقدمة الاستاذ محمود شاكر لكتاب « الظاهرة القرآنية » لمالك بن نبي رحمه الله .

(3) سور الاسراء : ٨٨

(4) سورة الانفال : ٣١

(5) سورة المدثر : ٢٥

ثم بعد ذلك ارتضوا أن يحكموا السيف في أعناقهم ، وسبي ذراريهم وحرمهم ، واستباحة أموالهم .. فلو علموا أن الاتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه لأنه كان أهون عليهم .

القول بالصرفة :

زعم النظام(١) - وهو من أئمة المعتزلة في العصر العباسي ، أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته ، وكان مقدورا لهم .

وقد أنكر هذا القول الباطل جمهرة علماء اللغة والدين ، وتولوا الرد عليه منذ أيام الجاحظ حتى العصر الحاضر ، ونورد فيما يأتي طائفة من أقوال العلماء في استنكار هذا الرأي :

* قال الباقلاني رحمه الله :

(على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه ، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه ، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الاتيان بمثله ، ومنعوا عن معارضته ، وعدلت دواعيهم عنه ، فكان يستغني عن انزاله على النظم البديع ، واخراجه في المعرض الفصيح العجيب ؛ على أنه لو كانوا صرفوا لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف .. فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان ... ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه)(٢) .

* وقال ابن تيمية رحمه الله :

(ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف

---

(١) هو ابراهيم بن سيار ، أبو اسحاق النظام ، توفي سنة ٢٣١ هـ .

(٢) « اعجاز القرآن » تحقيق السيد صقر ص ٢٩ ـ ٣٠

الدواعي مع قيام الموجب لها ؛ أو بسلب القدرة الجازمة ، وهو ان الله صرف قلوب الامم عن معارضته مع قيام المقتضي التام ، او سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً)(١) ثم قال : (الصواب المقطوع به ان الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك ؛ ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على ان يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر)(١) .

* وقال ابن كثير رحمه الله :

(واما من زعم من المتكلمين أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع امكان(٢) ذلك . أو هو سلب قدرتهم على ذلك فقول باطل)(٣) ثم قال :

(فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله ؛ ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك ، لا تقدر الرسل الذين هم أفصح الخلق واعظم الخلق واكملهم ان يتكلموا بمثل كلا الله . وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله اسلوب كلامه لا يشبه اساليب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .)(٣) .

* وقال الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله :

(هذا هو القول بالصرفة الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة - وهو وان كان اعترافاً في الجملة بصحة الإعجاز إلا انه لا يقول به إلا اعجمي وشبهه ممن لم يذق للبلاغة طعماً ، ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ ، ولا أحد من علماء العربية ، وهو يعد خلاف ما عرف العرب من انفسهم كما سنبينه)(٤) .

* وقال الأستاذ سيد قطب رحمه الله :

(اما الراي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام)(٥) .

* وقد لخص السيوطي الافكار التي يتضمنها الرد بأربعة :

---

(١) « الجواب الصحيح » ٤/٧٦

(٢) في الاصل : (مع انكار ذلك) وهو تصحيف .

(٣) « البداية والنهاية » ٦/٦٩

(٤) « النبأ العظيم » ص ٨٩ واقرا الرد على هذا القول ص ٩٢ من المصدر نفسه .

(٥) « التصوير الفني في القرآن » ص ٥أ

هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز وإن كان دليلاً على أنه من عند الله ، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وانه بهذه المباينة كلام رب العالمين . (١)

٤ ـ العرب الذين تحداهم القرآن هم أئمة البيان والفصاحة ، ولديهم القدرة على تمييز ما كان من كلام البشر ، وما ليس من كلامهم ، وقد ادركوا أنهم بالتحدي طولبوا بأن يأتوا بمثل هذا الكلام .

٥ ـ إن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثل معاني القرآن ، بل قصد أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض مما يعتلج في نفوس البشر .

٦ ـ هذا التحدي مستمر إلى يوم القيامة وموجه الى الثقلين أيضا .

٧ ـ واخيراً فإن العرب الذين نزل عليهم هذا القرآن كانوا يحسون بجماله ويدركون إعجازه . واستمر الأمر كذلك جيلين من الناس الى ان داخلت العجمة سواد الناس فأفسدت سلائقهم ، وبدأت العلوم والمعارف الدخيلة تتسرب إلى حياتهم ، وقام دجالون مغرضون يريدون تشويه حقيقة الإسلام وكان من هؤلاء الجعد بن درهم (٢) ، ثم جاء النظام ابراهيم بن سيار فقال بالصرفة . ورد عليه الجاحظ في كتابه « نظم القرآن » .

وقد اكثر المعتزلة من إثارة قضية إعجاز القرآن ، وكذلك فإن عدداً من علماء أهل السنة المتذوقين للبيان العربي كتبوا في ذلك من أمثال الإمام عبد القاهر الجرجاني (٣) والرازي (٤) والزملكاني (٥) .



---

(١) انظر مقدمة الاستاذ محمود شاكر لكتاب « الظاهرة القرآنية » .

(٢) هو مبتدع له آراء ضالة وذكره بعضهم في الزنادقة . قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٨ هـ .

(٣) هو الامام الكبير واضع أسس البلاغة ، والدواقة عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

(٤) هو محمد بن عمر التيمي البكرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير .

(٥) هو عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الانصاري الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١هـ .

وقد بقي من الكتب المؤلفة في القرنين الرابع والخامس عن إعجاز القرآن : كتاب الرماني وهو « النكت في إعجاز القرآن » (١) ومؤلفه هو علي بن عيسى الرماني المتوفى ٣٨٤ هـ ، وكتاب الخطابي وهو « بيان إعجاز القرآن »(١) ومؤلفه هو حمد بن محمد المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتاب الباقلاني وهو « إعجاز القرآن »(٢) ومؤلفه هو ابو بكر محمد بن الطيب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ .

هذا وإن مما يتصل بموضوع إعجاز القرآن وسمو بيانه موضوع ترجمة القرآن والحق في هذه المسألة التي كثر الأخذ والرد فيها ان نقرر ان ترجمة القرآن امر مستحيل . لأن اي نص بليغ تتعذر ترجمته في اي لغة من لغات الارض فما القول بالكلام الآلهي المعجز ؟

اما تفسير معاني آياته بغير اللغة العربية فأمر لا مانع منه ، بل إنه واجب . ولكنه لا يسمى قرآنا بحال من الأحوال .



---

(١) طبع هذا الكتاب في دار المعارف بمصر تحت عنوان « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام .

(٢) طبع أكثر من مرة ، وحققه أخيرا السيد صقر .

الباب الثاني

تاريخ جمع القرآن

ستتحدث في هذا الباب عن كتابة القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . ثم عن جمعه في صحف أيام ابي بكر ، ثم عن نسخه في مصاحف أئمة أيام عثمان ، وستتحدث أيضاً عن كتابة المصحف وتطورها ، وعن جواز كتابته بالإملاء المصطلح عليه بين الناس ، وعن نشره وطباعته .

الفصل الأول

في

كتابة القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم امياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد وصفه القرآن الكريم بانه امي فقال عز وجل : **(فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي)** [1] . وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على حفظ ما ينزل عليه حرصاً جعله يسابق الملك ويعجل بتلاوة ما انزل عليه قبل ان يفرغ ويحرك به لسانه وشفتيه [2] حتى نزل عليه قوله تعالى : **(لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه)** [3] جاء في « صحيح البخاري » عن ابن عباس : (ان علينا أن نبينه بلسانك . قال : وكان إذا اتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله) [2] .

وكان صلى الله عليه وسلم يخشى أن ينسى شيئاً منه حتى تعهد الله

---

(1) سورة الاعراف : ١٥٨

(2) رواه البخاري ٦/١٦٠ والترمذي ٤/٢٠٩ من « تحفة الاحوذي » .

(3) سورة القيامة : ١٦ ـ ١٩

له بعدم نسيان شيء منه وذلك بقوله سبحانه : (**سنقرئك فلا تنسى**)[1] اي لاتتعب نفسك ولا تعجل بالقراءة انك لاتنسى[2] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا ما انتهى الوحي تلا الآيات التي انزلت وامر كتبة الوحي بكتابتها بين يديه فيكتبونها . وكانوا يكتبون على الرقاع والعسب واللخاف والعظام[3] .

وكتاب الوحي عدبدون أحصى اسماءهم عدد من العلماء وكان من اكثرهم استيعاباً الحافظ العراقي إذ ذكر اثنين واربعين كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم [4] وعدهم البرهان الحلبي في (حواشي الشفا) فاوصلهم الى ثلاثة واربعين[5] . ومن اشهرهم الخلفاء الاربعة ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب . وليس من شك في أن كتبة الوحي في مكة كانوا أقل عدداً من كتبة الوحي في المدينة . كما كانت مهمة الكتابة ذاتها لم تأخذ طابعها الرسمي الذي أخذته في المدينة . ومهما يكن من أمر فمن المقطوع به ان الكتابة بدات مع تنزل الوحي . وأن الصحابة كانوا يكتبون الآيات القرآنية في رقاع ومخطوطات شخصية لاستعمالهم ؛ وإننا لنقرأ في السيرة ان إسلام عمر كان بسبب قراءته آيات وجدها مكتوبة عند أخته[6] .

---

(1) سور الاعلى : ٦

(2) انظر « تفسير الجلالين » سورة الاعلى .

(3) الرقاع : تكون من الجلد والرق والكاغد . والعسب : الاطراف العريضة من جريد النحل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض . واللخاف : صفائح الحجارة وهي جمع لخفة . والعظام معروفة واشهرها الاكتاف كما جاء في رواية اخرى .

(4) « التراتيب الادارية » للكتاني ١١٦/١

(5) « التراتيب الادارية » للكتاني ١١٧/١ وانظر في كتاب الوحي « تاريخ دمشق » لابن عساكر و « بهجة المحافل » لابن عبد البر ، و « الاستيعاب » له عند ترجمة زيد ، و « تفسير القرطبي » ٢٥٢/١٣ و « حاشية الشبر املسي على المنهج » عند كتاب القضاء و « حواشي الشفا » للبرهان الحلبي و « المطالع النصرية » للهوريني ص ١٤ و « عنوان البيان في علوم التبيان » لمحمد حسنين مخلوف .

(6) « مدخل الى القرآن الكريم » لمحمد عبد الله دراز ص ٣٤ ـ ٣٥

إن عدد كتبة الوحي قليل بالنسبة الى جماهير المسلمين القراء الذين كانوا يحفظون القرآن بعد أن يتلقوه مشافهة من الرسول صلى الله عليه وسلم . والذين كانوا يرددون آياته آناء الليل واطراف النهار . فنحن نقرا في أخبارهم أن القرآن ملأ حياتهم كلها . فإذا أووا إلى المسجد كانت تلاوة القرآن دبدنهم . وإذا سحب الليل بشيابه السود على الأرض قاموا في هدوء الليل يتهجدون بالقرآن تسمع لهم دوياً به وحنيناً .

أن من المؤكد المقطوع به ان القرآن كتب كله في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه لم يكن مجموعا في موضع واحد . قال زيد بن ثابت عن القرآن : « وقبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن جمع في شيء »(١) وذلك لما نعلم من أن سور القرآن كان معظمها مفتوحاً ومعرضاً لأن تنزل آيات توضع في بعضها . إذ ثبت كما مر ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر الكتبة أن : « ضعوا الآية بعد آية كذا من السورة التي يذكر فيها كذا وكذا »(٢) ولما كان يتوقع من ورود ناسخ لبعض احكامه أو تلاوته . فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة(٣) .



(١) « الاتقان » ٥٧/١

(٢) انظر مقدمة تفسير سورة التوبة في « ظلال القرآن » ١١١/١٠ من المجلد الرابع .

(٣) هذا قول الخطابي . وانظره في « الاتقان » ٥٧/١

الفصل الثاني

كتابته في عهد أبي بكر

كان جمع القرآن في موضع واحد في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وذلك بعد معركة اليمامة التي كانت سنة ١٢ هـ : وقد قتل فيها كثيرون كان عدد كبير منهم من القراء جاء في « مختصر السيرة » لعبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب :

(قال زيد بن طلحة : قتل يوم اليمامة من قريش سبعون ، ومن الأنصار سبعون . ومن سائر العرب خمسمائة) (١) وفي البخاري عن قتادة قال :

(ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً وأعز يوم القيامة من الأنصار) .

قال قتادة : (حدثنا انس انه قتل منهم يوم أحد سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة سبعون)(٢) .

ويروي لنا قصة جمع القرآن زيد بن ثابت فيقول :

(أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل استحرّ(٣) يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن) .

فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.

قال عمر : هو والله خير .

---

(١) « مختصر السيرة » ص ٤٧٥

(٢) وانظر « البداية والنهاية » ٦/٢٢٣ وما بعدها .

(٣) أي اشتد

فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك . قال أبو بكر يخاطب زيداً :

إنك شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.

قال : هو والله خير .

. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر . قال زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ... وكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر)[1] .

وفي كلام أبي بكر رضي الله عنه ذكرٌ للدوافع التي حملته على ترشيح زيد لهذا العمل . وقد ذكرها ابن حجر في « الفتح » فقال :

(ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك :

١ ـ كونه شاباً ، فيكون أنشط لما يطلب منه .

٢ ـ وكونه عاقلا ، فيكون أوعى له .

٣ ـ وكونه لايتهم ، فتركن النفس إليه .

٤ ـ وكونه كان يكتب الوحي ، فيكون أكثر ممارسة له .

وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة)[2]

وتدل الروايات العديدة أن عمر بن الخطاب ساعد زيداً مساعدة تامة في هذا الموضوع ، ولا عجب في ذلك ، فانه صاحب الفكرة وهو الذي

---

(١) الحديث رواه البخاري في « صحيحه » ١٥٠/٦ وقد نقله السيوطي في «الاتقان» عنه ٥٧/١ وانظر أيضا في « جامع الاصول » ٥٣/٣ . وذكر الاستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله في كتابه « مدخل الى القرآن الكريم » ص ٣٦ هذه الرواية وعلق عليها قائلا : (بعد ان اورد لوبلوا LEBLOIS هذه الرواية اردف قائلا : من ذا الذي لم يتمن لو أن أحدا من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة) قال ذلك في كتابه « القرآن والتوراة العبرية » ص ٤٧ مذكرة ٥ .

(٢) « فتح الباري » ١٣/٩

اقترحها على ابي بكر رضي الله عنهما . جاء في « كتاب المصاحف »[1] لابن أبي داود أنّ ابا بكر قال لعمر وزيد : اقعدا على باب المسجد . فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه[2] .

وقد فسره الشيخ علم الدين أبو الحسن علي بن محمدبن عبدالصمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ في كتابه « جمال القراء وكمال الاقراء » بأن المراد انهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان غرضهم — على مايقول ابو شامة — أن لايكتب إلا من عين ماكتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لامن مجرد الحفظ[3] .

ويدل هذا على زيادة في التحري . ومبالغة في الاحتياط . فزيد حافظ للقرآن وقد اوتي حظاً كبيراً من المعرفة بكتاب الله ، ومع ذلك فلم يكن يكتفي بأن يوافق حفظ غيره حفظه . بل كان يطلب مع ذلك شيئاً مكتوباً ، ويطلب من يشهد له على أن هذه الكتابة كانت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أي لم يكن يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً[4] .

قال الليث بن سعد : « أول من جمع القرآن أبو بكر ، وكتبه زيد . وكان الناس يأتون زيد بن ثابت . فكان لايكتب آية إلا بشاهدي عدل »[5] ونقل السيوطي عن كتاب « المصاحف » أن عمر قال : من كان تلقى من رسول الله- صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب . وكان لايقبل من احد شيئاً حتى يشهد شهيدان وهذا يدل على أنّ زيداً كان لايكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى

---

(1) كتاب « المصاحف » ص ٦

(2) قال ابن حجر في « فتح البارى » ١٥/٩ : ورجاله ثقات مع انقطاعه .

(3) « الاتقان » ٥٨/١

(4) انظر « المصاحف » لابن ابي داود ص ٥ وقد نقل ذلك عنه السيوطي في « الاتقان » ٥٧/١

(5) « الاتقان » ٥٨/١

يشهد به من تلقاه سماعا مع كون زيد كان يحفظ القرآن . فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط[1] .

ونقل ابن حجر في « فتح الباري »[2] عن كتاب « المصاحف »[3] ثناء علي بن أبي طالب على صنيع أبي بكر رضي الله عنهما فقال : (ويؤيده ما اخرجه ابن أبي داود في « المصاحف » باسناد حسن عن عبدخير قال : سمعت علياً يقول : اعظم الناس اجرا ابو بكر . رحمة الله على أبي بكر . هو اول من جمع كتاب الله) .

إذن فقد تولى أمر الجمع أحد كتاب الوحي الثقات العارفين . وهو زيد بن ثابت الأنصاري . الذي كان من أكثر الناس حفظا للقرآن . وكان يساعده في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وكانت خطتهما التوثق من نقل ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم مما يحفظانه . وان يشهد الثقات العدول بأن الكتابة كانت على مرأى من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكانت الكتابة على قراطيس وصحف كما جاء في « الاتقان »[4] عن ابن عمر قال : جمع أبو بكر القرآن في قراطيس) . وجمعت هذه الصحف في مكان واحد بعد أن كانت على عسب ولخاف ورقاع واكتاف في أمكنة متعددة . وقد بذل زيد جهوداً ضخمة إذ انه استطاع انجاز ذلك في سنة وفي خلافة ابي بكر رضي الله عنه .

ويظهر انه كان الى جانب هذا العمل الرسمي الذي تولته الدولة محاولات فردية من قبل بعض الصحابة . فقد جمع القرآن في صحف الصحابي الجليل ابي بن كعب . وكذلك فعل المقداد بن عمرو ، وعبد الله بن مسعود . وابو موسى الاشعري .

---

(1) « الاتقان » ٥٨/١

(2) « فتح الباري » ١٢/٩

(3) انظر « كتاب المصاحف » ص ٥

(4) « الاتقان » ٥٩/١ واورد أبو شامة الخبر في « المرشد الوجيز » ١٩/أ المخطوط في لاله لي في استامبول .

فقرأ اهل دمشق على نسخة أبي . وأهل حمص على نسخة المقداد وأهل الكوفة والبصرةعلى نسختي عبدالله بن مسعودوابي موسىالأشعري.

وبعد أن انتهى زيد من عملية الجمع سلم ماجمعه الى الخليفة أبي بكر الذي احتفظ به الى أن توفي فآلت هذه الصحف الى الخليفةعمرلأن أبا بكر عهد بها إليه لأنه المرشح للخلافة . ثم قام عمر بتسليمها الى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت(١) .



---

(١) « المدخل الى القرآن الكريم » ص ٣٧

الفصل الثالث

نسخ المصاحف ايام عثمان رضي الله عنه

كلمة المصحف :

المصحف مثلثة الميم . وقيل : ان الفتح لايعرف إلا من قبل الكسائي.

والمصحف : مأخوذ من أصحف . اي جعلت فيه الصحف المكتوبة بين دفتين جمعت فيه[1] .

وهناك خبر « في كتاب المصاحف » لابن اشته . ذكره السيوطي في « الاتقان »[2] يدل على أن هذه الكلمة كانت قبل زمن عثمان . وهو :

عن ابي بريدة قال : أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى حذيفة . أقسم لايرتدي برداء حتى يجمعه . فجمعه . ثم ائتمروا مايسمونه فقال بعضهم : سموه السفر قال : ذلك تسمية اليهود ، فكرهوه . فقال : رايت مثله بالحبشة يسمى : المصحف . فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف . وقال السيوطي تعليقاً على هذا الخبر : اسناده منقطع ..

سبب نسخ المصاحف وطريقة النسخ :

يبدو أن خلافاً وقع بين المسلمين في قراءتهم للقرآن ومرده الى أمرين:

١ ـ اختلاف الحروف واللهجات والروايات .

٢ ـ اختلاف ما بين أيديهم من الصحف التي جمعها ناس من الصحابة أشرنا الى بعضهم في الفصل السابق .

يدل على ذلك ما رواه البخاري عن أنس قال :

---

(١) انظر « مختار الصحاح » « والقاموس » و « تاج العروس » و « لسان العرب » ..

(٢) انظر « الاتقان » ٥٨/١

« قدم حذيفة بن اليمان على عثمان ـ وكان يغازي اهل الشام في فتح ارمينية وأذربيجان مع اهل العراق فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة ـ فقال لعثمان : ادرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل الى حفصة ان ارسلي الينا الصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فامر زيد بن ثابت[1] وعبدالله ابن الزبير[2] وسعيد بن العاص[3] وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام[4] فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم . ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّها عثمان الى حفصة . وارسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وامر بما سواه من القرآن المكتوب في كل صحيفة او مصحف ان يحرق[5] .

وجاء في « الاتقان » نقلا عن ابن اشته ان أنس بن مالك قال :

اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون[6] اي لم يقتصر الأمر على الجند كما في حديث البخاري السابق بل جاوز ذلك الى المعلمين والغلمان وذكر ابن كثير انه (اجتمع خلق من اهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الاسود وأبي الدرداء . وجماعة من أهل العراق ممن يقرأ على قراءة عبد الله ابن مسعود وأبي موسى وجعل من لايعلم بسوّغان القراءة على سبعة احرف يفضل قراءته على قراءة غيره ،

---

(1) هو زيد بن ثابت الانصاري ولد سنة ١١ ق هـ وتوفي سنة ٤٥ هـ .

(2) هو عبد الله بن الزبير الاسدي القرشي ولد سنة ١ هـ وقتل سنة ٧٣ هـ .

(3) هو سعيد بن العاص الاموي القرشي ولد سنة ٣ هـ وتوفي سنة ٥٩ هـ . وانظر الرسالة التي كتبناها في دراسة حياته .

(4) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي ولد سنة ١ هـ وتوفي سنة ٤٣ هـ .

(5) « صحيح البخاري » ١٥١/٦

(6) « الاتقان » ٦١/١

وربما خطئا الآخر او كفره . فأدى ذلك الى اختلاف شديد ، وانتشار الكلام السيء بين الناس(١) ، .

فكان عمل عثمان رضي الله عنه جمعاً للناس على مصحف واحد ، ودرءاً لفتنة ومفسدة . اما الصحف التي اعتمدتها اللجنة الرباعية فقد اعادها عثمان الى حفصة بعد الانتهاء من النسخ ، وبقيت عندها حتى وفاتها . جاء في « المصاحف » لابن ابي داوود ما يأتي : (حاول مروان ابن الحكم ان يأخذها منها ليحرقها ، فأبت ، حتى إذا توفيت اخذ مروان الصحف واحرقها ، وقال : انما فعلت هذا لأن مافيها قد كتب وحفظ بالمصحف الامام ، فخشيت إن طال بالناس زمان ان يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب(٢)) .

ذكر السيوطي نقلا عن كتاب ابن اشته انهم عندما اجتمعوا للكتابة كان عملهم انهم إذا اختلفوا وتدارؤوا في اي آية قالوا : هذه اقراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلانا ، فيرسل اليه وهو على رأس ثلاث من المدينة . فيقال له : كيف اقراك رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كذا وكذا ؟ فيقول : كذا وكذا . فيكتبونها(٣) . ويبدو انه قد اتبع في هذا الجمع ما اتبع في الجمع الأول ايام ابي بكر من البحث عن الآيات مكتوبة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأن يشهد اثنان بكتابتها في عصره(٤)

ولقد بذلت هذه اللجنة الرباعية قصارى جهودها في سبيل اتقان العمل وتحري الصواب فيه حتى كان عملها كاملا تاماً .

قال ابن حجر : وكان ذلك في حدود سنة ٢٥هـ وغفل بعض من ادركناه فزعم انه كان في حدود سنة ٣٠ ولم يذكر له مستند(٣) .
ونستطيع أن نقرر الأمور التالية عن عمل عثمان رضي الله عنه :

---

(١) « البداية والنهاية » ٢١٧/٧

(٢) « المصاحف » ص ٢٤

(٣) « الاتقان » ٥٩/١

(٤) « المعجزة الكبرى القرآن » لمحمد أبو زهرة ص ٣٢ وانظر « تفسير القرطبي »١/٥١

١ ـ اختيرت اللجنة اختياراً موفقاً من الانصار والمهاجرين ، وكان نصيب قريش فيها كبيراً لأن القرآن بلغة قريش كما قال عثمان. وأفرادها من الصلاح والحفظ والمعرفة بمكان كبير ؛ ومع ذلك فقد كانت لاتدخر وسعاً في السؤال والبحث والتثبت مااستطاعت الى ذلك سبيلا ؛ وكان أفرادها يحفظون القرآن في صدورهم .

ولا بد من التنبه الى احد اعضائها وهو زيد بن ثابت الذي قام بالجمع في المرة الأولى أيام أبي بكر الصديق .

٢ ـ جردت المصاحف مما ليس قرآناً كالشروح والتفاسير التي كان شبتها بعض الصحابة على مصاحفهم .

٣ ـ اعتمدت اللجنة على صحف أبي بكر رضي الله عنه اعتماداً رئيسيا . حيث جعلتها الأصل . ثم استعملت كل ما امكنها من وسائل التثبت والاستيثاق .

٤ ـ كتب القرآن بشكل يجمع القراءات التي نزل بها القرآن . وقد ساعد على ذلك عدم التشكيل وعدم التنقيط .

٥ ـ استطاعت هذه اللجنة أن تنجح في عملها خير نجاح ؛ فلقد حسمت هذه المصاحف الخلاف ؛ وحالت دون فرقة المسلمين حول كتاب الله الخالد الكريم .

قال ابن تيمية يلخص عملية جمع القرآن :

(... فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه جبريل به (أي بالقرآن) مرتين ، والعرضة الاخيرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره ، وهي التي امر الخلفاء الراشدون ابو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف ، وكتبها ابو بكر ... ثم امر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف ، وارسالها الى الأمصار باتفاق من الصحابة(١) .

***

عدد المصاحف العثمانية :

* المشهور انها خمسة مصاحف ؛ ارسل بها عثمان رضي الله عنه

---

(١) « فتاوى ابن تيمية » ١٣/٣٩٥

الى الآفاق الخمسة وهي : مكة . والشام . والبصرة . والكوفة . واحتفظ بواحد منها لأهل المدينة .

* وهناك قول آخر انها سبعة . ولكن هناك خبران في اسماء البلاد التي ارسلت اليها فالأول أورده ابن كثير في « البداية والنهاية »(١) فحواه أن عثمان رضي الله عنه كتب سبعة مصاحف : ارسل الى مكة مصحفا . والى أهل مصر آخر . وبعث الى البصرة مصحفاً والى الكوفة بآخر . وارسل الى الشام مصحفاً . والى اليمن مثله . واقر بالمدينة مصحفاً .

والثاني أورده ابن أبي داوود في « المصاحف »(٢) وذكره السيوطي في « الاتقان »(٣) فحواه أن عثمان رضي الله عنه وجه بسبعة مصاحف . هذه الخمسة المشهورة ، أي لمكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة ، وارسل مصحفاً الى اليمن ومصحفاً الى البحرين . قال السيوطي : ولكن لم يسمع لهذين المصحفين خبر .

والفرق بين الخبرين هو المصحف السابع : أرسل الى مصر أم إلى البحرين .

* ولم يكتف عثمان رضي الله عنه بتوجيه هذه المصاحف الى هذه البلاد وانما اختار حفاظاً يثق بهم وانفذهم الى الأقطار الاسلامية التي ارسل اليها المصاحف ليقرئوا أهل البلد المرسل اليهم . فارسل مع كل مصحف قارئاً متقنا يقوم بمهمة التعليم والاقراء(٤) .

* ويقال لهذه المصاحف الأئمة . وليست مكتوبة بخط عثمان ، وانما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة الى امره وزمانه وامارته(٥) .

---

(١) « البداية والنهاية » ٢١٧/٧

(٢) « المصاحف » ص٢٤

(٣) « الاتقان » ٨١/١

(٤) « مناهل العرفان » ٣٩٦/١

(٥) « البداية والنهاية » ٢١٧/٧ وانظر « فضائل القرآن » لابن كثير ص٥١ طبعة عيسى البابي الحلبي الملحقة بالتفسير .

راي الصحابة في صنيع عثمان :

كان جمع الناس على مصحف واحد من مناقب عثمان الجليلة ، وحسناته العظيمة ، وقد ذكر ابن كثير أن حذيفة بن اليمان عندما جاء عثمان واخبره بما اخبره مما أشرنا اليه آنفاً قال : « فعند ذلك جمع عثمان الصحابة ، وشاورهم في ذلك ، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد ، وأن يجمع الناس في سائر الاقاليم على القراءة به دون سواه[1] .

وذكر ابن ابي داوود عن علي رضي الله عنه انه قال :

(لاتقولوا في عثمان إلا خيراً . فوالله مافعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا . قال عثمان : ماتقولون في هذه القراءة ، فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً ؟ قلنا : فما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف . قلنا : فنعم ما رأيت[2]) .

إذن فما كان صنيع عثمان إلا عن موافقة من الصحابة وبعد استشارتهم .

ونقل ابن كثير عن البيهقي وغيره انهم رووا عن علي رضي الله عنه أنه قال :

(أيها الناس اياكم والغلو في عثمان تقولون : حرق المصاحف . والله ماحرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولو وليت مثلما ولي لفعلت مثل الذي فعل[3]) وروى الطبري عن علي قوله :

(لاتسموا عثمان شقاق المصاحف ، فوالله ما شقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ولو وليتها لعملت مثل الذي عمل[4]) .

---

(1) « البداية والنهاية » ٢١٧/٧ وانظر « فضائل القرآن » ص ١٥

(2) « المصاحف » ص٢٢ ونقله عنه السيوطي في « الاتقان » ٥٩/١

(3) « البداية والنهاية » ٢١٨/٧

(4) « تاريخ الطبري » ١١٤/٦

الفرق بين جمع ابي بكر وعثمان :

* كان جمع أبي بكر الصديق للقرآن خشية ان يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لانه لم يكن مجموعاً فيموضعواحد ، فجمعه ــ جزاه الله عن الاسلام خيراً ــ في صحف مرتباً لآيات سورة على ماوقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

* وكان جمع عثمان حسماً لخلاف ذر قرنه في صفوف المسلمين ؛ وجمعاً للمسلمين على نسخة موحدة من المصحف . ذلك انه كثر اختلافهم في وجوه القراءة ؛ فأدى ذلك بهم الى ان يخطئء بعضهم بعضاً ؛ فخشي من تفاقم الامر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد . مرتباً لسوره الترتيب النهائي(١) واقتصر من سائر اللغات على لغة قريشمحتجاً بأنه نزل بلغتهم وانه ان كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم في باديء الامر دفعاً للحرج والمشقة ؛ فإنّ الحاجة الى ذلك قد انتهت ؛ فاقتصر على لغة قريش(٢) وكذلك فقد حذف عثمان من المصاحف كل الشروح والتاويلات وما نسخت تلاوته (٣) .



اين المصاحف العثمانية الآن ؟ :

لايعرف لهذه المصاحف الآن مكان توجد فيه .

---

(١) « الاتقان » ٥٩/١ .

(٢) « عنوان البيان في علوم التبيان » لمحمد حسنين مخلوف ص٩٧ .

(٣) « الاتقان » ٦٠/١

على أن هذه المصاحف العثمانية كانت موجودة طوال العصور السابقة ، فقد ذكر ابن جبير المتوفى ٥٥٩هـ في «رحلته» عند حديثه عن جامع دمشق ان [في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه ، وهو المصحف الذي وجه به الى الشام ، وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله](١) كما ذكر ابن بطوطة في وصفه قريباً من ذلك(٢) وذكر ابن بطوطة انه رأى بنفسه بعض تلك المصاحف العثمانية او بعض صحائف منها خلال رحلته المعروفة في البصرة(٣) ومراكش وغرناطة وبعض المدن الأخرى(٤) .

وذكر ابن كثير في كتابه « فضائل القرآن » أن في دمشق مصحفاً من هذه المصاحف فقال :

[اما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها الى دمشق في حدود(٥) سنة ٥١٨ هـ وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي ، بحبر محكم ، في رق اظنه من جلود الابل](٦) .

ويبدو ان ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ قد رأيا هذا المصحف الشامي(٧) . واستمر هذا

---

(١) « رحلة ابن جبير » ص ٢٥٧ تحقيق الدكتور حسين نصار

(٢) انظر « رحلة ابن بطوطة » ٥٤/١ .

(٣) « رحلة ابن بطوطة » ١١٦/١ .

(٤) نقل ذلك الدكتور الصالح عن المستشرق كازانوفا وانظر « مباحث في علوم القرآن » ص ٨٧ .

(٥) قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » ص ٤٢٨ : (وفيها — أي في سنة ٤٩٢ هـ نقل المصحف العثماني من طبرية الى دمشق خوفا عليه ، وخرج الناس لتلقيه فآووه في خزانة بمقصورة الجامع) .

(٦) « فضائل القرآن » لابن كثير ص ١٥ طبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م الملحقة بالجزء الرابع من « تفسير ابن كثير » .

(٧) « مباحث في علوم القرآن » لصبحي الصالح ص ٨٨ — ٨٩ .

المصحف محفوظاً في الجامع الأموي الى مطلع هذا القرن الرابع عشر ، ثم فقد هذا المصحف ، فبعضهم يرى انه احترق وبعضهم يرى انه نقل الى استامبول ثم لم يعرف مكان وجوده .

قال الاستاذ كرد علي خلال حديثه عن الجامع الأموي : (حتى إذا كانت سنة ١٣١٠ سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات . . وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى ، وكان الناس يقولون : إنه المصحف العثماني[١] .

ونقل الدكتور صبحي الصالح عن الدكتور يوسف العش عن الشيخ عبد المحسن الاسطواني أنه قد راى هذا المصحف قبل احتراقه وكان محفوظاً بالمقصورة وله بيت خشب)[٢] .

وذكر الكوثري أن الشيخ عبد الحكيم الافغاني المتوفى سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م نسخ مصحفاً مطابقاً لرسم هذا المصحف العثماني قبل وفاته بسنوات ؛ وزعم الكوثري ان هذا المصحف نقل أثناء الحرب العامة الى استامبول[٣] .

وزعم ايضاً أن مصحف الكوفة كان في حمص ، وان مصحف المدينة كان في المدينة ، وانهما نقلا الى العاصمة استامبول[٣] أثناء الحرب العامة والله أعلم .

وهناك الآن مصاحف أثرية في دار الكتب المصرية يقال عنها : إنها مصاحف عثمانية ؛ ولكنا نستبعد أن تكون كذلك لوجود الزركشة والزينة والنقوش الفاصلة بين السور ولوجود علامات لبيان اعشار القرآن . قال الزرقاني : (ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقط والشكل أيضاً)[٤] .

وانظر ما ذكره المقرى في « نفح الطيب » ٨٦/٢ و ٩٩ و ١٣٥

---

(١) « خطط الشام » لمحمد كرد علي ٢٧٩/٥

(٢) « مباحث في علوم القرآن » ص ٨٨ ــ ٨٩

(٣) « مقالات الكوثري » ص ١٢

(٤) « مناهل العرفان » ٣٩٧/١

وبذلك فاننا نستطيع الجزم بأن النقل للقرآن كان متواتراً ويقول هذا بعض اعداء الاسلام او بعض الناس الذي ليسوا مسلمين ، فقد نقل الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ما يلي :

(قال لو بلوا : إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه اي تغيير يذكر) (وقال موير : إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون اي تحريف ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه اي تغيير يذكر . بل نستطيع ان نقول إنه لم يطرأ عليه اي تغيير على الاطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الاسلامية الواسعة فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الاسلامية المتنازعة . وهذا الاستعمال الاجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم بعد اكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا)(١) .



---

(١) « مدخل الى القرآن » ص ٤٠

الفصل الرابع

كتابة المصاحف وتطورها

الاملاء العثماني :

الاملاء الذي كتبت به اللجنة امـلاء خاص بعصر الصحابة ، وهـو مختلف جداً عن املائنا ، فهو خال من النقط والشكل والزخرفة ، وهـو مخالف في عديد من كلماته لقواعد الاملاء المعروفة ، وذكر السيوطي القواعد الستة التي ينحصر امر الرسم فيها فقال :

(وينحصر امر الرسم في ست قواعد : الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والبدل ، والوصل ، والفصل ، وما فيه قراءتان فكتب على إحداهما)(١).

ثم فصل القوى في كل قاعدة ، وذكر ما لم يدخل تحت هذه القواعد منهـا .

وقد اكتسب هذا الرسم الذي سمي بالرسـم العثماني كثيرا من القدسية ، بسبب إجمـاع المسلمين على استحسان عمـل عثمان رضي الله عنه .

ان هذه المبالغة في احترام هذا الرسم لتمثل لنا الامعان في المحافظة على هذا الكتاب الكريم من كل زيادة او نقصان من قبل المسلمين ، حتى اننا ما زلنا الى الآن نرى المصاحف مكتوبة بالرسم العثماني الذي كتبت به المصاحف أيام عثمان رضي الله عنه ، وهذا ما لم يحظ به أي كتاب فـي تاريخ الفكر الانساني على الاطلاق(٢) .

---

(١) « الاتقان » ١٦٧/٢

(٢) انظر رأينا في وجوب التزام كتابته تحت عنوان « كتابة المصحف والرسم العثماني » من هذا الفصل .

تطور هذه الكتابة :

ان موضوع رسم المصحف علم قائم بذاته ، وقد الفت فيه المؤلفات قديماً وحديثاً .

فمن المؤلفين القدامى ابو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ هـ الذي الف كتاب « رسم القرآن » وابو عمرو الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ الذي الف في هـذا الفن كتاب « المقنع »(١) وابو العباس احمد بن محمد الازدي المراكشي المعروف بابن البنا المتوفى سنة ٧٢١ هـ الذي الف كتاب « عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل » .

ومن المؤلفين المحدثين الشيخ علي محمد الضباع الذي الف « سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين » . والشيخ محمد خلف الحسيني الذي شرح ارجوزة المتولي ، وذيل الشرح بكتاب سماه : « مرشدالحيران الى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن »(٢) .

هذا وقد تعرضت كتابة المصحف الى تطـور تناول منها الاعجـام والشكل وما الى ذلك ، اما هيكل حروف الكلمة فقد بقي على حالتهالاولى .

والذي يذكره العلماء أن شخصيات ثلاثة قامت بدور طيب فيادخال بعض التحسينات الاضافية على كتابة القرآن ، وهذه الشخصيات هي :

أبو الاسود الدؤلي(٣) ونصربنعاصم(٤) أو يحيى بنيعمر(٥)،والخليل ابن احمد(٦) وهناك اختلاف في نسبة الأولوية لبعض هؤلاء دون بعض . ويبدو ان اقرب الاقوال للصواب في تحديد دور كل منهم كالآتي :

---

(١) « كشف الظنون » ١٨٠٩/٢ و « مناهل العرفان » ٣٦٢/١

(٢) « مناهل العرفان » ٣٦٢/١

(٣) هو ظالم بن عمر الدؤلي البصري اول من اسس النحو كان شاعرا من سادات التابعين توفي سنة ٦٧ او سنة ٦٩ هـ .

(٤) هو نصر بن عاصم الليثي النحوي، كان فقيها من كبار التابعين توفي سنة ٨٩ هـ .

(٥) هو يحيى بن يعمر العدواني من علماء التابعين ، كـان فصيحـا كاتبا ولي قضاء مرو ، وتوفي سنة ١٢٩ هـ .

(٦) هو الخليل بن احمد الفراهيدي الازدي واضع علم العروض ولد في البصرة سنة ١٠٠ هـ وتوفي فيها سنة ١٧٠ هـ .

١ ــ ذهب بعضهم الى ان ابا الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ اراد ان يعمل كتابا في العربية يقوّمُ الناس به ما فسد من كلامهم ، اذ كان ذلك قد فشا في الناس . فقال :

أرى ان ابتدىء بإعراب القرآن أولا . فاحضر من يمسك المصحف ؛ واحضر صبغا يخالف لون المداد وقال للذي يمسك المصحف عليه :

اذا فتحت فاي فاجعل نقطة فوق الحرف .

واذا كسرت فاي فاجعل نقطة تحت الحرف .

واذا ضممت فاي فاجعل نقطة إمام الحرف .

فان اتبعت شيئاً من هذه الحركة غنة (يعني تنويناً) فاجعل نقطتين .

ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف(١) .

اذن فعمل ابي الاسود هو وضع علامات تشير الى الفتحة والكسرة والضمة والتنوين . وكانت هذه الاشارات تكتب بمداد يخالف المداد الذي كتب به الاصل .

٢ ــ واستمر الناس يقرؤون في مصحف عثمان وفي بعض المصاحف اشارات ابي الاسود ، فلما كثر التصحيف واللحن وانتشر بالعراق فزع الحجاج بن يوسف الى كتابه ، وسألهم ان يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات ، فيقال : ان نصر بن عاصم الليثي أو يحيى بن يعمر قام بإعجام الحروف المتشابهة ووضع النقط افراداً وازواجاً وخالف بين اماكنها(٢) . وذكر ابن حجر عن هارون بن موسى أن اول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر(٣) . اذن فالعمل الثاني الذي تمّ زمن الحجاج هو تنقيط الحروف المتشابهة ازواجاً وفرادا من فوق ومن تحت .

---

(١) « صبح الاعشى » ١٥٦/٣ و « الفهرست » لابن النديم ص ٦٦ « والمطالع النصرية » ص ٢٠٥ « والمحكم في نقط المصاحف » للداني ص ٦ .

(٢) « وفيات الاعيان » لابن خلكان ٢٤٤/١ « وضحى الاسلام » ٢٨٦/٢ وانظر كتاب « التصحيف » لابي احمد العسكري .

(٣) « تهذيب التهذيب » ٢٠٥/١١

٣ ـ وجاء الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ فكان اول من وضع الهمزة والتشديد والروم والاشمام(١) .

ويقال : ان الخليل اخترع ايضاً ضبط الحروف بالحركات فاستغنى الناس عن ضبط ابي الاسود(٢) ، وكان العلماء يسمون ضبط الخليل شكل الشعر ، وكان كثير منهم يكرهون استعماله(٣) .

* * *

وما زال كل ذي موهبة فنية في الخط يبذل قصارى جهده ليبدع في كتابة المصاحف . وقد قامت مهنة خاصة عرفت بكتابة المصاحف ، يقوم رجالها بنسخ المصاحف لقاء اجر ، وكان بعض اهل العلم يتخذها مورد عيش له .

واختلف العلماء في الحكم على هذه الزيادات والتطورات .

* فمنهم من تشدد فحظرها ، فقد ذكروا عن النخعي وابن سيرين انهما كرها نقط المصاحف(٣) وروي عن الشعبي وابراهيم كراهية النقط حتى بالحمرة(٤) .

وكانوا يقولون : جرّدوا القرآن(٥) .

قال الغزالي : والظن بهؤلاء انهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من ان

---

(١) « الاتقان » ١٧١/٢ والروم : حركة مختلسة مختفية وهي اكثر من الاشمام لانها تسمع ، والاشمام : ضم الشفتين كمن يريد النطق بضمة اشارة الى ان الحركة المحذوفة ضمة من غير ان يظهر لذلك اثر في النطق . (انظر في ذلك كتب التجويد ومباحث بناء الفعل للمجهول والوقف في كتب قواعد العربية وكتب المعاجم) .

(٢) «المحكم» للداني ص ٧ و «الاتقان» ١٧١/٢ وانظر ص٢٦ من كتاب « سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين » للشيخ علي محمد الضباع .

(٣) « المحكم » للداني .

(٤) « احياء علوم الدين » ٢٨٤/١ وانظر « المدخل » لابن الحاج ٧٤/١ .

(٥) « احياء علوم الدين » ٢٨٤/١

يؤدي الى احداث زيادات وحسما للباب ، وتشوقاً الى حراسة القرآن عما يطرق اليه تغييراً[1] .

* ومنهم من منع شكل المصحف إلا إذا احتاجت الكلمة الى شكل ، فقد نقل عن ابن مجاهد انه قال : ينبغي الا يشكل الا ما يشكل[2] .

* ومنهم من اجازها بشرط ان تكتب بلون مخالف . قال الداني : لااستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم ، وارى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة ، والهمزات بالصفرة[2] .

* ومنهم من استحبها . وهو الصواب . قال النووي :

نقط المصحف وشكله مستحب لانه صيانة له من اللحن والتحريف[2] .

وقال الغزالي :

يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها ، فانها تزيين وتبيين ، وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه .

ثم قال : واذا لم يؤد الى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به[1] .

* ومما يندرج تحت عنوان تطور كتابة المصحف تلك الاشارات التي وضعوها عند انتهاء كل آية . وقد أخرج ابن ابي داود عن يحيى بن ابي كثير انه قال : كانوا لا يقرون شيئاً مما في هذه المصاحف الا هذه النقط الثلاث التي عند رؤوس الآي[3] .

وكذلك فان مما استحدث في المصاحف الفواتح والخواتم والتعشير والتحزيب والتجزئة وكتابة اسماء السور وعدد الآيات والسجدات واشارات الوقوف وارقام الآيات .

---

(1) « احياء علوم الدين » ٢٨٤/١

(2) « الاتقان » ١٧١/٢

(3) « المصاحف » ١٤٣

وقال الاستاذ علي محمد الضباع : (واما النقط والشكل وما في حكمه من علامات الفواصل والسجدات والاجزاء والاحزاب واقسامها والخموس والعشور والمواقف والفواتح والخواتم فقد اختلف العلماء فيها على ثلاثة اقـوال :

١) الجواز مطلقا .

٢) الكراهة مطلقا .

٣) الجواز في المصاحف التي يتعلم فيها الغلمان ومن في حكمهم دون المصاحف الامهات وقد نسب الامام الداني في « المحكم » هذه الأقوال الى اربابها . والعمل في وقتنا هذا على الترخص في ذلك دفعا للالتباس ومنعا للتحريف والخطأ في كلام رب العالمين)(١) .



كتابة المصحف والرسم العثماني :

هناك آراء ثلاثة في كتابة المصاحف :

١ ــ تحريم مخالفة مصحف عثمان في حرف ، ووجوب كتابته على الكتبة الأولى .

٢ ــ جواز مخالفته .

٣ ــ وجوب كتابته بالاملاء الشائع عند الناس ولا سيما للعامة والطلبة الصغار .

* أما الراي الأول فهو الراي الذي مال اليه الكثرة من العلماء ، وليس الحق دائما مع الكثرة ، ولا شك في ان الدافع اليه الحرص على توفير السلامة لنص القرآن والمحافظة عليه من كل عوادي الزمان .

ومن القائلين بهذا الراي الامام مالك الذي حكي عنه وجوب الكتابة على الكتبة الأولى(٢) .

---

(١) « سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين » ص ٢٦

(٢) « الاتقان » ١٦٧/٢

ومنهم الاما م احمد الذي كان يقول : تحرم مخالفة خط عثمان في واو او الف او ياء او غير ذلك(١) . وقد كتب الأستاذ علي محمدالضباع فصلا ضافياً في كتابه « سمير الطالبين »(٢) ولم يأت بحجة شافية ولا دليل مقنع ؛ وقد ذكر شيئاً لا دليل عليه وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم املاه على الكتبة من تلقين جبريل ثم قال : « ويشهد لكونه من املائه صلى الله عليه وسلم ما ذكره صاحب « الابريز » عن شيخه العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ انه قال : رسم القرآن سر من اسرار المشاهدة وكمال الرفعة وهو صادر من النبي صلى الله عليه وسلم وليس للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وانما هو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي امرهم ان يكتبوا على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ونحو ذلك ، لأسرار لا تهتدي اليها العقول إلا بفتح رباني ، وهو سر من الاسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية فكما ان نظم القرآن معجز فرسمه معجز ايضاً ؛ وهذا الكلام ليس عليه أي دليل وهو غاية في مباعدة الحق .

* اما الراي الثاني فقد قال به جماعة من اهل العلم وحجتهم في ذلك ان رسم المصحف اصطلاحي لا توقيفي .

ومن القائلين بهذا الراي القاضي ابو بكر الباقلاني وابن خلدون وسنورد قول كل منهما فيما يأتي :

قال ابن خلدون : (كان الخط العربي لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ، ولا الى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع ، وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الاجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من

---

(١) « الاتقان » ٢/١٦٧

(٢) انظر « سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين » ص ٢٣ ـ ٢٤ ويعتمد مؤلفه على ان الرسم كان بإجماع الصحابة . وهذه دعوى يصعب على مدعيها ان يأتي عليها بدليل .

كتاب الله وكلامه . . . ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وان ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيل ، بل لكلها وجه . ويقولون في مثل زيادة الالف في (**لاأذبحنه**)(١) انه تنبيه على ان الذبح لم يقع . وفي زيادة الياء في (**بأييد**)(٢) انه تنبيه على كمال القدرة الربانية . . وامثال ذلك مما لا اصل له الا التحكم المحض .

وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم ان في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط ، وحسبوا ان الخط كمال ؛ فنزهوهم عن نقصه . ونسبوا اليهم الكمال باجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه . وليس ذلك بصحيح)(٣) .

وقال القاضي الباقلاني : واما الكتابة فلم يفرض الله على الامة فيها شيئاً اذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاطي المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ماعداه . اذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف ، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه ان رسم القرآن وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص ، وحد محدود ، لا يجوز تجاوزه ، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا في اجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية .

بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ، ولم يبين لهم وجها معيناً ، ولا نهى عن كتابته بغيره ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف(٤) ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد أو ينقص لعلمه ان ذلك اصطلاح . وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز ان

---

(١) سورة النمل : ٢١

(٢) سورة الذاريات : ٤٧

(٣) « مقدمة ابن خلدون »

(٤) قال ابن تيمية في « الفتاوى » ٤٢٠/١٣ : (فإن مالكا كان يقول عن أهل الشوري ان لكل منهم مصحفا يخالف رسم مصحف عثمان) .

يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وان تجعل اللام على صورة الكاف، وان تعوج الألفات ، وان يكتب على غير هــذه الوجوه ، وجاز ان يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز ان يكتب بالخطوط والهجــاء المحدثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك .

واذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفهــا مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد اجازوا ذلك ، واجازوا ان يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو اسهل واشهرواولى منغير تاثيم ولا تناكر ، علمانه لم يؤخذ في ذلكعلى الناسحد محدود مخصوص ، كما اخذ عليهمفيالقراءة والأذان .

والسـبب في ذلك ان الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الاشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكتابة به على اي صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادعى انه يجب على الناس رسم مخصوص وجب ان يقيم الحجة على دعواه . وانى له ذلك ؟)[١] .

* واما الراي الثالث فان اشهر القائلين به الامام العز بن عبد السلام رحمه الله المتوفى سنة ٦٦٠ هـ الذي يرى انه لا تجوز كتابة المصحف للعامة بالرسم العثماني الأول لئلا توقع هذه الكتابة في تغيير من الجهال .

واليك كلامه كما نقلــه عنه الزركشي . قال الشيخ عز الــدين بن عبد السلام : (لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الاولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهال)[٢] .

ومن القائلين به من المعاصرين عدد من العلماء منهم العلامة الشيخ احمد مصطفى المراغي الذي قال في مقدمة تفسيره : (وقد جرينا على الراي الذي اوجبه العز بن عبد السلام في كتابة الآيات اثناء التفسير للعلة التي ذكرها ، وهي في عصرنا اشد حاجة اليها من تلك العصور)[٣] .

---

(١) « الانتصار » للباقلاني وقد نقلت هــذا الكلام من مقدمة « تفسـير المراغـي » ١٣/١ – ١٤

(٢) « البرهان » ٣٧٩/١ وقد نقله ايضا المراغي في « تفسـيره » ١٥/١

(٣) « تفسير المراغي » ١٥/١

وقد جرى الاستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ على هذا الراي فكتب الآيات في « الظلال » بالاملاء الحديث .

ويبدو انه لا مانع عند اصحاب هذا الراي من المحافظة على الرسم العثماني للخاصة باعتبار أنه من الآثار النفيسة التي ينبغي أن تبقى في أيدي العارفين .

ورأينا أن القول الأول غير صحيح ، وان اقرب هذه الأقوال للصواب هو القول الثالث ولئن قال العز بن عبد السلام بان كتابة القرآن على الرسم العثماني توقع الجهال في زمانه في تغيير إن هذه الكتابة الآن توقع جمهور المثقفين وعامة الناس في هذا التغيير والتبديل ، ذلك لأن الناس في زمانه كانوا يتلقون القرآن عن طريق المشافهة والأخذ من الاستاذ في الكتاتيب ، والكتاب مدرسة قائمة على القرآن بشكل اصيل . وقد انقرضت هذه الكتاتيب اليوم من كافة انحاء العالم الاسلامي ، وزاحمتها المدارس العصرية التي تقوم على مناهج متاثرة بحضارة الغرب ، وضعت في معظم بلاد المسلمين من قبل الاجانب او تلامذتهم وعملائهم . وإذا نظرنا الى واقع المسلمين فقلما نجد مثقفاً ممن خرّجتهم هذه المدارس ولم يتلق ثقافته من مصدر آخر قلما نجده يستطيع ان يقرا القرآن قراءة سليمة .

ومن اجل ذلك فاننا نرى ان يكتب القرآن للتعليم بالاملاء المعاصر ويحتفظ بالكتابة العثمانية اثرا نفيساً من آثار السلف . اننا بذلك نقرب القرآن للناس ، ونحول دون ان تكون هناك هوة سحيقة بين الناس وبين القرآن ، وتبقى المصاحف المكتوبة على الكتبة الاولى دليلا على الاتصال باملاء السلف ، ومن اجل كثير ممن تعلموا القراءة في المصحف المكتوب تلك الكتابة ، ومن اجل معرفة القراءة الثابتة التي جعلوا من شروطها موافقة المصحف الامـــام .

اما اولئك الذين يظنون انهم بمنعهم أي كتابة غير الكتابة الأولى يبقون على الكتابة ذاتها فهم مخطئون لان الكتابة التي تجدها في المصاحف مشكولة منقوطة وليست كذلك الكتابة الاولى ، اضف الى ذلك أن عددا من طبعات المصاحف قد دخلها كثير او قليل من التعديل في الاملاء .

وقد احسن الاستاذ إبراهيم الابياري عندما قال :

(واخشى ما نخشاه نحن اليوم ، أو بعد اليوم ، ان يبقى القرآن برسمه القديم الذي يختلف واملاء العصر ، فيخلق بلبلة على الألسن . وما نحن في كل بيئة نملك حفاظاً يضبطون الألسنة عن أن تلتوي ، وإن ملكنا في كل بيئة حفاظاً فمحال ان يجد كل قارىء حافظا الى جواره .

يجب ان نخاف ما خافه السلف ، وان نحتاط كما احتاط السلف . ويجب أن نفصل بين وحي الله واقلام الكتاب(١)) .

* * *

نشر المصحف وطبعه في العصر الحاضر :

ما ان جاء العصر الحاضر وظهرت الطباعة حتى شرعت المطابع تطبع المصحف وتعنى به عناية كبرى ، والطبعات الاولى طبعات أوربية أشرف عليها مستشرقون .

١ ـ فقد طبع للمرة الأولى في البندقية من ايطاليا سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣٠ م .

٢ ـ ثم طبع في (هامبورغ) من المانيا سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٤ م .

٣ ـ ثم طبع في (بادوا) من ايطاليا سنة ١١١٠هـ/١٦٩٨ م .

٤ ـ والطبعة الاسلامية الأولى كانت في روسيا في مدينة (سانت بترس بورغ) سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٧ م قام بها مولاي عثمان .

٥ ـ ثم طبع في ايران طبعتين حجريتين : الاولى في طهران سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨ م والثانية في تبريز سنة ١٢٤٩ هـ/١٨٣٣ م .

٦ ـ ثم توالت الطبعات المختلفة في أوربا ، ومن ذلك طبعة (فلوجل) للقرآن في (ليبزيغ) من المانيا سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤ م .

٧ ـ وطبع مرات في الهند والاستانة والبلاد العربية .

٨ ـ وفي سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٨ م طبع المصحف طبعة جميلة مشرفة

---

(١) « تاريخ القرآن » لابراهيم الابياري ص ١٣٩ وانظر في رسم القرآن كتاب « تاريخ القرآن » لمحمد طاهر الكردي وكتاب « القرآن المجيد » لمحمد عزة دروزة وكتاب « الفرقان » لابن الخطيب ص ٦٠ ـ ٩٠ .

رائعة دقيقة دقة متناهيه عرفت بطبع الملك فؤاد . وقد اشرفت على طباعته لجنة مؤلفة من الاساتذة :

محمد علي خلف الحسيني المتوفى سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٩ م شيخ القارىء المصرية .

وحفنى ناصف المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م المفتش الأول للغة العربيــة .

ومصطفى عناني المتوفى سنة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية .

واحمد بن علي الاسكندري المتوفى سنة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية .

وفي الطبعة الثانية للمصحف قام بتصحيحه ومراجعته مراجعة دقيقة على المصحف الذي ظهر في عهد الملك فؤاد شيخ القارىء المصرية الشيخ علي محمد الضباع مراجع المصاحف الشريفة بمشيخة القارىء .

٩ ـ وما زالت المطابع تنشر الملايين من نسخ المصاحف ، ولم تستطع طبعة اخرى أن تزاحم طبعة مصحف الملك فؤاد حتى الآن في دقتها وجودتها .



الباب الثالث

علوم القرآن

علوم القرآن هي المباحث التي تتعلق بالقرآن وجوانب منه . ويبدو ان عدداً من الأئمة المتقدمين الفوا كتباً في موضوعات تتصل بالقرآن ، ذكر بعضها ابن النديم في « الفهرست »(1)

وهذه هي المرحلة الأولى في نشوء ما عرف بعلوم القرآن .

ثم جمعت هذه المباحث تحت عنوان (علوم القرآن) ، ثم لم يلبث ان اصبح هذا العنوان علَماً على علم بذاته ، أرادوه أن يكون نظيراً لعلم المصطلح او علوم الحديث .

ومن المفيد ان نذكر فيما يأتي بعض أسماء المؤلفين المتقدمين ، وما الفوا من كتب في هذا الموضوع :

فمن اقدم هؤلاء المؤلفين اولئك الذين تركوا كتباً في التفسير ، من اشهرهم سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

ومنهم ابو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ الذي الف كتاب « غريب القرآن » .

ومؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٥ هـ الذي الف كتاب « غريب القرآن » .

والأصمعي المتوفى سنة ٢١٤ هـ الذي ألف كتاب « لغات القرآن » .

ومحمود بن ايوب الضريس المتوفى سنة ٢٩٤ هـ الذي الف في موضوع المكي والمدني .

وخلف بن هشام البزار المتوفى سنة ٢٢٩ هـ الذي الف « كتاب القراءات » .

---

(1) « الفهرست » من ص ٥٦ — ٦٤

وابو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذي الف كتاب « النقط والشكل » .

ومحمود بن الحسن الذي الف كتاب « متشابه القرآن » .

وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ الذي الف كتاب « ناسخ القرآن ومنسوخه » .

والإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ الذي الف كتاب « احكام القرآن » .

وعلي بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ الذي الف كتاب « أسباب النـزول » .

وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ الذي الف كتاب « مشكل القرآن » .
الى غير ذلك من موضوعات لايكاد يحصيها العد .

اما اول من جمع هذه العلوم في كتاب واحد فمن الصعب الجزم بتحديده . ويذكر الاستاذ الزرقاني(١) ان اول من الف في علوم القرآن هو علي بن إبراهيم بن سعيد المشهور بالحوفي المتوفى سنة ٤٣٠هـ وقد ترك كتاب « البرهان في علوم القرآن » .

ثم الف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين في علوم القرآن هما : « فنون الافنان في علوم القرآن » و « المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن » .

ثم الف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاب « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز »(٢) .

ثم جاء الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ والف كتابه المشهور : « البرهان في علوم القرآن » .

ثم جاء البلقيني المتوفى سنة ٨٤٢ والف كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » .

واخيرا جاء السيوطي المتوفى ٩١١ هـ والف كتابه القيم الجامع : « الاتقان في علوم القرآن » .

وسندرس في هذا الباب موضوعات ثلاثة هي : المكي والمدني ، والمحكم والمتشابه ، والقراءات . ونرد القراء الراغبين في الاطلاع على العلوم الاخرى من علوم القرآن ، إلى مطالعة كتاب « الاتقان » للسيوطي .

---

(١) انظر « مناهل العرفان » : ٢٧/١ ــ ٢٨

(٢) وهو كتاب نفيس اطلعت على مصورة له عند الصديق الدكتور مصطفى الاعظمي ، صورها عن النسخة المخطوطة في تركيا .

الفصل الأول

المكي والمدني

استمر نزول القرآن ثلاثا وعشرين سنة . وقد وقع خلال هذه المدة حادث عظيم لعله من اعظم الأحداث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة . هذا الحادث هو الهجرة الى المدينة المنورة .

وكان هذا القرآن الكريم يتنزل في مكة على النبي صلى الله عليه وسلم ليواجه به مجتمع الجاهلية العنيد ، وليوجه القلة المستضعفة المغلوبة على امرها ممن آمن واهتدى .

ولكنه في المدينة كان يواجه مجتمعاً قائماً على اساس الايمان والانقياد لتعاليم هذا الدين ، فكان من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف بين موضوعات كل من المرحلتين ، ويتبع هذا الاختلاف في الموضوع الاختلاف في خصائص الاسلوب .

لقد نزل القرآن ليربي امة العقيدة ، التي تبقى مهمتها ما بقيت على الأرض حياة .. فلا عجب إذن أن يتبين العلماء نوعين في هذا القرآن .

وإن مما يكاد يأخذ بالألباب هذه العناية التي لقيها هذا الكتاب الكريم ، فلقد نقل المسلمون عن آياته : متى نزلت ؟ حتى إننا لنستطيع القول :إنه ليست هناك آية إلا وقد ورد ما يدل على تاريخ نزولها . بل اننا لنجد اكثر من ذلك دلالة على العناية بالكتاب الكريم ، فلقد ذكر المؤلفون في علوم القرآن الحضري منه والسفري ، والليلي منه والنهاري ، والصيفي منه والشتائي ، والفراشي والنومي ، وما الى ذلك من علوم تجدها في كتب علوم القرآن مما يؤكد هذه العناية ، التي لم يعرفها تاريخ الفكر الانساني بالنسبة الى كتاب آخر سماوي او ارضي .

* * *

تعريف المكي والمدني :

القول الصحيح الراجح ان المكي ما نزل من القرآن قبل الهجرة ، وان المدني ما نزل بعدها .

وهناك قولان آخران في تعريفهما لا يصحان ولا يطردان وهما :

١ ـ المكي ما خوطب به أهل مكة ، والمدني ما خوطب به أهل المدينة .

٢ ـ المكي ما نزل في مكة ، والمدني ما نزل في المدينة .

* * *

خصائص المكي :

١ ـ نرى المكي غالبا يعالج موضوع بناء العقيدة بطريقة وجدانية وعقلية . وموضوعه الأساسي في اختصار كما يقول الاستاذ سيد قطب (حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وحقيقة العلاقات بينهما ، وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي ان يدينوا له ويعبدوه ، ويتبعوا أمره وشرعه ، وتنحية كل ما أدخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء ، ورد الناس الى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته)[١] .

٢ ـ ونرى في هذا النوع من القرآن جدالا للمشتركين يبين خطأهم الواضح ، والغاءهم العقل ، واتباعهم العادات المألوفة ، التي وجدوا عليها آباءهم ، ونرى فيه هجوماً عنيفاً على الشرك والوثنية والعادات القبيحة ، وزجراً وتهديداً ووعيداً للكافرين الذين يصدون عن ذكر الله ويعرضون عن آياته .

٣ ـ ونرى ان المكي يغلب على آياته القصر ، وتكثر فيه كلمة (كلا) التي فيها زجر ، ويكثر فيه افتتاح السور بالحروف من امثال (ق) و (حم) و (كهيعص) .

---

(١) « في ظلال القرآن » ٨٩/١١

واسلوب عرضه اسلوب موح عميق الايقاع . بالغ التأثير حيث تشترك في اداء هذا الغرض كل خصائص التعبير من البناء اللفظي الى المؤثرات الموضوعية(١) .

٤ ـ ونرى ان القرآن المكي يكثر من عرض قصص المكذبين .

خصائص المدني :

١ ـ نرى المدني غالبا يعالج بناء المجتمع المسلم ، والاسرة المسلمة بتفصيل احكام الشريعة في نواحي الحياة المختلفة . من معاملات وزواج وطلاق وميراث . وكانت هذه الاحكام معتمدة على العقيدة ومنبثقة عنها .

٢ ـ ونرى في هذا النوع من القرآن فضحا للمنافقين ، وكشفا لمؤامراتهم ، وعرضا لتناقضاتهم وتسفيها لشعاراتهم المخادعة التي يطرحونها .

٣ ـ ونرى فيه مجادلة لاهل الكتاب . ومناقشة لآرائهم التي تتعارض احيانا مع حقائق التاريخ وإليك المثال الآتي : كان اليهود يدعون ان ابراهيم يهودي وكانت النصارى تدعي انه نصراني ، فنزل قوله تعالى :
(ياأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون)(٢) .

٤ ـ ونرى فيه ذكرا لاحكام الجهاد والحرب والسلم والهدنة مما يتصل بشؤون الدولة المسلمة وعلاقاتها الدولية .

٥ ـ ونلاحظ ان هذه الاغراض وغيرها عرضت بأسلوب يناسبها . فليس من شك في ان موضوع النص يحدد لون الاسلوب وطريقته . ولهذا فاننا نرى ان الآيات في القرآن المدني يغلب عليها الطول .

ولكن اسلوب القرآن في النوعين : المكي والمدني يبقى هو الاسلوب المعجز الذي تميز عن اساليب البشر . ويبقى هو الاسلوب الذي بلغ الذروة في الجمال والبيان والروعة .

---

(١) « في ظلال القرآن » ٨٩/١١

(٢) سورة آل عمران : ٦٦

كيف نعرف المكي من المدني ؟

نرجع في ذلك الى ماورد عن الصحابة الذين عاصروا الوحي وشهدوا مكانه ، وعاشوا اسباب نزوله . جاء في « صحيح البخاري » (١) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (والله الذي لا إله غيره ما انزلت سورة من كتاب الله إلا أنا اعلم اين انزلت ؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا انا اعلم فيما انزلت ؟ ولو اعلم احدا اعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه) وقد اورد السيوطي في « الاتقان » السور المدنية والسور المكية والسور التي اختلف في تحديدها العلماء ، وفصل في ذلك تفصيلا جيدا . وينبغي أن نشير الى أن بعض السور كان مؤلفا من النوعين المكي والمدني .

وقد اشارت معظم المصاحف المطبوعة الى المكي والمدني منه ، اعتمادا على ما ذكره العلماء .

* * *

فوائد معرفة المكي والمدني :

١ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ على وجه يحدد لنا الحكم الباقي الواجب اتباعه .

٢ ـ معرفة طريقة القرآن التي سلكها في تنشئة الامة المسلمة وتربيتها والخطوات التي خطاها في اقامة الدولة الاسلامية حتى يكون في ذلك عبرة لدعاة الاصلاح ، وقادة الفكر الاسلامي الذين يتطلعون الى استئناف الحياة الاسلامية من جديد .

٣ ـ التعرف على مدى الخدمة الفائقة والعناية البالغة التي حظي بها القرآن الكريم من المسلمين من عهد الصحابة حتى يومنا هذا .

٤ ـ واخيرا فاننا نستفيد من معرفتنا للمكي والمدني من القرآن في فهم الآية وتفسيرها على وجه افضل واكمل ، ولا سيما أن وقفنا مع ذلك على اسباب النزول .

* * *

---

(١) باب القراء من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من « صحيح البخاري » ١٥٤/٦

الفصل الثاني

المحكم والمتشابه

ذكر القرآن الكريم نفسه ان منه آيات محكمات ، ومنه آيات متشابهات ، وذلك في قوله تعالى : **(هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن إم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله ، وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب)** (١) .

تعريف المحكم والمتشابه :

للعلماء تعريفات عديدة لهما ، واحسن هذه التعريفات التعريف الآتي:

المحكم : ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل .

والمتشابه : ما تعذر ذلك ، واستأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، والحروف المقطعة في اوائل السور .

قال القرطبي : هذا احسن ما قيل في المتشابه (٢) .

وقيل : المحكم مالا يحتمل من التأويل الا وجها واحدا . والمتشابه ما احتمل أوجهاً . وقيل غير ذلك(٣) .

اذن فالمحكم والمتشابه نوعان موجودان في القرآن ، ويتعلقان كما رايت بوضوح المعنى وعدمه ، وهذا امر طبيعي ، فالتفاوت في الوضوح يوجد في كل كلام ، فهناك الواضح الذي لا غموض فيه ولا يحتاج الى جهد

---

(١) سورة آل عمران : ٧

(٢) « تفسير القرطبي »٤/١٠

(٣) أورد السيوطي في « الاتقان » ٢/٢ تعريفات عديدة لهما .

في فهمه وتفسيره ، بل معناه مفهوم يتبادر الى الذهن مباشرة ، وهناك نصوص محتملة ليست في تلك الدرجة من الوضوح ، ولا يقوى الناس على فهمها وادراك مغزاها .

والآية المتقدمة تشير إلى أن الذين يريدون الحق لا يذهبون الى تلك النصوص المتشابهه ويحملونها ما لا تحمل ، ولا يستغلون غموضها لتأويلها بما يتناسب واغراضهم . فذلك فعل الذين في قلوبهم زيغ ، واما المؤمنون العلماء فانهم يلتزمون الواضح فيعملون به ويؤمنون بالمتشابه أنه من عند الله . ويدعون محاولة التعسف في فهمه وتأويله .

* * *

هل المتشابه مما يمكن معرفته ؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين :

الاول : انه يمكن الاطلاع على علم المتشابه للراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله ، واختارهذا القول الامام النووي فقال في « شرح مسلم » :

إنه الاصح ، لانه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لاسبيل لاحد من الخلق إلى معرفته .

ويبدو انه لا بد من بقاء بعض المتشابه الذي لايمكن للناس الاطلاع على علمه ، والذي يبقى تأويله مختصاً بالله تعالى .

الثاني : انه لا يمكن لأحد الاطلاع على علمه ولا يعلمه الاالله ، وأما الراسخون في العلم فانهم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا .

وايد السيوطي هذا القول بأنه قول اكثر الصحابة والتابعين .

أنواع المتشابه :

افاض العلماء في ذكر انواعه ، دون المحكم ، لان الموضوع شائك بالنسبة إلى المتشابه ، فذكروا أن المتشابه ثلاثة أنواع(١) :

---

(١) . نقل السيوطي هذا التقسيم عن الراغب الاصفهاني في « المفردات » انظر « الاتقان » ٢/٥

متشابه من جهة اللفظ فقط . ومتشابــه من جهة المعنى فقط . ومتشـابه من جهتهما .

وسنذكر كلا منها بشيء من الشرح :

١ ــ المتشـابه من جهة اللفظ : وهو الذي اصابه الغموض بسبب اللفظ .وهو نوعان :

ا ــ احدهما يرجع الى الالفاظ المفردة اما من جهة الغرابة اوالاشتراك ، والمثال على الغرابة كلمة (الأب) وكلمة (يزفون) .

والمثال على الاشتراك (اليد واليمين) .

ب ــ ثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب وذلك ثلاثة اضرب :

١ ــ ضرب لاختصار الكلام . نحو (**وإن خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم**)(١) .

٢ ــ وضرب لبسطه . نحو (**ليس كمثله شيء**)(٢) .

٣ ــ وضرب لنظم الكلام . نحو (**.. انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً**)(٣) تقديره : انزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجاً .

٢ ــ والمتشـابه من جهة المعنى فقط : وذكر الراغب ان منه اوصاف الله تعالى واوصاف القيامة اذ هو سبحانه ليس كمثله شيء ، واحوال القيامة مما لا نستطيع تصورها لان فيها ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقد ذهب ابن تيمية الى ان اعتبار آيات الصفات من المتشابه غلط . وقد رد على القائلين بذلك رداً مفصلا(٤) ، ولكنه قرر ايضاً أن حقيقة

---

(١) سورة النساء : ٣

(٢) سورة الشورى : ١١

(٣) سورة الكهف : ١

(٤) انظر « الفتاوى » ١٣/٢٩٤

ما تدل عليه الآيات من حقائق الاسماء والصفات من المتشابه الذي لا يعلمه الا الله . قال : (واما حقيقة ما دل عليه ذلك من حقائق الاسماء والصفات.. فهذا من تأويل المتشابه الذي لايعلمه إلا الله)(١) .

٣ ـ والمتشابه من جهتهما على انواع خمسة ، لن نذكرها ، ونكتفي بعرض نوع منها وذلك عندما يكون من جهة المكان والامور التي نزلت فيها نحو (**إنما النسيء زيادة في الكفر**)(٢) فان من لايعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية .

وذكروا للمتشابه تقسيما آخر من حيث إمكانية معرفته . فقالوا انه ينقسم الى ثلاثة اقسام :

الأول : لا سبيل الى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة .

الثاني : للانسان سبيل إلى معرفته كالالفاظ الغريبة .

الثالث : متردد بين الامرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ، ويخفى على من دونهم ، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .



فوائد المتشابه :

قد يرد سؤال هو : ما الحكمة في انزال المتشابه ووجوده ؟ والجواب على ذلك ان فوائد المتشابه تختلف بالنسبة الى ما يمكن علمه والى ما لا يمكن علمه .

أ ـ فوائد المتشابه الذي يمكن علمه عديدة نذكر منها اربعة هي :

١ ـ حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه .

---

(١) انظر « الفتاوى » ٦٥/٣

(٢) سورة التوبة : ٣٧

٢ ـ ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات اذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج الى تأويل لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره .

٣ ـ الحصول على الثواب الأكبر ، ذلك لأن المتشابه يوجب مزيد المشقة في الوصول الى المراد . وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب .

٤ ـ تحصيل العلوم الكثيرة ؛ ذلك لأن المتشابه يوجب فهمه التعمق في معرفة النحو والمعاني وغيرهما والوقوف على أساليب العرب والعلوم الأخرى .

٢ ـ فوائد المتشابه الذي لا يمكن علمه :

١ ـ ابتلاء العباد بالوقوف عنده ؛ والتوقف فيه ، والتفويض والتسليم . والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وان لم يجز العمل بما فيه .

٢ ـ إقامة الحجة على العرب البلغاء الأبيناء لأن القرآن نزل بلسانهم ولغتهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الوقوف على معناه ، فدل ذلك على انه منزل من عند الله .

* * *

تنبيـه :

هذا هو المحكم والمتشابه . ونود ان نشير الى ان هاتين الكلمتين وردتا في القرآن بمعان اخرى .

وذلك مثل قولـه تعالى (**كتاب احكمت آياتـه**)(١) اي في النظـم والرصف .

ومثل قوله تعالى (**كتاباً متشابهاً**)(٢) اي يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضا(٣) .



(١) سورة هود : ١

(٢) سورة الزمر : ٢٣

(٣) « تفسير القرطبي » ١٠/٤

الفصل الثالث

القراءات

تعريفها :

القراءات : جمع قراءة ، وهي في اللغة مصدر قرأ .

وفي الاصطلاح : علم بكيفية اداء كلمات القرآن من تخفيف وتشديد وغيرهما ، واختلاف الفاظ الوحي في الحروف .

وقال الزركشي في « البرهان » :

القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والاعجاز ، والقراءات هي اختلاف الفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما[1] .

ولا بد فيها من التلقي والمشافهة ، لأن في القراءات أشياء لاتحكم إلا بالسماع والمشافهة .

شروط القراءة الصحيحة :

اشترط القراء شروطا ثلاثة لصحة القراءة واعتبارها ، وهي :

١ ــ موافقتها لرسم المصحف الامام .

٢ ــ نقلها بالتواتر : هذا مذهب الاصوليين وفقهاء المذاهب الاربعة والمحدثين، وبناء على ذلك فلا تثبت القراءة بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت رسم المصحف ووافقت وجهاً من وجوه العربية[2] .

---

(١) « البرهان » ٣١٨/١ وانظر « الاتقان » ٨٠/١

(٢) انظر « غيث النفع » للصفاقسي ص ١٧ المطبوع مع « شرح الشاطبية » لابن

٣ ـ موافقتها لوجه من وجوه العربية .

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة اطلق عليها شاذة . وقد يطلقون عليها ضعيفة او باطلة . قال ابن الجزري في أول كتابه « النشر » بعد ان ذكر هذه الشروط : « ومتى اختل ركن من هذه الاركان الثلاثة اطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو اكبر منهم . وهذا هو الصحيح عند ائمة التحقيق من السلف والخلف »(١) .

وقال الكواشي : « ومتى فقد شرط من الثلاثة فهو من الشاذ »(٢).

اما اذا توافرت هذه الأركان فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل انكارها . بل هي من الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن . ووجب على الناس قبولها سواء اكانت عن الأئمة السبعة ام عن غيرهم من الائمة المشهورين(٣) .

القراءات وحي :

والقراءات وحي تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من جبريل . وقراه الرسول على الصحابة ، ونقلت عنه بالتواتر كما ذكرنا آنفا .

نقد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس ان جبريل كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه مرتين(٤) :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

القاصح المسمى « سراج القارىء المبتدى وتذكار المقرىء المنتهي » وانظر « النشر » لابن الجزري وانظر تعليق استاذنا الاستاذ سعيد الافغاني حول هذه النقطة في كتابه « اصول النحو » ص ٥٩ وانظر « البرهان » ٣١٩/١

(١) « النشر » لابن الجزري

(٢) « الاتقان » ٨١/١

(٣) انظر « النشر » لابن الجزري ٩/١

(٤) انظر « فتاوى ابن تيمية » ٣٩٥/١٣ و « النشر » ٣٢/١

عنده . فأقبلت فاطمة تمشي ،ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا . فلما رآها رحب بها وقال : « مرحبا بابنتي » ثم أجلسها عن يمينه ــ أو عن شماله ــ وسارّها ، فبكت بكاء شديدا . فلما رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت . فقلت لها : خصك رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين ؟

فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : ما كنت افشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّه . فلماتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ماقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالت : أما الآن فنعم . أما حين سارني في المرة الأولى ، فاخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة ، وأنه عارضه الآن مرتين « وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري . فانه نعم السلف انالك » فبكيت بكائي الذي رايت . فلما راى جزعي سارني الثانية فقال : « يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ؟ أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ » فضحكت ضحكي الذي رايت(١) .

وكانت هذه العرضة الأخيرة تتضمن طرقا مختلفة لاداء بعض الكلمات ، كما كانت تتضمن اختلافات بعض ألفاظ الوحي .

ومن المعلوم ان الصحابة قد اختلف أخذهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من اخذ عنه طريقة ما ، ومنهم من اخذ طريقةاخرى ، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال ، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم . واخذ تابعي التابعين عن التابعين وهلم جرا .. حتى وصل الأمر على هذا النحو الى الأئمة القراء الذين سجلوا هذه القراءات .. وكانت القراءات المختلفة .



* * *

(١) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم . وانظره في « صحيح مسلم » ١٤٢/٧ وفي « صحيح البخاري » ١٦٣/٤ وانظره في « رياض الصالحين » باب حفظ السر ص ٣٠٣

حديث الأحرف السبعة :

لمس المسلمون أثر هذا الاختلاف في القراءة الذي أشرنا اليه في عهد النبوة ، كما في حديث عمر وهشام الآتي ، وهو حديث الأحرف السبعة .

وقد التبس أمر هذا الحديث على كثير من الناس ، حيث ظن بعضهم ان المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع ، وهو وهم أشار اليه الامام الحافظ أبو شامة بقوله :

(ظن قوم ان القراءات السبع الموجودة الآن هي التي اريدت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض اهل الجهل)[1] .

وقال ابن عمار أيضا :

(لقد فعل مسبّع هذه السبعة ما لا ينبغي له ، واشكل الأمر على العامة بايهامه كل من قل نظره ان هذه القراءات هي المذكورة في الخبر . وليته اذ اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة)[2] .

وقد ذهب بعض أهل العلم الى أن حديث الاحرف السبعة تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وألف فيه كثير من العلماء رسائل خاصة [3]، وممن ألف في الحديث المذكور الامام الحافظ ابو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ الذي الف فيه جزءا تتبع رواياته ليدل على أنه متواتر .

ونص الحديث كما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها

---

(١) ذكر ذلك ابن حجر في « فتح الباري »٩/٣٠ وانظر تفسير الطبري ١/٦٥ وتعليق الاستاذ محمود محمد شاكر .

(٢) « انظر فتح الباري » ٩/٣٠

(٣) انظر « غيث النفع للصفاقسي »

رسول الله صلى الله عليه وسلم نكدت اساوره[1] في الصلاة . فانتظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائه[2] فقلت : من اقراك هذه السورة ؟ قال : اقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت له : كذبت ، فوالله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقراني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها . فانطلقت اقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : يارسول الله اني سمعت هذا يقرا بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت اقراتني سورة الفرقان .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارسله يا عمر . اقرا يا هشام » .

فقرا هذه القراءة التي سمعته يقرؤها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هكذا انزلت » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف . فاقرؤوا ما تيسر منه » واللفظ للبخاري[3] .

واخرج مسلم[4] عن ابي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم كان عنده اضاة[5] بني غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك ان تقرا امتك القرآن على حرف .

فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وان امتي لا تطيق ذلك .

ثم إتاه الثانية فقال : ان الله يأمرك ان تقرا امتك القرآن على حرفين .

---

(1) اي اعاجله وأواثبه

(2) اي جمعت الرداء في موضع لبته اي عنقه وامسكته به وجذبته به .

(3) انظر « صحيح البخاري » ١٥٢/٦ و « صحيح مسلم » ٢٠٢/٢ واخرجه معهما الترمذي وأبو داود والنسائي ومالك في « الموطأ » . وانظر الحديث في « جامع الاصول » لابن الاثير ٣١/٢ و « تفسير ابن جرير » طبعة دار المعارف تحقيق محمود شاكر ٢٤/١ ورقم الحديث ٢٥ .

(4) انظر « صحيح مسلم » ٢٠٣/٢ واخرجه أيضا ابو داود والترمذي والنسائي وانظره في « جامع الاصول » ٣٥/٢ .

(5) الاضاة : الماء المستنقع كالغدير جمعها أضا « مثل حصاة حصى » .

فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان امتي لا تطيق ذلك .

ثم جاءه الثالثة فقال : ان الله يأمرك ان تقرأ امتك القرآن على ثلاثة أحرف .

فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتي لا تطيق ذلك .

ثم جاء الرابعة فقال : ان الله يأمرك ان تقرأ امتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا » .

ومن الجدير بالذكر التنبيه الى ان السبعة هنا يراد بها مدلولها الرقمي ، ولولا التدرج الوارد في هذا الحديث لما كان هناك مانع من ان يكون قد اريد بها التعدد ، لان من عادة العرب ان تستعمل السبعة لتدل على التعدد في الآحاد ، والسبعين في العشرات ، والسبعمائة في المئات(١) .

وقد اجمع العلماء(٢) المعتد بهم على أن حديث الأحرف السبعة ليس المراد به القراءات السبع المشهورة . قال ابن الجزري في النشر :

(وانما اطلنا في هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم له ان القراءات الصحيحة هي التي عند هؤلاء السبعة ، وان الأحرف السبعة التي أشار اليها النبي صلى الله عليه وسلم هي قراءة هؤلاء السبعة . بل غلب على كثير من الجهال ان القراءات الصحيحة هي التي في « الشاطبية » و « التيسير »(٣) ويريد بالجملة الاخيرة أن القراءات الصحيحة اكثر من التي توجد في هذين الكتابين .

وقد نقلنا قول الامام أبي شامة في ذلك قبل قليل .

وليس المراد بالحديث أن كل كلمة تقرأ على سبعة اوجه :

واختلفوا في المراد به على أقوال متعددة ، وقد أورد السيوطي خمسة وثلاثين قولا ذكرها في «الاتقان»(٤) وقال: إنها اربعون . ونقل الأستاذ الزرقاني

---

(١) انظر « النشر » لابن الجزري ٢٦/١

(٢) نص على هذا الاجماع ابن تيمية في « الفتاوى » ٣٩٠/١٣ وابن الجزري في « النشر » ٢٤/١

(٣) « النشر » ٣٦/١

(٤) « الاتقان » ٤٥/١ النوع السادس عشر

ان هذه الأقوال تصل الى اربعين وفصل القول في احد عشر قولا . واورد بايجاز تسعة اقوال اخرى(١) .

وقال ابن حجر في « فتح الباري » : (وذكر القرطبي عن ابن حبان انه بلغ الاختلاف في معنى الأحرف السبعة الى خمسة وثلاثين قولا ولم يذكر القرطبي منها سوى خمسة وقال المنذري : اكثرها غير مختار . ولم اقف على كلام ابن حبان في هذا بعد تتبعي مظانه من صحيحه)(٢) .

ولن نستطيع استقصاء هذه الأقوال كلها هنا . ولكننا سنورد القول الذي نرجحه . ويمكن لمن يريد التوسع في ذلك ان يرجع إلى المراجع المذكورة في حواشي البحث .

وهذا الرأي الذي سنورده منسوب الى الجمهور من اهل الفقه والحديث(٣) .

وقد ذهب اليه ابن جرير وغيره فقالوا : ان القراءة على الاحرف السبعة يراد بها سبع لغات اي سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ومعنى واحد اي اوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة ومعنى واحد .

نحو (هلم ، واقبل ، وتعال ، وعجل ، واسرع ، وقصدي ، ونحوي) فهذه الفاظ سبعة معناها واحد وهو طلب الاقبال .

وقد حكى هذا القول ابن تيمية فقال :

(يقول ابن جرير وغيره : ان القراءة على الاحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة ، وانما كان جائزا لهم ، مرخصا لهم فيه ، وقد جعل اليهم الاختيار في اي حرف اختاروه)(٤) .

ثم قال : (ومن هؤلاء من يقول ان الترخيص في الاحرف السبعة كان

---

(١) « مناهل العرفان » ١٤٨/١ – ١٧٧
(٢) « فتح الباري » ٢٣/٩
(٣) « مناهل العرفان » ١٦٧/١
(٤) « فتاوى ابن تيمية » ٣٩٦/١٣

في اول الاسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم . فلما ذللت السنتهم بالقراءة . وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرا عليهم وهو ارفق بهم جمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الاخيرة ويقولون : انه نسخ ما سوى ذلك)(١) .

هل الاحرف السبعة موجودة في المصاحف العثمانية ؟

الجواب على ذلك مرتبط بالمراد من الاحرف السبعة :

فعلى قول ابن جرير الذي اخترناه وذكرناه قبل قليل أن الذي في المصاحف العثمانية انما هو الحرف الذي ارتضته الامة زمن عثمان وهو الذي وافق العرضة الأخيرة . واما الأحرف الأخرى فقد اندثرت . لأن القراءة بها لم تكن على سبيل الالزام . وانما كانت على سبيل الرخصة . قال ابو عمر بن عبد البر : (الا ان مصحف عثمان الذي بأيدي الناس اليوم هو حرف واحد ، وعلى هذا اهل العلم)(٢) .

اما القراءات فمن الجلي الواضح انها جميعا موجودة في المصحف . بل لقد اشترط القراء كما سبق ان ذكرنا موافقة القراءة لرسم مصحف عثمان حتى تكون قراءة صحيحة .

تاريخ القراءات :

كان موضوع القراءات من اهم الموضوعاتالتي واجهت اللجنةالكريمة المكلفة بهذه المهمة العظيمة : مهمة كتابة المصحف .

وقد وجدت هذه اللجنة في عدم نقط المصحف وعدم شكله حلا جيدا لمشكلة استيعاب معظم القراءات ، اذ اصبح المصحف في كتابته هذه متسعا لعدد كبير من القراءات المتناقلة في عصرهم .

يقول ابن الجزري الدمشقي المتوفى سنة ٨٣٣ هـ :

(١) « فتاوى ابن تيميه » ٣٩٧/١٣

(٢) « البرهان » ٢٢١/١ وانظر في هذا الموضوع « الاتقان » ٤٩/١

(وجردت هذه المصاحف جميعها من النقط والشكل ليحتملها ما صح نقله ، وثبتت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ كان الاعتماد على الحفظ لاعلى مجرد الخط . وكان من جملة الأحرف التي اشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « انزل هـذا القرآن على سبعة احرف » فكتبت المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح به غير واحد من ائمة السلف كمحمد بن سيرين وغيره)[1] .

ومن المعلوم ان الصحابة رضوان الله عليهم تفرقوا في الامصار المفتوحة فكان منهم فريق في العراق ، وفريق في الشام ، وفريق في اليمن . . وهكذا. وكان الصحابي يقرىء أهل المصر الذين يقيم فيهم القراءة التي تلقاها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصحف عثمان . قال ابن الجزري : (وقرأ كل اهل مصر بما في مصحفهم ، وتلقوا مافيه عن الصحابة الذين تلقوه من في رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم)[2] .

ونبع عدد من التابعين يؤدون هذه المهمة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام .

قال ابن تيمية : (فانه ـ اي ابن مجاهد ـ احب ان يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام : اذ هذه الامصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره ، والحديث والفقه من الاعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية) [3] .

ويقول ابن الجزري :

(ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ ، واعتنوا بضبط القراءة اتم عناية ، حتى صاروا في ذلك ائمة يقتدى بهم ويرحل اليهم ويؤخذعنهم ، اجمع اهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول ، ولم يختلف عليهم فيها اثنان ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم :

---

(1) « النشر » ١/٧ ـ ٨

(2) « النشر » ١/٨

(3) « فتاوى ابن تيمية » ١٣/٣٩٠

* فكان بالمدينة ابو جعفر يزيد بن القعقاع ت ١٣٠ هـ . ثم شيبة بن نصاح ت ١٣٠ هـ ثم نافع بن ابي نعيم ت ١٦٩ هـ .

* وكان بمكـة عبـد الله بن كثير ت ١٢٠ هـ . وحميد بن قيس الأعرج ت ١٣٠ هـ ، ومحمد بن محيصن .

* وكان بالكوفـة يحيى بن وثاب ت ١٠٣ هـ . وعاصم بن ابي النجـود ت ١٥٦ هـ . وسليمان الاعشى ت ١٤٨ هـ . ثم حمزة ت ١٥٦ هـ ثم الكسائي ت ١٨٩ هـ .

* وكان بالبصرة عبد الله بن ابي اسحاق ت ١١٧ هـ . وعيسى بن عمرو ت ١٤٩ هـ ، وابو عمرو بن العلاء ت ١٥٤ هـ . ثم عـاصم الجحدري ت ١٢٨ هـ . ثم يعقوب الحضرمي ت ٢٠٥ هـ .

* وكان بالشـام عبد الله بن عامر ت ١١٨ هـ . وعطيـة بن قيس الكلابي ت ١٢١ هـ . واسماعيل بن عبدالله بن المهاجر . ثم يحيى بن الحارث الذماري ت ١٤٥ هـ ، ثم شريح بن يزيد الحضرمي ت ٢٣٠ هـ .

ثم إنّ القراءة بعد هؤلاء المذكورين كثروا وتفرقوا في البلاد وانتشروا وخلفهم امم بعد امم عرفت طبقاتهم ...) (١) .

ثم جاء ابو عبيد القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ فجمع القراءات في كتاب ، وكان اول امام معتبر يقوم بهذه المهمة ، وكان عدد القراء الذين تعرض لهم في كتابه قرابة ٢٥ قارئا مع السبعة المشهورين (٢) .

ثم قامت بعده محاولات عديدة قام بها اعلام من القراء ، فمن ذلك ماجمعه احمد بن جبير بن محمد الكوفي نزيل انطاكية والمتوفى ٢٥٨ هـ .

وجاء بعده القاضي اسماعيل بن اسحاق المالكي ت ٢٨٢ هـ صاحب قالون الذي الف كتابا في القراءات جمع فيه قراءة عشرين ، منهم هؤلاء السبعـة .

---

١ " النشر " ٩/١

٢ " النشر " ٣٣/١ – ٣٤

وكان بعده محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ الذي جمع كتابا حافلا سماه « الجامع » فيه نيف وعشرون قراءة .

وجاء بعده ابو بكر محمد بن احمد بن عمر الداجوني ت ٣٢٤ هـ الذي جمع ايضا كتابا في القراءات .

وكان في اثره ابو بكر احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي اول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط(١) . وكان ابن مجاهد حافظا مقدما في علم القراءات . ولد في بغداد سنة ٢٤٥ هـ وكان كثير التلاميذ . شديد الورع ، راغبا في الخير ، توفي يوم الاربعاء في ٢٠ شعبان سنة ٣٢٤ هـ(٢) .

قال ابن تيمية :

(فلما اراد ابن مجاهد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من ائمة قراء هذه الامصار ليكون ذلك موافقا لعدد الحروف التي انزل عليها القرآن . لا لاعتقاده او اعتقاد غيره من العلماء ان القراءات السبعة هي الحروف السبعة ، او انّ هؤلاء السبعة هم الذين لايجوز ان يقرأ بغير قراءاتهم)(٣) .

وقال مكي :

(من ظن ان قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطاً عظيما)(٤) وقال : (ويلزم من هذا ان ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الائمة ووافق خط المصحف ان لايكون قرآنا وهذا غلط عظيم)(٤) وقال : (والسبب في الاقتصار على السبعة مع ان في ائمة القراء من هو اجل منهم قدرا ، او مثلهم ، اكثر من عددهم ، ان الرواة عن الائمة كانوا كثيرا جدا فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما

(١) انظر « النشر » ٣٤/١ فقد ذكر ابن الجزري هناك اسماء الكتب التي الفت في القراءات وقد احصى واستقصى . جزاه الله خيرا .

(٢) انظر ترجمته في « غاية النهاية في طبقات القراء » ١٣٩/١

(٣) « فتاوى ابن تيمية » ٣٩٠/١٣

(٤) « الاتقان » ٨٠/١ — ٨١

يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به ، فنظروا الى من اشتهر بالثقة . والأمانة . وطول العمر في ملازمة القراءة به ، والاتفاق على الأخذ عنه . فأفردوا من كل مصر اماماً واحداً »[1] .

* * *

ملاحظـات :

ونختم هذا الاستعراض السريع بملاحظات هامة :

١ ـ القراءات الصحيحة الثابتة كثيرة . وليست محصورة بالقراءات السبع التي جمعها ابن مجاهد ، بل ربما كان كثير ممـا يروى عن غير هؤلاء السبعة اصح من كثير مما فيها[2] والجهلة هم الذين يظنون أن كل ما لم يأت في قراءات هؤلاء السبعة شاذ . وانما أوقع هؤلاء في الشبهة سوء فهمهم لحديث الاحرف . يقول ابن الجزري : (ولذلك كره كثير من الائمة المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء وخطؤوه في ذلك)[2].

٢ ـ لا خلاف بين المسلمين في أن القراءات المشهورة الصحيحة الثابتة بالشروط المعروفة لايمكن ان تتناقض بحال من الأحوال[3] .

ورأى العلماء ان اختلافها واحد من امرين :

أ ـ إما أن يكون عائداً للفظ ، والمعنى واحد . مثل ، الامالة وعدمها ، والادغام وعدمه . وترقيق اللامات وتغليظها .

ب ـ واما ان يكون اختلافها في المعنى ولكن بشكل لا تناقض فيه مثل (باعد) و (بعد) وهذه القراءات الثابتة التي يتغاير فيها المعنى ، كلهـا حق ، يجب الايمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا ، ولا يجوز ترك موجب احداها لأجل الأخرى .

---

(١) « الاتقـان » ١/٨١

(٢) انظر « النشر » ١/٣٦

(٣) وكذلك الاحرف السبعة أيا كان تفسيرها ، لا يمكن أن تتناقض ابدا .

٣ ـ القراءات كلها من الحرف الذي وصلنا ، ولكن كثيرا من القراءات الصحيحة لم تستوعبه القراءات السبع او العشر .

* * *

حكمة تعدد القراءات (١) :

١ ـ التخفيف والتيسير على هذه الامة في قراءة القرآن : ففي الناس المراة والشيخ والانسان العادي ممن لا يقدرون على النطق بغير لهجاتهم وقد آنس الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، فطلب من ربه المعافاة فاستجاب له ، وخفف على امته ، وأنزل القرآن على قراءات متعددة .

٢ ـ شرح الالفاظ : فمثلا القراءة التي وردت الاية فيها كما ياتي : (وتكون الجبال كالصوف المنفوش) (٢) افادت في شرح كلمة (العهن) الواردة في القراءة الاخرى المعروفة : **(وتكون الجبال كالعهن المنفوش)** (٢) .

٣ ـ بيان حكم من الاحكام : مثل قوله تعالى **(وإن كان رجل يورث كلالة او امراة وله اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس)** (٣) .

قرا سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه « وله اخ او اخت من ام » بزيادة (من ام) .

وكذلك قوله تعالى **(فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن)** (٤) فقراءة (يطهرن) بالتشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف .

٤ ـ دفع توهم ما ليس مرادا : مثل قوله تعالى **(ياايها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله)** (٥) قرىء « فامضوا

---

(١) انظر تفصيل ذلك في « النشر » ١/٥٢ و « الاتقان » ١/٨٢ و «مناهل العرفان » ١/١٣٨

(٢) سورة القارعة : ٥

(٣) سورة النساء : ١٢

(٤) سورة البقرة : ٢٢٢

(٥) سورة الجمعة : ٩

الى ذكر الله » فالقراءة الأولى توهم وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعه . ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم .

٥ ــ تحدى القرآن جميع العرب . فلو اتى بلغة دون لغة لقال الذين لم يات بلغتهم : لو اتى بلغتنا لأتينا بمثله .

٦ ــ ان وجود القراءات حمل النحويين على توجيهها ، فأغنى هـذا التوجيه العربية . قال الزركشي : (وقد اعتنى بتوجيه القراءات الأئمة ، وافردوا فيه كتبا . منهـا كتاب « الحجة » لأبي علي الفارسي وكتـاب « الكشف » لمكي وكتاب « المحتسب في توجيه الشواذ » لابن جني)[1] .

٧ ــ ومن فوائد تعدد القراءات اظهار سر الله في كتابه وصيانته له عن التبديل والاختلاف مع كونه على هذه الاوجه الكثيرة .

القراء العشرة ورواتهم :

القراء العشرة هم القراء الذين عني العلماء بنقل قراءاتهم وهم عـلى قسمين :

* سبعة اختارهم ابن مجاهد .
* وثلاثة اختارهم ابن الجزري فكملوا العشرة .

وسنورد فيما يأتي اسماء هؤلاء القراء واسماء رواتهم وسنوات وفياتهم في جدولين نلحق بكل منهما بعض الملاحظات :

١ ــ جدول باسماء القراء السبعة ورواتهم :

القارئ	راوياه
١ ــ نافـع بن عبد الرحمن المدني (ت ١٦٩)	وراوياه هما : ١ ــ قالون : عيسى بن ميناء ت ٢٢٠ . ٢ ــ ورش : عثمان بن سعيد ت ١٩٧

---

(١) « البرهان » ١/٣٣٩ و « الاتقان » ١/٨٢ ــ ٨٣ وقد حقق « الكشف » مؤخرا الدكتور محي الدين رمضان ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق .

القارئ	الراويان
٢ ــ عبد الله بن كثير المكي (ت ١٢٠)	وراوياه هما : ١ ــ قنبل : محمد بن عبدالرحمن ت بعد ٢٨٠ ٢ ــ البزي : احمد بن محمد ت ٢٤٠
٣ ــ ابو عمرو بن العلاء البصري (ت ١٥٤)	وراوياه هما : ١ ــ الدوري : حفص بن عمر ت ٢٥٠ ٢ ــ السوسي : صالحبنزياد ت ٢٦١
٤ ــ عبد الله بن عامر الشامي (ت ١١٨)	وراوياه هما : ١ ــ ابن ذكوان : عبد الله بن احمد ت ٢٤٢ ٢ ــ ابن عمار : هشامبنعمار ت ٢٤٥
٥ ــ عاصم بن ابي النجود الكوفي (ت ١٢٧ هـ)	وراوياه هما : ١ ــ شعبة بن عياش ت ١٩٤ ٢ ــ حفص بن سليمان ت قريباً من ١٩٠
٦ ــ حمزةبن حبيب الزيات الكوفي (ت ١٥٦)	وراوياه هما : ١ ــ خلف بن هشام البزار ت ٢٢٩ ٢ ــ خلاد بن خالد ت ٢٢٠
٧ ــ علي بن حمزة الكسائي الكوفي (ت ١٨٩)	وراوياه هما : ١ ــ الدوري : (انظره عند ابي عمرو ابن العلاء) ٢ ــ الليثبنخالدابو الحارث ت ٢٤٠

الملاحظات حول القراء السبعة :

١ ــ ان هؤلاء القراء السبعة من امصار العلم المعروفة التي انبثق منها علم النبوة ــ كما يقول ابن تيمية ــ وهي : مكة والمدينة ، والكوفة والبصرة ، والشام ، ويلاحظ من معرفة احوال هؤلاء القراء ان حظ الكوفة اكبر من غيرها من الامصار اذ كان منها ثلاثة من سبعة وهم : عاصم وحمزة والكسائي .

٢ ــ ان هؤلاء القراء جميعا كانوا من رجال القرن الثاني الهجري ، ادرك معظمهم القرن الأول ، وتلقوا عن الصحابة ، ولذلك فقد كان معظمهم

من التابعين ، واولهم وفاة هو ابن عامر توفي سنة ١١٨ وآخرهم وفاة الكسائي توفي سنة ١٨٩ .

٣ ـ ان هؤلاء القراء من الموالي باستثناء قارئين وهما ابو عمرو بن العلاء وعبد الله بن عامر .

٤ ـ ان هؤلاء القراء جميعا كانوا من المعمرين الذين اتيح لهم ان يقرئوا الناس القرآن مدة طويلة ، وتخرجت عليهم اجيال .

٥ ـ ان هؤلاء القراء كانوا جميعا من العلم والورع والاستقامة والخلق بالمكان الأسمى .

٦ ـ يلاحظ ان بعض القراء تلقى رواتهم القراءة عنهم مباشرة ، وبعضهم تلقى الرواة المذكورون القراءة عنهم بالواسطة .

ب ـ جدول بأسماء القراء الثلاثة المكملين للعشرة :

القارئ	وراوياه هما :
١ ـ ابو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (ت ١٣٠)	١ ـ عيسى بن وردان (ت ١٦٠) ٢ ـ سليمان بن حجاز (ت بعد ١٧٠)
٢ ـ يعقوب بن اسحاق الحضرمي البصري (ت ٢٠٥)	١ ـ رويس محمد بن المتوكل (ت ٢٣٨) ٢ ـ روح بن عبد المؤمن الهذلي (ت ٢٣٥)
٣ ـ خلف بن هشام البزار البغدادي (ت ٢٢٩) وانظره عند حمزة الكوفي في الجدول السابق .	١ ـ اسحاق بن ابراهيم بن عثمان الوراق (ت ٢٨٦) ٢ ـ ادريس بن عبد الكريم الحداد (ت ٢٩٢)

الملاحظات حول القراء الثلاثة :

١ ـ هؤلاء القراء الثلاثة من رجال القرن الثاني الهجري فآخرهم وفاة توفي بالربع الثاني من القرن الثالث الهجري .

٢ ـ يلاحظ ان في هؤلاء القراء من ينتسب الى المدينة والبصرة بالاضافة الى خلف الذي كان راويا لحمزة الكوفي .

٣ ـ كذلك كان هؤلاء القراء الثلاثة من الفضل والتقوى والمعرفة بمكانة عالية شأنهم شأن سابقيهم .

* * *

القسم الثاني

التفسير واتجاهاته

كلامنا عن التفسير سيكون في أبواب ثلاثة : واحد في اصوله وآخر في تاريخه وثالث في اتجاهاته .

ونقدم بين يدي كلامنا هذا بحثاً في التفسير لغة واصطلاحاً والفرق بينه وبين التأويل .

التفسير :

ـ التفسير في اللغة : الايضاح والتبيين . ووزنه تفعيل من الفسر ، وهو البيان والكشف . قال الله تعالى : **(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق واحسن تفسيراً)** (١) .

ـ التفسير في الاصطلاح : هو علم يفهم به كتاب الله وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه وقد يدعى التفسير تأويلا .

التفسير والتأويل :

اختلف العلماء في تحديد معناهما :

فقال قوم : إنهما بمعنى واحد . وقال آخرون : التفسير أعم من

---

(١) سورة الفرقان : ٣٣

التأويل لأنه يستعمل في الكتب الالهية وغيرها ، وأما التأويل فأكثر مايستعمل في الكتب الالهية(١) ، تقول : فسرت الكلمة الواردة في بيت الشعر ، ولا تقول : أولت ذلك .

وقالوا : أكثر مايستعمل التفسير في الألفاظ والمفردات ، أما التأويل فأكثر مايستعمل في المعاني والجمل(٢) .

وقد حقق شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله القول في كلمة (التأويل) في استعمال السلف والمتأخرين تحقيقاً جيداً ننقل فحواه فيما يأتي :

ـ قرر ـ رحمه الله ـ ان السلف استعملوا هذا اللفظ في معنيين :

* احدهما : تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً .

* وثانيهما : هو نفس المراد بالكلام فان كان الكلام طلباً كان تاويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به .

وقرر أن (التأويل) في عرف المتاخرين هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به كقولهم : هذا الحديث مؤول. اي مصروف عن كذا محمول على غيره . ولا بد من دليل يعتمده المؤول(٣).

وقد اورد السيوطي في « الاتقان » نقولا كثيرة عن العلماء في التفريق بينهما (٢) .



---

(١) نقل ذلك الزركشي في « البرهان » والسيوطي في « الاتقان » عن الراغب ، ولم اجده في كتابه « المفردات » انظر « الاتقان » ١٧٣/٢

(٢) « الاتقان » ١٧٣/٢

(٣) انظر « مجموع فتاوى ابن تيمية » ٢٨٣/١٣

الباب الأول

أصول التفسير

اصول التفسير مبحث مهم تفرقت موضوعاته في مقدمات بعض المفسرين وفي كتب اصول الفقه . ومن اشهر الذين افردوه من المتقدمين ابن تيمية في رسالة خاصة طبعت بعنوان « مقدمة في أصول التفسير » ، وافرده بالتأليف من المتأخرين العلامة الشيخ عبد الحميد الفراهي من علماء الهند وترك رسالة عنوانها : « التكميل في أصول التأويل » يقول في مقدمتها : (ولم نحتج الى تأسيس هذا الفن لترك العلماء اياه بالكلية ، فانك تجد طرفا منه في أصول الفقه ولكنه غير تمام(1)) .

والبحث في اصول التفسير ما زال متسعاً لمزيد من الدراسة والتاليف . وسنلمس هذا المبحث لمسات تتناول النقاط الثلاث الآتية :

١ ـ سنذكر اولا العلوم التي لابد من تحصيلها ليتسنى لنا أن نفسر القرآن .

٢ ـ كما نذكر ما يشترطه العلماء عادة في المفسر .

٣ ـ ونشير الى أهم القواعد التي هي قواعد اصول التفسير .

* * *

اولا : العلوم التي يحتاج اليها المفسر عديدة اهمها :

١ ـ اللغة والاشتقاق : لأننا باللغة نعرف معاني المفردات ، وفهم حقائق الالفاظ المفردة يكون باستقصاء المعاني التي دلت عليها هذه الكلمة في آيات القرآن . ولا بد للوصول الى هذا المقصد من الاطلاع على معاني المفردات زمن التنزيل ، إذ كلما استطعنا تحديد مدلول هذه الكلمة في ذاك الزمن كنا اقدر على فهم معنى الكلمة المراد :

---

(1) « التكميل في اصول التأويل » ص ١

قال مجاهد :

« لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ان يتكلم في كتاب الله إذا لم **يكن عالماً بلغات العرب**(١) » .

ومما يتصل بمعرفة المفردات معرفة المترادف والمشترك وما الى ذلك من انواع اللغة . وكـذلك فان معرفة الاشتقـاق تعين على الفهم الدقيق للآية .

٢ ـ النحو والصرف : لان فهم المعنى يتوقف في أحيان كثيرة على معرفة الاعراب ، ويقع الذين يجهلون هذين العلمين ويتصدون للتفسير في اغلاط شنيعة كما حدث لبعضهم في شرح الآية : (**يوم ندعو كلّ اناس بإمامهم**(٢) فقد فهموا الامام انه جمع أم ، وان الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم دون آبائهم قال الزمخشري : (وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف. **فان (اما) لاتجمع على (إمام)**(٣) .

٣ ـ الأدب وعلوم البلاغة : ذلك لان مراعاة مايقتضيه الاعجاز امر لازم في التفسير ، فلا بد من اشارة الى نواحي الجمال الفني في الآيـة وتحليلهـا .

ومن اجل ذلك كله كان التذوق الادبي امراً ضرورياً لكل من يتصدى للتفسير ، ولا ينمو هذا التذوق إلا بعد طول معاناة لكلام البلغاء وقراءة آثارهم وحفظ مختارات منها ، واطلاع على نتاج النقاد ، ودراسة للشعر والرسائل والخطب واشتغال بالكتابة ، قال الزمخشري :

(من حق مفسر كتاب الله الباهر ، وكلامه المعجز ، ان يتعاهد بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدي سليماً من القادح)(٤) .

---

(١) « الاتقان » ١٨١/٢
(٢) سورة الاسراء : ٧١
(٣) انظر « الاتقان » ١٨١/٢
(٤) « الاتقـان » ١٨١/٢

٤ ــ علوم القرآن : ذلك لان معرفة هذه العــلوم من اهم الادوات التي لابد منها لعملية التفسـير .

فمعرفة اسباب النزول تساعد مـساعدة فعالة على فهم الآيـات الفهم الصحيح الدقيق ، ويجنبه اغلاطاً كان من المحتمل ان يقع فيها .

وكذلك فان معرفة المكي والمدني امر اساسي في ادراك معنى الآيات، ولنأخذ على ذلك مثلا آيات الجهاد : فاننا ــ عندما نعرف المكي والمدني منها ــ نتصور الجهاد على الوجه الصحيح السليم . .

وكذلك فان معرفة الناسخ والمنسوخ لها اهميتها القصوى في تفسير الآيات التي تقرر حكمين مختلفين في موضوع واحد .

وكذلك فان المحكم والمتشابه من الأمور الاساسية في التفسير . حتى نتخلص من عناء الدخول في متاهات المتشابه ، ولنصرف جهدنا وطاقاتنا في تفسير المحكم .

٥ ــ علم اصول الدين والتوحيد : وذلك لان هذا الكتاب الكريـم ــ كما سبق ان اسلفنا ــ يتضمن نظرة جديدة الى الكون والحياة والانسان متمثلة في العقيدة الاسلامية ، فادراك اصول هذه العقيدة يساعد مساعدة تامة في شرح الآيات الكريمة المتعلقة بذلك .

٦ ــ علم اصول الفقه : لاننا بواسطة هذا العلم نستطيع ان نعرف استنباط الاحكام من النص ، ووجه الاستدلال على الاحكام .

ولعل هذا العلم من اهم العلوم التي نستفيد منها في قواعد اصول التفسير .

٧ ــ الحديث النبوي والفقه والسيرة : .

اما الحديث ففيه تفسير لعدد من آيات القرآن ، إذ كانت مهمة النبي صلى الله عليه وسلم الأولى تبيان مانزل إليه ، وفيه تفصيل للمجمل وبيان للمبهم .

واما الفقه الاسلامي فانه يعرض الأحكام الاسلامية التي ذكرها القرآن مبوبة مجموعة . فيساعد استحضارها على تصور دقيق لمعاني آيـات الأحكـام .

واما السيرة ففيها تجلية لكثير من الآيات ، وذلك كما في آيات آل عمران التي تتحدث عن غزوة احد .

٨ ـ علوم اخرى : كالعلوم الاجتماعية والعقلية والكونية وما يتصل بالثقافة العامة ، فالتاريخ والجغرافيا والاجتماع وعلم النفس والفلك .. كل هذه العلوم مما يساعد على تفسير القرآن تفسيراًيتصل بحياةالناس.

* * *

ثانياً : الشروط التي يشترطها العلماء في المفسر : ونستطيع ان نقسمها إلى ثلاثة اقسام :

١ ـ شروط علمية : تتلخص باتقان المفسر قدراً جيداً من العلوم التي ذكرناها آنفا .

٢ ـ شروط عقلية : وهي أن يكون المفسر موهوباً ذا قدرات عقلية ممتازة ، قوي الاستدلال حسن الاستنباط ، قادراً على الترجيح إن تعارضت الأدلة ، عارفاً اختلاف الاقوال على حقيقته ، إذ كثيراً مايكون الاختلاف اختلاف تنوع لااختلاف تضاد[١] .

٣ ـ شروط دينية وخلقية : وهي ان يكون صحيح العقيدة ، مؤدياً للواجبات الدينية ، ملتزماً الآداب والأخلاق الاسلامية التي دعا اليها الاسلام وان يكون محرراً من سلطان الهوى ، شديد الخشية لله .

* * *

ثالثاً : قواعد اصول التفسير :

وسنقتصر على الاشارة الى اهمها ، لانني ارى ان محل ذكرها كتب اصول التفسير ذاتها . قال الفراهي :

---

(١) وقد فصل ابن تيمية هذا في رسالته تفصيلا حسنا انظر ص ٣٨ من رسالة ابن تيمية و ص ١٣٩ من هذا الكتاب .

(وهذه الأصول تقسم الى قسمين : الأول مايعصم عن الزيغ في التاويل ، والثاني ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله)[1] .

* ومن اهم الأصول التي يجب مراعاتها ان تكون خطوات التفسير متدرجة كما يلي :

١ ــ تفسير القرآن بالقرآن :

لاننا نجد احياناً ان ما اجمل في موضع قد فصّل في موضع آخر كما سنذكر ذلك بالتفصيل في موضعه إن شاء الله .

٢ ــ تفسير القرآن بالسنة :

لأنها الشارحة للقرآن الموضحة له .

٣ ــ ما قاله الصحابة لأنهم شاهدوا من القرائن والأحوال التي رافقت نزول القرآن مايجعل فهمهم ادق واتم ، ولأن لغة القرآن هي لغتهم يدركون من اسرارها بالفطرة مالا يدركه المتاخرون بالتعلم .

* ومن القواعد ما يذكره الأصوليون من انّ صيغة الأمر إذا جاءت بعد حظر دلت على الاباحة وذلك كقوله تعالى في سورة الجمعة : (**وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون • فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**)[2] .

فقوله تعالى (انتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) إنما هو للاباحة لا للوجوب .



(١) « التكميل في أصول التاويل » ص ١٣

(٢) سورة الجمعة : ٩ ــ ١٠

الباب الثاني

تاريخ التفسير

سنلم في فصول هذا الباب الماما سريعة بتاريخ التفسير ، نستعرض نشوءه أيام النبي صلى الله عليه وسلم ونحوه في عهد الصحابة والتابعين ، ثم نتحدث عن توسعه فيما بعد ذلك حتى ننتهي في استعراضنا الى العصر الحديث وسنقسم كلامنا حول تاريخ التفسير الى اربعة فصول :

الفصل الأول

التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

القرآن كتاب عربي مبين ، نزل على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليبلغه قومه العرب الفصحاء البلغاء ، فلم يستغلق فهمه بالاجمال على معظمهم ، إذا استثنينا ماتشابه منه (**هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وآخر متشابهات ، فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله**)[1] .

فهمه العرب ، وكان سبباً في دخول عدد كبير منهم في الاسلام ، ولكن معاني القرآن لاتحد ولا يحاط بها ، ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم اكثر الخلق فهماً لهذا الكتاب كان من مهماته الأساسية أن يبين للناس مانزل اليهم ، قال تعالى : (**وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزّلَ إليهم**)[2] .

والقرآن يحوي – كما سبق أن أشرنا لذلك – نظرة إلى الحياة والكون والانسان جديدة على العرب ، ومن أجل ذلك فهم محتاجون الى مزيد من الشرح والبيان لها حتى يقفوا عليها ، ويعوها حق الوعي ، لاسيما

---

(١) سورة آل عمران : ٧

(٢) سورة النحل : ٤٤

وان في القرآن المجمل . والعام . والمشكل ، وبعض المفردات التي لايفهمها بعضهم ، فقد كان بعض الصحابة يكتفي بفهم المعنى الاجمالي لآياتالقرآن ويؤخذ بسحرها وجمالها ، واننا لنقرأ في اخبارهم ان رجلا كعمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يعرف معنى كلمة (الأب) في قوله تعالى : **(وفاكهة وأبا)**(1) ونقرأ أن ابن عباس لم يعرف معنى كلمة (فاطر) حتى سمع اعرابياً يوردها في جملة : أخرج أبو عبيد في « الفضائل » من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : كنت لاأدري ما فاطر السموات حتى اتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : انافطرتها . يقول : انا ابتدأتها(2).

ونقرأ أن عدي بن حاتم فهم الخيط الأبيض والخيط الأسود بالمعنى المادي ، فجاء بعقالين احدهما ابيض والآخر اسود ، وظن انه مالم يتبينا فللانسان الصائم ان يأكل ويشرب . فهم ذلك من قوله تعالى : **(وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود)**(3) .

إذن فقد كان الصحابة يتفاوتون في فهم القرآن تبعاً لما يأتي :

١ - يتفاوتون تبعاً لمواهبهم .
٢ - يتفاوتون تبعاً لاطلاعهم على لغتهم وادبها .
٣ - يتفاوتون تبعاً لمعرفتهم أسباب النزول .

وهكذا فان كثيراً من مواضع القرآن كانت تثير بعض الأسئلة عند بعض الصحابة فيتوجهون بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان يسأل بعضهم بعضاً عن معاني المفردات الغامضة والآيات بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .



* * *

---

(1) سورة عبس : ٣١ وهذا الخبر مروي عن أبي بكر ايضا وانظر « الاتقان » ١١٢/١

(2) « الاتقان » ١١٣/١ وانظر كلامنا على التفسير اللغوي . ص ١١٣ وانظر « البرهان » للزركشي ١٦٢/٢ و « تأويل مختلف الحديث » ص ٢٠ و « الباعث على الخلاص » ١٤٩

(3) سورة البقرة : ١٨٧ وانظر الخبر في « صحيح البخاري » ٢٢/٦

الفصل الثاني

التفسير في عهد الصحابة

كانت مادة التفسير في عهد الصحابة قائمة على ما يأتي :

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن : وسنتحدث عن ذلك مفصلا عند كلامنا على التفسير بالمأثور .

٢ ـ ما كان يحفظه الصحابة من تفسيرات النبي صلى الله عليه وسلم : وقد نقلت لنا كتب السنة ما كان الصحابة يحفظونه من تفسير رسول الله لبعض الآيات .

اما كمية مافسره النبي صلى الله عليه وسلم وتناقلته الصحابة فمختلف بها عند العلماء . فمنهم من يذهب إلى انه صلى الله عليه وسلم فسر القرآن كله . ومنهم من يذهب إلى أن الذي فسره قليل جداً . والحق في الوسط فليس مافسره النبي صلى الله عليه وسلم قليلا ، فهذه ابواب التفسير في كتب السنة حافلة . كما انه لم يستوعب القرآن كله .

٣ ـ ما كانوا يستنبطونه من الآيات : وكان يعتمد ذلك على قوة فهمهم وسعة إدراكهم ، وعلى معرفتهم بأوضاع اللغة واسرارها . واحوال الناس وعاداتهم في جزيرة العرب .

٤ ـ ماكانوا يسمعونه من انباء اهل الكتاب الذين دخلوا في الاسلام وحسن اسلامهم . وهذا المصدر تجده اكثر ماتجده في قصص الأنبياء ، وهو مصدر بسيط .

* * *

ومن المفيد أن نذكر اشهر الصحابة في التفسير :

اشهرهم عشرة هم :

١ ـ عبد الله بن عباس
٢ ـ عبد الله بن مسعود
٣ ـ علي بن أبي طالب
٤ ـ أبي بن كعب
٥ ـ ابو بكر الصديق
٦ ـ عمر بن الخطاب
٧ ـ عثمان بن عفان
٨ ـ زيد بن ثابت
٩ ـ ابو موسى الأشعري
١٠ ـ عبد الله بن الزبير

وأهم هؤلاء في التفسير الأربعة الأوائل . وقد رتبتهم حسب أهميتهم في التفسير وكثرة ممارستهم له ، فأوسع الصحابة اشتغالا بالتفسير هو عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

ابن عباس :

هو عبد الله بن عباس الذي كان يلقب بحبر الأمة ، ولد قبل الهجرة ثلاث سنوات ، وغزا في افريقية ، وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ ، وكان من العلماء الكبار في التفسير وكان ذلك ببركة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ، وبنشأته في بيت النبوة ، وملازمته الصحابة ، ومعرفته للعربية وآدابها والوقوف على اسرارها . وبسبب جمعه عدداً من المزايا التي قل أن تجتمع في واحد من الذكاء النادر ، والذهن الجوال . والقريحة الوقادة ، والراي الصائب، والدين المتين ، والايمان الراسخ . وقد اثنى عليه ابن مسعود وكان يقول : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس »[1] .

وقد كثرت الروايات عن ابن عباس كثرة كبيرة .

وهناك طرق عديدة نقلت عن ابن عباس ، وهي متفاوتة في القوة . وقد ذكر بعضها السيوطي في « الاتقان » وسأقتصر على ذكر طريقين قويتين ، وطريق واهية .

* اجود الطرق هي طريق معاوية بن صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس . وابن ابي طلحة غالبا يروى عن مجاهد عن ابن عباس وهذه الطريق اعتمدها البخاري ومسلم واحمد واصحاب السنن .

* وهناك طريق اخرى صحيحة وهي : قيس بن مسلم الكوفي ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين ويعتمدها الحاكم في « مستدركه » .

(1) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في « كتاب العلم » ص ١٢٠ رقم الحديث ٤٨ . وقال الشيخ ناصر الالباني في تعليقه عليه : والسند اليه صحيح على شرط الشيخين) . وأخرجه ابن كثير في مقدمة « تفسيره » ٤/١ وقال : فهذا اسناد صحيح الى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة ٣٢ وعمر بعده عبد الله بن عباس ستا وثلاثين سنة . فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود .

* اما الطريق الواهية الضعيفة فهي :

محمد بن السائب الكلبي ، عن ابي صالح[١] ، عن ابن عباس .
وممن يروى عن الكلبي محمد بن مروان السدي الصغير .

قال السيوطي : فان انضم الى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب[٢] .

اما تفسير ابن عباس المطبوع بعنوان « تنوير المقباس من تفسير ابن عباس »[٣] والذي جمعه الفيروز ابادي صاحب « القاموس » فإن روايته كلها تدور حول الشخص الذي ذكرناه قبل قليل وهو : محمد بن مروان السدي الصغير ، ومن اجل ذلك فلا يطمأن بحال من الأحوال إلى ماورد في هذا الكتاب .

* * *

وشأن عبد الله بن مسعود وعلي بن ابي طالب وابي بن كعب شأن كبير في التفسير ولا نستطيع ان نفصل القول في ذلك ، فنكتفي بما أوردناه عن عباس رضي الله عنهم جميعا .

وليس هؤلاء الصحابة المذكورون هم الذين اشتغلوا بالتفسير فقط ، بل إن عددا كبيرا من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يفسرون في بعض الأحيان ، ولكن هؤلاء الذين نوهنا بهم هم المكثرون . وقد انتشروا في الآفاق .

* * *

---

(١) محمد بن السائب الكلبي كذاب ساقط سيىء ، وقد نقل سفيان الثوري عنه انه قال : ماحدثت عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب فلا ترووه . مات سنة ١٤٦ . وأما أبو صالح المعروف بباذان فاكثر علماء الرجال يطعن فيه ومن اعتدل قال : ليس به بأس واذا روى عنه الكلبي فليس بشيء . وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس .

(٢) « الاتقان » ١٨٩/٢

(٣) طبع في مصر في المطبعة الازهرية سنة ١٣١٦ هـ وبهامشه « أسباب النزول » للسيوطي و « الناسخ والمنسوخ » لابن حزم وقد طبع طبعات اخرى انظر « معجم المطبوعات » ١٥٨/١

قيمة تفسير الصحابة(١) :

ننظر في التفسير المنقول عن الصحابة :

١ ـ فان كان مرفوعا الى النبي (صلى الله عليه وسلم) فهو حديث ؛ له حكم الحديث اي يكون حجة ان صح سنده .

٢ ـ وان لم يكن مرفوعا ننظر فيه فان كان متعلقا بأسباب النزول او بما لايكون من قبيل الراي والاجتهاد اعطي حكم المرفوع وكان حجة ان صح سنده .

٣ ـ اما اذا كان من قبيل الاجتهاد والاستنباط او ليس متعلقا بأسباب النزول كان موقوفا على الصحابي . وقد اختلف العلماء بالنسبة إلى الموقوف هذا : فمنهم من يقول : إنه راي لا يلزم ومنهم من يقول : انه راي يلزم .

قال الزركشي في « البرهان »(٢) :

ينظر في تفسير الصحابي فان فسره من حيث اللغة فهم اهل اللسان. فلا شك في اعتماده ؛ وان فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه .

وجاء في مقدمة « تفسير ابن كثير »(٣) :

« اذا لم نجد التفسير في القرآن ، ولا في السنة رجعنا في ذلك الى اقوال الصحابة فانهم ادرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والاحوال التي اختصوا بها ؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم » .



---

(١) وسنذكر هذا التفسير مرة اخرى في التفسير بالمأثور .

(٢) « البرهان » ١٧٢/٢

(٣) « تفسير ابن كثير » ٢/١

ويتحصل من ذلك ان التفسير المروي عن الصحابي إن كان متعلقاً باسباب النزول او بما لا يمكن ان يكون من قبيل الراي والاجتهاد كان ملزماً، وكذلك ان كان تفسيرا يعتمد على اللغة التي هم ادرى الناس بها فهو ملزم ايضاً .

اما الشيء الذي ليس داخلا فيما ذكرناه فهو بشكل عام غير ملزم . وينظر الى كل راي على حده .



الفصل الثالث

التفسير في عهد التابعين

جاء التابعون فنقلوا روايات التفسير عن الصحابة . وزادوا فيها ما استنبطوه بأنفسهم . وما زال التفسير يتضخم في عهدهم حتى اجتمع منه الشيء الكثير .

ولكن هذه الاقوال في التفسير لم تكن مجموعة ولا مرتبة بشكل منظم وفق ترتيب المصحف . بل كانت تروى منثورة تفسيرا لآيات متفرقة بين روايات لا علاقة لها بالتفسير ؛ أي إن التفسير كان مختلطا بالحديث غير مميز عنه .

وكان التابعون من أهل كل قطر يعنون برواية ما سمعوه وما ورد من التفسير عن الصحابي الذي يقيم في بلدهم .

* فاختص **المكيون** برواية ما ورد من التفسير عن ابن عباس . واشهر المكيين الذين قاموا بذلك مجاهد(١) وعكرمة(٢) وسعيد بن جبير(٣)
* واختص **المدنيون** برواية ما ورد من التفسير عن أبي بن كعب(٤) .

---

(١) هو مجاهد بن جبر المكي ، المخزومي بالولاء ، ابو الحجاج ؛ ولد سنة ٢١هـ شيخ القراء والمفسرين ، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وكان من ائمة الحديث والفقه وكان ثقة عابدا مجمعا على فضله . توفي سنة ١٠٤ هـ .

(٢) هو عكرمة مولى ابن عباس ، أبو عبد الله المدني البربري ؛ ولد سنة ٢٥ هـ اثنى عليه ابن عباس فقال : ما حدثكم عكرمة عني فصدقوه فانه لم يكذب علي . توفي سنة ١٠٥ هـ .

(٣) هو سعيد بن جبير ، الاسدي بالولا ، تابعي من كبار العلماء ، أخذ عن عبد الله ابن عباس ، وقتله الحجاج بواسط سنة ٩٥ هـ .

(٤) هو الصحابي الجليل أبي بن كعب بن قيس الانصاري الخزرجي ، سيد القراء ، شهد بدرا والمشاهد كلها . وكان من كتبة النبي صلى الله عليه وسلم وكان من اصحاب الفتيا . يسأله عمر عن النوازل ويرجع اليه في المعضلات ، توفي بالمدينة سنة ٢١ هـ .

واشهر المدنيين الذين قاموا بذلك : أبو العالية(١) ، وزيد بن أسلم(٢).

* وعني التابعون الكوفيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن مسعود .

واشهر الكوفيين الذين قاموا بذلك : علقمة بن قيس(٣) وابراهيم النخعي(٤) والشعبي(٥) .

وهذه المدارس الثلاث أهم مدارس التفسير عند التابعين .

* * *

قيمة تفسير التابعين :

اختلف العلماء في الأخذ بأقوال التابعين في التفسير . فمنهم من ذهب إلى الأخذ بأقوالهم . ومنهم من لم ير ذلك .

يروى عن ابي حنيفة انه قال : (ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الراس والعين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال) .

---

(١) هو رفيع بن مهران ، ابو العالية ، البصري الفقيه المقرىء ، رأى ابا بكر ، وقرأ القرآن على أبي وغيره ، وسمع من عمر وابن مسعود وعلي وعائشة . وروى عنه قتادة وابو العلاء . كان ابن عباس يرفعه على سريره وقريش اسفل منه ويقول : هكذا العلم يزيد الشريف شرفا ويجلس المملوك على الاسرة . توفي سنة ٩٣ هـ .

(٢) هو زيد بن اسلم العدوي بالولاء المدني الفقيه المفسر ، ذكروا انه ترك كتابا في التفسير رواه ابنه عبد الرحمن . توفي سنة ١٣٦ هـ .

(٣) هو علقمة بن قيس ، أبو شبيل ، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، واشتهر بالقراءات ، وكان قوي الذاكرة . قال : ما حفظت وانا شاب فكأنما اقرؤه من ورقة . كان فقيه العراق ، وهو من أهل الكوفة ، توفي سنة ٦٤ هـ على الارجح .

(٤) هو ابراهيم بن يزيد النخعي الكوفي ، فقيه العراق ، روى عن بعض الصحابة . كان يصوم يوما ويفطر يوما . مات سنة ٩٥ هـ .

(٥) هو عامر بن شراحيل أبو عمرو الهمداني الكوفي ، من أكابر التابعين ، ولد في خلافة عمر ، سمع من ابن عمر ، وولي قضاء الكوفة . كان جوادا سريع الحفظ ، جريئا في الحق توفي سنة ١٠٣هـ .

وهذا القول يدل على اننا غير ملزمين باخذ اقوال التابعين فهم رجال ونحن رجال ــ كما يقول ابو حنيفة ــ وهذا القول هو الصواب .

اما القول الذي يلزم بالاخذ بما ورد عن التابعين فهو موضع نظر .. نعم اذا اجمع التابعون على راي فعندئذ يتوجب الأخذ به لأن اجماعهم يدل على وجود نص ملزم والله أعلم.

* * *

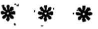
ملاحظــة :

يبدو في كثير من الروايات في المسألة الواحدة عن الصحابة او التابعين او عن صحابي واحد اختلاف او تعارض .

ولكن التعمق في هذه الأقوال يقنع بانها غير متناقضة ولا متعارضة وانها تعود الى اصل واحد . وبينها عموم وخصوص . وكثيراً ما بيّن ابن جرير في تفسيره انها غير متعارضة .

وقد نبه على مثل هذا الاختلاف الموهوم ابن تيمية في رسالته في اصــول التفسيــر[1] ونقلــه عنــه الشيخ طــاهر الجزائري بتلخيص جيد[2] فقال : (الخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ...) وقال ابن كثير : (يقع في عبارتهم ــ اي التابعين ــ تباين في الالفاظ يحسبها من لاعلم عنده اختلافاً فيحكيها اقوالا وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه او بنظيره ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في اكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي)[3] .

اما إذا لم نستطع التوفيق بينها . فينظر في أسانيدها ، فإن وجدت بدرجة من الصحة متقاربة نظر فيها واخذ ما يكون اقرب لنص الآيــة والله أعلم .



---

(1) « مقدمة في اصول التفسير » ص ٣٨

(2) « توجيه النظر » ص ٢

(3) « تفسير ابن كثير » ١/٥

الفصل الرابع

تاريخ التفسير فيما بعد عهد التابعين

هذا الفصل يتناول موضوع تاريخ التفسير خلال اثني عشر قرناً ، اي منذ منتصف القرن الثاني الهجري حتى العصر الحاضر ، وليس ذلك مما يتسع له وقت الدراسة ولا منهاجها ، ومن اجل ذلك ، فسنقتصر على ذكر خطوط عريضة في غاية الايجاز .

بعد عصر التابعين قام تابعو التابعين بجمع أقوال الصحابةوالتابعين في التفسير التي وصلت اليهم ، وغالباً ماكان أبناء القطر يجمعون أقوال من سكن قطرهم من الصحابة والتابعين .

ووجد اناس كانوا يرحلون الى الأقطار المختلفة ليجمعوا ما قيل في التفسير على انه باب من ابواب الحديث ، لأن هؤلاء الأئمة كانوا علماء في الحديث ، ومن الواضح أن الحديث كان يجمع العلوم الاسلامية كلها ، وكان التفسير من أهم أبوابه ، ويشبه الاستاذ أحمد أمين الحديث من حيث جمعه للعلوم بالفلسفة عند الاقوام الأخرى فيقول :

(وهكذا فمنزلة الحديث بالنسبة للعلوم الدينية كمنزلة الفلسفة للعلوم العقلية كانت الفلسفة شاملة لكل فروع البحث العقلي ، ثم أخذ ينفصل عنها علم النفس وعلم الطبيعة وعلم الاجتماع)(١) .

* * *

* ثم كانت بعد ذلك الخطوة الأخيرة وهي انفصال التفسير عن الحديث . واعتباره علماً قائماً بنفسه ، ووضعت التفاسير المستقلة لكل آيات القرآن مرتبة حسب ترتيب المصحف .

* * *



(١) « ضحى الاسلام » ٢/١٣٨

* ثم تأثر التفسير باتجاهات متعددة خلال العصور المختلفة ، وسنخص هذه الاتجاهات بباب طويل هو الباب الثاني ، وسيكون ذلك بمثابة استعراض تاريخي للتأليف في التفسير . ولا بد من ان يتأثر المفسر بالسمات العامة لعصره ، فالكتب التي ألفت في القرون الأولى حتى القرن الخامس تغلب عليها الأصالة ، بينما كتب المتأخرين يغلب عليها الجمع .

* * *

أما الكتاب الأول في مجال التفسير فهذا ما يزال مجال بحث ودراسة والشيء المؤكد ان القرن الأول الفت فيه بعض كتب التفسير ، ولكننا لا نستطيع الجزم في الاولية في هذا الموضوع ، وقد وصل الينا نبأ تأليف تفسير في وقت مبكر ، فقد قرانا في كتب الرجال والتراجم(١) ان عبدالملك ابن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ طلب من سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤هـ ان يكتب له تفسيراً للقرآن وان سعيداً هذا قد استجاب وكتب تفسيراً ، وقد وجده عطاء بن دينار المتوفى سنة ١٢٦ هـ .

وبناء على هذا الخبر فاننا نستطيع ان نقرر ان كتابا في تفسير القرآن كان موجودا قبل سنة ٨٦ هـ ولا يبعد أن يكون هذا الكتاب هو اول كتاب في التفسير ، والله أعلم .

* * *

أما القرن الثاني فيبدو انه كان حافلا بكتب التفسير :

فابن خلكان(٢) يذكر أن عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ هـ كتب تفسيرا للقرآن قدمه للحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ . وأخبار الكتب المؤلفة في هذا القرن مستفيضة .

---

(١) « الجرح والتعديل » لابن ابي حاتم ٣٣٢/٣ و « تهذيب التهذيب » ١٩٨/٧

(٢) « وفيات الاعيان » ٤٨٦/١ طبع بولاق

ولعل من اقدم ماوصل إلينا من كتب التفسير كتاب «معاني القرآن» للفراء المتوفي سنة ٢٠٧ هـ . وسنتحدث عنه بشيء من التفصيل فيما بعد ، وقد قوبل عمله باستحسان كبير لا سيما من الكوفيين ، فقد نقل ابن النديم في « الفهرست »(١) كلمة عن ثعلب يقول فيها :

(كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بكير من اصحابه وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل(٢) . فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني، فإن رأيت أن تجمع لي أصولا أو تجعل في ذلك كتاباً ارجع اليه فعلت . فقال الفراء لاصحابه : اجتمعوا حتى أمل عليكم كتاباً في القرآن وجعل لهم يوماً . فلما حضروا خرج إليهم ، وكان في المسجد ، رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة ، فالتفت اليه الفراء فقال له :

اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها ، ثم نوفي الكتاب كله . فقرأ الرجل ، ويفسر الفراء . فقال ابو العباس ثعلب : لم يعمل احد قبله مثله ولا احسب ان حداً يزيد عليه) .

ويبدو ان كلمة ثعلب إنما تعني الثناء على صنيع الفراء ، ولا تعني البدء بكتابة التفسير(٣) . يريد أن يقول : لم يسبقه بهذه الاجادة أحد . وتتمة الجملة تؤكد ذلك وهي (ولا احسب ان أحداً يزيد عليه) .

اذن فقد كانت هناك مؤلفات في التفسير قبل كتاب الفراء ، ولكن لم يصل إلينا إلا انباؤها .

* * *

وما زالت كتب التفسير تتوالى ، يستفيد المتاخر من الذين سبقوه .

(١) « الفهرست » ص ١٠٥

(٢) هو وزير المأمون ، واحد كبار القادة ، وهو والد بوران زوجة المأمون ، توفي سنة ٢٣٦ هـ .

(٣) وقد اخطأ الاستاذ أحمد امين عندما مال الى هذا الرأي انظر « ضحى الاسلام » ١٤١/٢ .

ويأتي بجديد في فهم كتاب الله ، وتدبر معانيه، حتى جاء ابن جرير الطبري، ووضع تفسيره الذي ضم كثيراً مما في الكتب التي ألفت في التفسير قبله على غالب الظن .

* * *

وهكذا يتبين لنا أن التفسير قد كتب في وقت مبكر ، ثم عندما ازدهر التدوين في القرنين الثاني والثالث كانت حركة نشيطة للتأليف في التفسير، وقد وصل إلينا كثير من هذه الآثار .

ودخلت في التفسير شوائب غريبة عنه من الأحاديث الموضوعة ؛ والاسرائيليات . وكانت على مر العصور غزارة في مؤلفات التفسير . وتنوع في مناهج المفسرين ، تبعاً للتنوع في اختصاص كل منهم . وقد حاول كل صاحب فن أن يجعل من تفسير القرآن مجالاً لإظهار براعته في فنه ، واضحى التفسير إطاراً يتبارى فيه المختصون في الشؤون العلمية المختلفة ليصبوا فيه المعلومات التي تتعلق باختصاصهم ، فالنحوي يكتب في التفسير فإذا تفسيره كتاب نحو ، والفيلسوف يكتب في التفسير فإذا تفسيره كتاب في علم الكلام ، والفقيه يكتب في التفسير فيخرج تفسيره كتاباً في الفقه ، والبلاغي يكتب في التفسير فيضحي تفسيره مرجعا في البلاغة ، والمحدث يكتب في التفسير فيكون كتاب تفسيره كتاب حديث . . .

وهكذا .. وما زال كل ذي موهبة وعلم يسهم في التفسير ويكشف عن شيء جديد من أسرار هذا الكتاب الكريم التي لا تنتهي .

الباب الثالث

اتجاهات التفسير

ظهرت اتجاهات متعددة في التفسير ، وغرضنا في هذا الباب بحث اهم هذه الاتجاهات ودراسة خصائصها ، وسنخص بالذكر والدراسة في كل اتجاه كتاباً هاماً من كتب التفسير يمثل هذا الاتجاه .

وقد أوليت الاتجاه اللغوي شيئاً من العناية مراعاة للمختصين باللغة العربية الذين كتبت لهم هذه المحاضرات .

أما هذه الاتجاهات التي سنفرد كل واحد منها بفصل في هذا الباب فهي الاتجاه اللغوي ، والتفسير بالأثر . والتفسير بالراي ، والتفسير العلمي ، والتفسير الاصلاحي ، وسنشير بعد ذلك في فصل واحد إلى اتجاهات اخرى مثل التفسير الموضوعي والفقهي والاشاري . وليس من شك في أن اهم هذه المدارس التفسيرية مدرستان قامتا منذ وقت مبكر هما مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالراي .

الفصل الأول

الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن

إن هذا الاتجاه من اقدم الاتجاهات التي وجدت في التفسير ، كما سنرى من استعراض كتب غريب القرآن وإعرابه . ولتيسير بحثه سنقسمه ثلاثة اقسام ، وان كانت هذه الأقسام متداخلة أحيانا :

١ ـ القسم الاول : مايتعلق بمفردات اللغة : وقد ترك لنا العلماء المتقدمون طائفة من المؤلفات عرفت بكتب غريب القرآن .

٢ ـ القسم الثاني : ما يتعلق بالنحو والقضايا الإعرابية .

٣ ـ القسم الثالث : ما يتعلق بالبلاغة والاساليب البيانية .

ولعل هذا الاتجاه بأقسامه هذه من أهم الاتجاهات التي تعنينا في دراستنا للتفسير لاتصالها بدراستنا الاختصاصية .

١ ـ القسم المتعلق بمفردات اللغة او (كتب غريب القرآن) :

في القرآن كلمات غريبة ، وهي اما أن يكون معناها غامضاً ، لا يفهم إلا بعد بحث وتنقيب وجهد ، واما أن يكون معناها معروفاً لدى قوم دون غيرهم ، لأنها مستعملة في لغتهم .

ويبدو ان وجود كلمات في القرآن لايعرف بعض الناس معناها امر قديم ، ففي اخبار الصحابة مايدل على ذلك ، وقد ذكرنا في مبحث التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ان عمر بن الخطاب لم يعرف معنى كلمة (الأب) .

قال السيوطي : (فهذه الصحابة وهم العرب العرباء ، واصحاب اللغة الفصحاء ، ومن نزل القرآن عليهم بلغتهم ، توقفوا في الفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا شيئاً ، فاخرج أبو عبيد في « الفضائل » عن إبراهيم التيمي : أن ابا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى : **(وفاكهة وابا)** (١) فقال : أي سماء تظلني ، وأي ارض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ؟ واخرج عن انس : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وابا) فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف ياعمر)(٢) والكتب التي عالجت إيضاح هذه المفردات دعيت بكتب غريب القرآن .

ويحسن ان نورد قول الخطابي الذي يشرح كلمة الغريب قال ابو سليمان الخطابي :

(الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم ، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل .

والغريب من الكلام يقال به على وجهين :

احدهما : أن يراد به انه بعيد المعنى غامضه ، لايتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر . والآخر : أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب ، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها)(٣) .

والتأليف في غريب القرآن قديم . وأول من يعزى إليه كتاب في غريب القرآن هو الصحابي عبد الله بن عباس . وكانت هناك ــ كما يذكر بروكلمان

---

(١) سورة عبس : ٣١

(٢) « الاتقان » : ١١٣/١ وانظر ص ١٠١ من هذه المذكرة .

(٣) « كشف الظنون » : ١٢٠٣/٢

ـ سخة من كتابه في برلين قبل الحرب العالمية الثانية . وتدور شكوك عديدة حول صحة نسبته إلى ابن عباس .

ويرى الاستاذ حسين نصار[1] ان هذا الكتاب كان يضم بعض الأقوال التي ادلى بها ابن عباس في تفسير الغريب من الفاظ القرآن ، وانه لم يكن هو الذي دونها في كتاب ، وإنما جمعها بعض رواة هذه الأقوال ، ويحتج لرايه هذا بأن احداً من مترجمي ابن عباس لم ينسب إليه مثل هذا الكتاب .

وذكر السيوطي في « الاتقان » ما رآه صحيحاً عنه فقال :

(واولى مايرجع إليه فيذلك ما يثبت عن ابن عباس واصحابه الآخذين عنه ، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالاسانيد الصحيحة الثابتة ، وها انا اسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس عن طريق ابن أبي طلحة خاصة فإنها من اصح الطرق عنه ، وعليها اعتمد البخاري مرتبا على السور)[2] ولا يبعد أن يكون احد العلماء استخرج هذه النقول ووضع لها عنواناً (غريب القرآن) لابن عباس .

وتذكر المصادر ان من العلماء المتقدمين الذين الفوا في هذا الموضوع أبان بن تغلب البكري المتوفى سنة ١٤١ هـ الذي دون كتابا في غريب القرآن ، وذكر ياقوت في « معجم الأدباء »[3] ان ابان كان يذكر في كتابه شواهد من الشعر ، فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمد الأزدي ، فجمع من كتاب ابان ومحمد بن السائب وابي روق عطية بن الحارث فجعله كتاباً ذكر ما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه .

وسنذكر فيما يلي اسماء نفر من العلماء المتقدمين الذين الفوا في غريب القرآن :

* منهم محمد بن السائب الكلبي الكوفي المتوفى سنة ١٤٦ هـ .
* ومنهم أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي البصري المتوفى سنة ١٧٤ هـ أو ١٩٠ هـ .

---

(1) « المعجم العربي » : ٤٤/١
(2) « الاتقان » ١١٤/١
(3) « معجم الادباء » ١٠٨/١

* ومنهم علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٢ هـ .
* ومنهم يحيى بن المبارك اليزيدي المتوفى سنة ٢٠٢ هـ .
* ومنهم النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٣ هـ .
* ومنهم قطرب محمد بن المستنير المتوفى سنة ٢٠٦ هـ .
* ومنهم يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .
* ومنهم ابو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ .
* ومنهم الاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١٦ هـ .
* ومنهم **ابو عبيد القاسم بن سلام** المتوفى سنة ٢٢٣ هـ ، وكتاب ابي عبيد صار هو القدوة في هذا الشأن ، فإنه أفنى فيه عمره ، حتى لقد قال : (إني جمعت كتابي هذا في اربعين سنة ، وربما كنت استفيد الفائدة من الافواه فاضعها في موضعها ، فكان خلاصة عمري) وبقي كتابه في ايدي الناس يرجعون إليه في الغريب إلى عصر ابن قتيبة(١) .

وجاء بعد ابي عبيد محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وثعلب احمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ والف كل منهم كتاباً في « غريب القرآن » وقد فقدت معظم هذه الكتب وسلم لنا كتاب ابن قتيبة الذي سنخصه بشيء من الحديث فيما يأتي :

غريب القرآن لابن قتيبة :

وابن قتيبة هو ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . ولد في الكوفة سنة ٢١٣ هـ ثم سكن بغداد ، واعتبره العلماء امام مدرسة بغداد النحوية ، ترك مؤلفات كثيرة قيمة ، من اهمها «عيون الاخبار» ، و «أدب الكاتب» . توفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ وكتابه من اهم كتب الغريب .

ـ ذكر في المقدمة انه قصر بحثه على غريب القرآن (دون تأويل مشكله إذ كنا قد افردنا للمشكل كتاباً جامعاً كافياً بحمد الله) .

---

(١) انظر « كشف الظنون » ١٢٠٤/٢ وانظر ايضا مقدمة « النهاية » لابن الاثير .

ـ واشار في هذه المقدمة إلى مراجعه وخطته بإزائها ، وذلك في قوله: (وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب اصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذهبهم ، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف اولى الاقاويل في اللغة ، واشبهها بقصة الآية ، ونبذنا منكر التأويل ومنحول التفسير) .

ـ ثم ذكر غرضه الذي امتثله في هذا الكتاب، ومنهجهفي تأليفه فقال: (وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا ان نختصر ونكمل ، وان نوضح ونجمل ، وان لا نستشهد على اللفظ المبتذل ، ولا نكثر الدلالة على الحرف المستعمل ، وان لا نحشو كتابنا بالنحو والحديث والأسانيد ، فإنا لو فعلنا ذلك في نقل الحديث لإحتجنا إلى ان نأتي بتفسير السلف رحمه الله عليهم بعينه ، ولو اتينا بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التي ألفها نقلة الحديث)[1] ثم يقرر انه لو نقل اقوالهم واختار منها اصحها في نظره . وأقام الدلائل عليه لأسهب في القول ، وأطال الكتا ب، وباعده من بغية التأدب .

ـ واورد في المقدمة نبذة عن التأويل المنكر والتفسير المنحول .

ـ اما كتابه فثلاثة اقسام :

١ ـ ذكر في القسم الأول منها اسماء الله الحسني ، وتأويلها واشتقاقها ، وقد استغرق هذا القسم من صفحة ٦ حتى صفحة ٢٠ . وقد ذكر ستة وعشرين لفظاً تتصل باسماء الله الحسني من امثال (الرحمن ، الرحيم ، السلام ، القيوم ...) .

٢ ـ وذكر في القسم الثاني الفاظاً كثر ترددها في القرآن الكريم ، وفسرها وقد استغرق هذا القسم من صفحة ٢١ حتى صفحة ٣٧ ، وقد ذكر اربعين لفظاً من أمثال (الجن ، الناس ، ابليس .. الأنفس) .

٣ ـ والقسم الثالث هو الغريب في القرآن ، وهو يشكل معظم الكتاب، ويستغرق من صفحة ٣٧ حتى ٥٤٤ وهي نهاية الكتاب .

---

(١) مقدمة « غريب القرآن » ص ٣

وقد جعل الغريب اقساماً وفقا للسور مرتبة على ترتيبها في المصحف.

ــ ومن الملاحظ ان ابن قتيبة اعتمد على كتابين من كتب القرآن المؤلفة قبله وهما: (كتاب « مجاز القرآن » لابي عبيدة، وكتاب « معاني القرآن » للفراء) اعتمد عليهما اكبر اعتماد، حتى انه في بعض المواطن كان ينقل لفظهما نفسه، ولم يكن مجرد ناقل لا شخصية له، بل انك لتحس بشخصيته واضحة، وقد ينتقد من ينقل عنه.

ــ وقد كان لهذا الكتاب اثر في الذين الفوا في التفسير والغريب من بعد.

ــ طبع هذا الكتاب اكثر من مرة. وطبع اخيرا في مطبعة البابي الحلبي طبعة جيدة بتحقيق السيد احمد صقر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٩٥٨ م. وعلى الكتاب تعليقات جيدة ووضع له فهارس نافعة. وهذه الطبعة هي التي اعتمدت عليها في هذه الالمامة.



غريب القرآن للسجستاني:

والسجستاني هو ابو بكر محمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠ هـ.

١ ــ وكتابه غريب القرآن يسمى ايضاً « نزهة القلوب ».

٢ ــ قال السيوطي في هذا الكتاب: (ومن اشهرها كتاب العزيزي، فقد اقام في تاليفه خمس عشرة سنة، يحرره هو وشيخه ابو بكر بن الانباري)(١) وذكر ابو البركات الأنباري: (أن السجستاني صنف كتابه في خمس عشرة سنة وكان يقرؤه على شيخه ابي بكر بن الانباري فكان يصلح له فيه مواضع) (٢).

---

(١) « الاتقان » ١١٢/١ وانظر « بغية الوعاة » ص ٧٣

(٢) « نزهة الالباء » ص ٢٨٦

٣ ـ مقدمته موجزة جداً . وهي بعد الحمدلة : « وبعد فهذا تفسير غريب القرآن ألف على حروف المعجم . ليقرب تناوله ، ويسهل حفظه على من أراده . وبالله التوفيق والعون » .

٤ ـ رتبه على حروف المعجم ، ولم يرجع الكلمة الى اصل مادتها . وإنما راعى نطقها مراعاة تامة . ولم يفصل بين الزائد والاصلي ، فمثلاً كلمة (أثقال) في باب الهمزة لا في باب الثاء .

٥ ـ قسم كل حرف من الحروف إلى ثلاثة أبواب : فمثلاً حرف الباء نجد فيه الأبواب الثلاثة الآتية :

(باب الباء المفتوحة) (باب الباء المضمونة) (باب الباء المكسورة) .

٦ ـ الكلمات في الباب لا يراعي فيها ترتيبها ، بل يراعى ورودها في المصحف وفي السور .

٧ ـ يستشهد المؤلف بأبيات من الشعر المحتج به .

٨ ـ يغلب على شرحه للألفاظ الغريبة الإيجاز ، وقد يقتصر في شرحه على كلمة واحدة .

٩ ـ اعجب به الباحثون واثنوا على مؤلفه واعتبروا أنه اجاد ، وقد شرح شواهده أبو العباس احمد بن عبد الجليل التدميري المتوفى سنة ٥٥٥هـ .

طبع هذا الكتاب أكثر من مرة : طبعه الأستاذ مصطفى عناني . وطبعه ايضاً محمد علي صبيح .

* * *

المفردات في غريب القرآن :

ويمثل هذا الكتاب الذروة في التأليف في الغريب .

ومؤلفه هو أبو القاسم الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الإصبهاني من رجال القرن الخامس والمتوفى سنة ٥٠٢ هـ كما رجح الزركلي في « الاعلام » (١) ترك مؤلفات عديدة منها « جامع التفاسير » و « حل متشابه القرآن » و « محاضرات الأدباء » .

---

(١) أورد الزركلي في الهامش أقوالا عدة في وفاته ويبدو أن حياته يكتنفها غير قليل من الغموض فقد اختلف في اسمه أيضا . (انظر « الاعلام » ٢/٢٧٩) .

وكتابه من اهم كتب الغريب وانفعها . وسنحاول التعريف به فيما يأتي:

ـ يبدو من مقدمته أن للمؤلف اشتغالاً بالدراسات القرآنية ، فقد ذكر فيها بعض رسائله عن القرآن .

ـ ذكر في المقدمة منهج كتابه فقال :

(وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى ، فيه مفردات الفاظ القرآن على حروف التهجي . فنتقدم ما أوله الألف ، ثم الباء . على ترتيب حروف المعجم . معتبراً فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزائد . والإشارة فيه إلى المناسبات التي بين الألفاظ . المستعارات منها والمشتقات. حسبما يحتمل التوسع في هذا الكتاب)(١) .

ـ اشار في المقدمة إلى اهمية معرفة مفردات القرآن لإدراك معاني الكتاب الكريم فقال :

(إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية .ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات القرآن .. لمن يريد أن يدرك معانيه ، كتحصيل اللبن في بناء ما يريد أن يبنيه . وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط ؛ بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع . فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم) (٢) .

ـ راعي في كتابه هذا المشتقات ، وتعد من أبرز خصائص هذا الكتاب النفيس هذه المراعاة التي بدت بوضوح في الكتاب كله .

ـ وقد يورد الاشتقاق الكبير أحياناً ، فمثلاً في مادة (فكر) قال :

(قال بعض الأدباء : الفكر مقلوب عن الفرك ، لكن يستعمل الفكر في المعاني ، وهو فرك الأمور وبحثها ، طلباً للوصول إلى حقيقتها) .

ـ راعي أيضاً دوران اللفظ في الآيات المختلفة ، وهذه خاصة ممتازة، ذلك لأن للقرآن الكريم في استخدام الفاظ اللغة العربية طريقة خاصة فتتبع

---

(١) « المفردات » ص ٤ طبعة المطبعة الميمنية .

(٢) « المفردات » ص ٢ طبعة المطبعة الميمنية .

المفردة في القرآن كله يساعد مساعدة تامة على فهم الكلمة فهماً سليماً صحيحاً(١) .

ـ التزم ايراد ما يؤخذ من اللفظ من مجاز وتشبيه .

ـ لم يورد في أقواله التي يسوقها اسماء لغويين ولا مفسرين إلا نادراً ، رغبة في الإيجاز .

ـ كتابه أشبه ما يكون بمعجم كامل للألفاظ القرآنية ، وليس مقتصراً على الغريب فقط . فهو يتناول معظم مفردات القرآن لاتكاد تفوته كلمة .

ـ ومن أهم خصائص هذا الكتاب انه يورد الفروق بين المعاني الدقيقة التي يظنها كثير من الناس سواء . فهو مثلاً يفرق بين الحمد والشكر والمدح(٢) : فقد قرر أن الحمد لله تعالى يعني الثناء عليه بالفضيلة ، وهو أخص من المدح ، وأعم من الشكر ، فإن المدح يقال فيما يكون من الانسان باختياره ، ومما يكون في الانسان بالتسخير ، فقد يمدح الانسان بطول قامته وصباحة وجهه ، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه . والحمد يكون في الثاني دون الاول . والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة . فكل شكر حمد ، وليس كل حمد شكراً . وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً .

ـ اهتم بالإتيان بشواهد من الحديث الشريف والشعر . أما استشهاده بالشعر فلبيان المعنى للكلمة ، لا للدلالة على أن الكلمة غريبة ، فقد ذكر في مادة (فلح) مثلا أن الفلاح الدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياةالدنيا ، وهو البقاء والغنى والعز ، وإياه قصد الشاعربقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضـ ... ـعف وقد يخدع الأريب

ـ طبع هذا الكتاب عدة طبعات في مصر : ففي سنة ١٣٢٤ هـ طبع بالمطبعة الميمنية على نفقة مصطفى البابي الحلبي ، وطبع على هامش «النهاية» في المطبعة الخيرية للسيد عمر الخشاب ، واعيد طبعه مؤخراً بتحقيق الأستاذ محمد سيد كيلاني .

---

(١) انظر « التفسير البياني » لبنت الشاطىء ١/١٤ و « دراسات في التفسير » لمصطفى زيد صفحة (ص) .

(٢) انظر ذلك في مادة « حمد » .

ملاحظـــة :

وفي ختام حديثنا عن القسم المتعلق بالمفردات نود ان نشير إلى «معجم الفاظ القرآن » الذي اصدره مجمع اللغة العربية بمصر وهو خليق بالدراسة .

* * *

٢ ـ القسم المتعلق بالنحو والقضايا الاعرابية :

كان التأليف في التفسير من زاوية النحو يساير التأليف في غريب القرآن الذي تقدم ذكره . ويبدو ان معظم العلماء الذين غلب عليهم الاشتغال بالنحو كانوا يضعون تفسيرا للقرآن الكريم ، لأن هذا الكتاب الكريم مدار بحثهم ، وعليه يعتمدون في تأييد القواعد ، فلا بد لهم مـن فهم آياتـه ، وتفسيرها ، وعرض وجهات نظرهم الاختصاصية خلال ذلك .

ومن اشهر من كتب في ذلك الإمام النحوي الكبير الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وابو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٦ هـ ، وثعلب احمد ابن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، ويحيى بن علي التبريزي المتوفى سنة ٥٠٨ هـ ، وعبد الرحمن بن محمد ابو البركات الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وغيرهم .

ونستطيع ان نصنف الكتب التـي درست القرآن من وجهـة النظر النحوية في زمرتين :

١ ـ كتب فسرت القرآن او المشكل منه ، وعنيت بالنحو . وسندرس كتابين من هذه الزمرة هما « معاني القرآن » و « البحر المحيط » .

٢ ـ كتب عرفت بكتب إعراب القرآن وهي كثيرة ، عرض لطائفة جيـدة منها صاحب « كشف الظنـون » ، والسيوطي في « الإتقـان » . وسدرس بعضها بعد قليل :

١ ـ من اقدم الكتب التي وصلت إلينا من كتب الزمرة الأولى ـ اي كتب التفسير المهتمة بالنحو ـ كتـاب « معاني القرآن » للفراء الـذي سنتحدث عنه فيما يلي :

كتاب « معاني القرآن » للفراء :

يذكرنا هذا الكتاب بكتب المعاني التي نجدها في جوانب الثقافة الإسلامية . فهناك كتب المعاني في الأبيات الشهيرة مثل « كتاب المعاني » لابن قتيبة . وهناك كتب المعاني في مشكل الحديث مثل كتاب «معاني الآثار» للطحاوي . وهناك كتب المعاني في القرآن مثل كتابنا الذي نحن بصدد دراسته الآن .

قال ابن الصلاح :

(وحيث رايت في كتب التفسير (قال أهل المعاني) فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج، والفراء - والأخفش ، وابن الأنباري) (١).

إذن فهناك عدد كبير من العلماء الاعلام قد الفوا في معاني القرآن ومن ابرزهم هؤلاء الذين ذكرهم ابن الصلاح .

ويبدو ان كتب المعاني هي النواة الأولى في التفسير ، والفرق بينها وبين كتب التفسير : ان كتب المعاني كانت تختار بعض الآيات لتجلو معناها . اما كتب التفسير فكانت تحاول الا تترك شيئاً من القرآن دون أن تشرحه .

اما أول من صنف في معاني القرآن فيذكر الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » انه ابو عبيدة معمر بن المثنى ، ثم قطرب بن المستنير ، وأول من صنف من الكوفيين الكسائي ثم الفراء . فجمع ابو عبيدة من كتبهم وجاء فيها بالآثار واسانيدها وتفاسير الصحابة والتابعين والفقهاء(٢) .

الفراء : اما الفراء فهو أبو زكريا ، يحيى بن زياد الفراء الديلمي ، من موالي بني اسد . أخذ عن الكسائي ، وكان إماما ثقة ذا حظوة عند المأمون ، وقد عهد إليه بتعليم ابنيه النحو ، واقترح عليه أن يؤلف مايجمع به اصول النحو وما سمع من العربية ، وامر ان تفرد له حجرة من الدار ، ووكل بها

---

(١) « الاتقان » ١١٣/١

(٢) « تاريخ بغداد »

خدماً للقيام بما يحتاج إليه • وعين له نفراً من الوراقين ، يكتبون مايمليه حتى صنف كتاب « الحدود » في سنتين ، ثم خرج للناس ، واملى كتاب « المعاني » وقد تقدم ذكر سبب إملائه ، وهو ورود كتاب من احد اصحابه، وهو عمر بن بكير ، يطلب إليه كتابة تفسير للقرآن حتى يعتمده في الإجابة عندما يسأل . [1] توفي الفراء سنة ٢٠٧ هـ .

اما كتاب « معاني القرآن » فنستطيع تسجيل الملاحظات الآتية :

١ ـ معاني القرآن هذا هو العنوان الشائع بين المشتغلين بالعلم ، اما الفراء فقد ذكر العنوان في مقدمة كتابه كما يأتي :

« تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه » .

وهذا العنوان بهذه الصيغة يلقي ضوءاً ساطعاً على واقع الكتاب . فالإعراب ـ ولا سيما المشكل ـ هو هم المؤلف الأول ، ليس معنى هذا خلو الكتاب من شرح المعنى • بل إن تفسير المعنى مقصد سعى إليه المؤلف . كما يدل على ذلك العنوان . غير انه لايشكل حيزاً كبيراً إذا قيس بالإعراب والقضايا النحوية .

٢ ـ يدل الكتاب على ثقافة نحوية واسعة . كان يتمتع بها ، كما يدل على معرفة ممتازة بلهجات الأعراب ولغاتهم .

٣ ـ يدل الكتاب على أن مؤلفه من القراء العارفين المتقنين .

٤ ـ يدل الكتاب على المنهج الذي كانت تنتهجه مدرسة الكوفة النحوية في بحثها لقضايا النحو وفي التأليف . ولا بد من الإشارة إلى ان هذا الكتاب هو المرجع الكبير الذي ضم آراء هذه المدرسة بقلم احد أئمتها.

ونستطيع الآن بعد ان نشر وطبع أن نتعرف على آراء الكوفيين من خلاله • وكنا قبل ظهوره نتعرف على آرائهم من خلال كتب خصومهم البصريين . وقد احدث نشره تغييراً كبيراً في نظرتنا للنحو الكوفي .

٥ ـ قد يعنى المؤلف بالنواحي الاملائية . والمثل على ذلك بحثه في كتابة (باسم ربك) و (بسم الله ، فقرر ان كلمة (اسم) إذا جاءت

---

(١) « الفهرست » لابن النديم ص ١٠٥

مع لفظة الرب اثبتت الفها . وإذا جاءت مع لفظ الجلالة حذفت الألف . ويعلل كتابتها في موضع وحذفها في الموضع الآخر(١) .

٦ – يحظى الاعراب بالقدر الأوفى من العناية عند المؤلف ، وهو لايكتفى بتقرير الاعراب على الوجه الذي وردت عليه الآية ، وإنما يجاوز ذلك إلى توجيه أقوال الاعراب البداة وتخريجها وفقاً لقواعد العربية . بل انه يذكر احياناً قراءات القراء واجماعهم ، ولكنه جرياً وراء الرغبة في الاعراب يقلب الآية على الوجوه التي يحتملها الاعراب(٢) .

٧ – يأتي المؤلف بالنكت البيانية فيشرحها مستدلا عليها بما روي عن العرب من الاشعار ، (انظر تفسيره لقوله تعالى فما ربحت تجارتهم)(٣) .

طبع هذا الكتاب في دار الكتب المصرية لاول مرة ، وقد تم الجزء الأول منه سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م وقد حققه الاستاذان يوسف نجاتي ومحمد علي النجار وقد ردا الآيات التي استشهد بها المؤلف الى مواضعها في المصحف كما نسبا الشواهد إلى أصحابها ، وشرحا المصطلحات النحوية الخاصة بمدرسة الكوفة ، ووضعا فهرساً تفصيلياً نافعاً .

وتم الكتاب طباعة وتحقيقاً ، وهو من انفس كتب التفسير والنحو .

* * *

تفسير « البحر المحيط » لأبي حيان :

ابو حيان هو أثير الدين ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني . ولد في الأندلس سنة ٦٥٤ هـ ، وتلقى العلوم العربية عن اكابر رجالها في الأندلس وافريقية . وكان يكثر نظم الأشعار والموشحات . ثم قدم الاسكندرية ، فقرأ القراءات ، وكان يعظم سيبويه جداً ، وكان بينه وبين ابن تيمية ود ، وقد مدحه بقصيدة ثم انحرف عنه ونال منه ، وقيل : إن سبب ذلك انه بحث معه في العربية ،

---

(١) « معاني القرآن » ٣/١ و ٣٣٧

(٢) « معاني القرآن » ١٧/١

(٣) « معاني القرآن » ١٤/١

فخالف ابن تيمية سيبويه . وذكر ان له اخطاء ؛ فكان ذلك سبب انحراف أبي حيان عنه .

كان ثبتاً فيما ينقله ، عارفاً باللغة ؛ أما النحو والتصريف فهو الامام المطلق فيهما . خدم هذا الفن أكثر عمره ، حتى صار لا يذكر في اقطار الأرض فيهما غيره . كان ظاهرياً ثم تحول إلى مذهب الشافعي ، وكان من كبار العلماء بالتفسير والحديث والتراجم واللغات(١) . وتوفي سنة ٧٤٥ هـ اما تفسيره « البحر المحيط » فسنورد عنه الملاحظات الآتية :

١ ــ هذا التفسير كبير يقع في ٨ مجلدات كبار .

٢ ــ يكثر أبو حيان فيه من التعرض للمسائل النحوية ويتوسع في ذكر الخلاف بين النحويين وفي إعراب الكلمات .

٣ ــ يتكلم عن المعاني اللغوية للمفردات أولا . وإذا كان للكلمة معنيان أو معان شرح ذلك في أول موضع ترد فيه الكلمة .

٤ ــ يذكر القراءات الواردة في الآية ، ويوجهها نحوياً ، ويذكر الشاذ والمستعمل .

٥ ــ يعنى بالناحية البلاغية بياناً وبديعاً .

٦ ــ يحيل على المصادر التي نقل منها قضايا الإعراب والاحكام الفقهية .

٧ ــ يذكر اسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، وارتباط الآية بما قبلها وما بعدها .

٨ ــ يتحدث عن الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الاحكام ، فينقل اقوال الفقهاء من الأئمة الأربعة وغيرهم .

٩ ــ يذكر ما جاء في كلام المتقدمين من السلف والخلف .

١٠ ــ يتبع آخر الآيات بكلام منثور يشرح به مضمون تلك الآيات على ما يختاره من تلك المعاني .

١١ ــ وربما الم بشيء من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ . يقول : (وتجنبت كثيراً من اقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الالفاظ

---

(١) انظر ترجمته في « نفح الطيب » للمقري ٢٨٩/٣ ــ ٣٤١ و « بغية الوعاة » للسيوطي ص ١٢١ و « الرد الوافر » لابن ناصر الدين الدمشقي ص ٦٢

العربيه عن مدلولاتها في اللغة الى هذيان افتروه على الله وعلى علي رضي عنه وعلى ذريته ويسمونه علم التأويل)[1] .

١٢ ـ ينقل ابو حيان من تفسير الزمخشري كثيرا ، ومن تفسير ابن عطية أيضاً ، ويتعقبهما في آرائهما النحوية ، ومن الجدير بالذكر ان أبا حيان يقف من الزمخشري مواقف عنيفة ، ويسخر منه سخرية شديدة، من أجل آرائه الاعتزالية وإن كان يثني على مقدرته في الناحية البلاغية .

وقد طبع هذا الكتاب واعيد تصويره مؤخراً ، وما يزال بحاجة إلى من يحققه وينشره نشراً حديثاً .

* * *

٢ ـ كتب إعراب القرآن :

هذه الكتب كثيرة كثرة تستلفت النظر حتى قال السيوطي :

(افرده بالتصنيف خلائق . فنهم مكي[2] وكتابه في المشكل خاصة، والحوفي[3] وهو أوضحها ، وابو البقاء العكبري[4] وهو أشهرها ، والسمين[5] وهو اجلها على ما فيه من حشو وتطويل[6] ولخصه السفاقسي[7] .

---

(١) « البحر المحيط » ١/٥

(٢) هو مكي بن حموش (٣٥٥ ـ ٤٣٧ هـ) الاندلسي ، مقرىء عالم بالتفسير والعربية من اهل القيروان سكن قرطبة وتوفي فيها له كتاب « مشكل اعراب القرآن » .

(٣) هو علي بن إبراهيم الحوفي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . نحوي عالم باللغة والتفسير .

(٤) هو عبد الله بن الحسين (٥٣٨ ـ ٦١٦ هـ) عالم بالادب واللغة والحساب . اصله من عكبرة بليدة على دجلة . ولد وتوفي ببغداد ، وعمي في صباه وسنتحدث عن كتابه .

(٥) هو احمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي ، مفسر عالم بالعربية والقراءات ، شافعي من اهل حلب ، استقر في القاهرة ، وتوفي سنة ٧٥٦ هـ .

(٦) وقد تعقب حاجي خليفة في كتابه « كشف الظنون » السيوطي فقال :

(أنه اجل ماصنف فيه ، لانه جمع العلوم الخمسة : الإعراب والتصريف واللغة والمعاني والبيان ، وأما قول السيوطي فيه : (هو مشتمل على حشو وتطويل لخصه السفاقسي فجوده) فوهم منه ، لان السفاقسي ما لخص إعرابه منه ، بل من « البحر ».. والسمين لخصه ايضا من « البحر » في حياة شيخه أبي حيان وناقشه فيه كثيرا) .

(٧) هو ابراهيم بن محمد السفاقسي ولد سنة ٦٩٧ هـ اخذ عن ابي حيان بالقاهرة وقدم دمشق فسمع من المزي وتوفي سنة ٧٤٢ هـ .

وهناك كتب كثيرة في هذا الموضوع لمؤلفين قدامى ومتأخرين من اشهرها :

١ ـ كتاب « إعراب القرآن » للزجاج المتوفي سنة ٣١١ هـ وطبعه بهذا الاسم اخيراً الاستاذ الأبياري[١] في ثلاثة مجلدات . وذكره ابن النديم في « الفهرست »[٢] بعنوان « معاني القرآن » .

٢ ـ كتاب « إعراب ثلاثين سورة من القرآن » لابن خالويه النحوي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، واسمه الحسين بن احمد . وقد نشرته دار الكتب المصرية مؤخراً .

٣ ـ « البيان في إعراب القرآن المجيد » للعكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ . وهو كتاب من اشهر كتب إعراب القرآن ، غير ان ابا حيان كان يتعقب ابا البقاء في كثير من مواضع تفسيره « البحر » .

وقد طبع مرات عديدة وطبع مؤخراً طبعة حديثة .

٤ ـ « المجيد في إعراب القرآن المجيد » للسفاقسي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ . وكتابه احسن من الكتاب السابق ، وهو كما يقول صاحب « كشف الظنون » في مجلدات . وقد ذكر في هذا الكتاب شيخه ابا حيان وكتابه « البحر » ، ومدحه كثيراً غير انه قال فيه : (لكنه سلك سبيل المفسرين في الجمع بين التفسير والاعراب فتفرق فيه المقصود)[٣] فاستخار الله في تلخيصه ، وجمع مابقي في كتاب ابي البقاء من إعرابه لكونه كتاباً قد عكف الناس عليه ، فضمه إليه بعلامة الميم . واورد ما كان له بعد كلمة : (قلت) .

* * *

القواعد التي على معرب القرآن ان يراعيها :

يجب على معرب القرآن مراعاة ما يأتي :

١ ـ ان يفهم معنى مايريد ان يعربه ، مفرداً او مركباً قبل الإعراب.

٢ ـ ان يراعي ما تقتضيه الصناعة وان يكون ملماً إلماماً جيداً بقواعد النحو والصرف والاسلوب الأفضل عند العرب .

---

(١) وقد كتب الاستاذ العلامة احمد راتب النفاخ مقالين قيمين حول هذه الطبعة في مجلة مجمع دمشق ج ٤ م ٤٨ و ج ١ م ٤٩

(٢) « الفهرست » ص ٩٦

(٣) انظر « كشف الظنون » ١٦٠٧/٢

٣ ـ أن يتجنب الأمور البعيدة ، والأووجه الضعيفة ، واللغات الشاذة ، ويخرج على القوي والقريب والفصيح .

٤ ـ أن يراعي الرسم ، ومن ثم خطيءَ من قال في (سلسبيلا) : إنها جملة أمرية ؛ أي سل طريقاً .

٥ ـ أن يتأمل عند ورود المشتبهات ، ومن ثم خطّيءَ من قال في **(احصى لما لبثوا امداً**[1] **)** : إنه افعل تفضيل ، والمنصوب تمييز ؛ وهو باطل . فإن الأمد ليس محصياً بل يحصى .

وشرط التمييز المنصوب بعد (أفعل) كونه فاعلا في المعنى . فالصواب في اعراب الآية ان (احصى) فعل . وان (امدا) مفعول . مثل : **(وأحصى كل شيء عدداً)**[2] .

٦ ـ أن لا يخرج على خلاف الأصل أو خلاف الظاهر بغير مقتض .

٧ ـ أن يبحث عن الأصلي والزائد .

٨ ـ أن يجتنب اطلاق لفظ (الزائد) في كتاب الله ، فإن الزائد قد يفهم منه انه لامعنى له . وكتاب الله منزه عن ذلك ؛ ولذا فر بعضهم إلى التعبير عوضاً عن ذلك بالتأكيد ؛ والصلة والمقحم) .

* * *

٣ ـ القسم المتعلق بالأساليب البيانية :

رأينا فيما سبق أن التفسير بدأ في القرن الاول ؛ ثم أخذ ينمو ويتضخم ابتداء من أواخر القرن الثاني ، حتى أصبحت المؤلفات فيه لا يكاد يحصيها العد .

ولكن بدلاً من أن يبحث عن الجمال الفني في القرآن وتناسقه وانسجامه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال ؛ أخذ التفسير يخوض في مباحث فقهية قائمة على الجدل ، وفي موضوعات نحوية وصرفية ولغوية . وقد رأينا مثالاً على ذلك فيما مضى .

---

(١) الكهف ١٢

(٢) الجن ٢٨

وبذلك لم يستطع التفسير ان يحقق الغرض الذي من اجله قام . لانا رأينا أن الغرض من التفسير هو الوقوف على معانيه وإدراك اسرار اعجازه .

اما التأليف في التفسير البياني الذي يكشف عن وجوه الجمال والإعجاز ، والذي يولي هذا الجانب الاهتمام الاكبر فقد كان متاخراً من جهة . وكان محصوراً في حقلين من جهة اخرى :

* الحقل الاول : حقل إعجاز القرآن ، وقد تقدم البحث فيه في صدر الكتاب(١) .

* الحقل الثاني : حقل المتكلمين والبلاغيين . وهذا ما نود ان نتحدث فيه الآن :

كان المعتزلة ـ وهم المشتغلون في علم الكلام ـ يحاولون ان يحتكروا العناية بدراسة البلاغة القرآنية في القرنين الثاني والثالث . وكان من اهم اعلامهم واصل بن عطاء ، والجاحظ ، ومحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي وغيرهم ، ولكنهم لم يفلحوا في ان يبقى البحث في البلاغة القرآنية وقفاً عليهم ، إذ كان يقوم الى جانبهم دائما عمالقة من اهل السنة يشاركونهم البحث في بلاغة القرآن بأصالة وعمق .

وفي القرن الخامس نجد ان شافعياً من اهل السنة ، ومن عباقرة علماء العربية وهو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ يأخذ هذه المهمة وينتزع الراية من ايدي المعتزلة وقد بلغ غاية التوفيق المقدر لباحث في عصره ، فلقد اوشك ان يصل إلى اكتشاف سر الجمال الفني ، بصورة كاملة في كتابه « دلائل الإعجاز » .

قال الاستاذ سيد قطب : (لولا ان قصة المعاني والالفاظ ظلت تخايل له من اول الكتاب إلى آخره ، فصرفته عن كثير مما كان وشيكا أن يصل اليه ، ولكنه على الرغم من ذلك كله كان انفذ حساً من كل من كتبوا في هذا الباب)(٢) ويستحق ان يدرس دور عبد القاهر في الدراسات القرآنية مفصلا ومفردا .

---

(١) انظر الفصل السابع من الباب الاول من قسم القرآن وعلومه .

(٢) انظر « التصوير الفني » ص ٥٩

وقال الاستاذ سيد : « وأيا ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والاعجاز . فانها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة : تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة . فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه . ـ الى الحد الذي تستطيع ـ دون ان تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل كله .

هذه الظاهرة قد برزت في البحث عن بلاغة القرآن ، فلم يحاول أحد ان يجاوز النص الواحد إلى الخصائص الفنية العامة ، اللهم إلا ما قيل في تناسق تركيب القرآن والفاظه ، او استيفاء نظمه لشروط الفصاحة والبلاغة المعروفة ، وهذه ميزات ـ كما قال عبد القاهر بحق ـ لا تذكر في مجال الاعجاز لأنها ميسرة لكل شاعر وكاتب شب عن الطرق .

وبوقوف الباحثين في بلاغة القرآن عند خصائص النصوص المفردة ، وعدم تجاوزها الى الخصائص العامة ، وصلوا الى المرحلة الثانية من مراحل النظر في الآثار الفنية ، وهي مرحلة الادراك لمواضع الجمال المتفرقة، وتعليل كل موضع منها تعليلا منفردا . ذلك مع ما قدمنا من ان هذا الادراك كان بدائيا ناقصا .

اما المرحلة الثالثة ـ مرحلة إدراك الخصائص العامة ـ فلم يصلوا إليها ابدا لا في الأدب ، ولا في القرآن ، وبذلك بقي أهم مزايا القرآن مقفلا خاليا »(١) .

اما الكتب التي وصلت الينا في هذا المجال في تفسير القرآن فأهمها كتاب « الكشاف » للزمخشري . وفي العصر الحاضر الذي نهضت الآداب وتقدم النقد قامت بعض الطاقات تخوض في هذا الميدان تحاول أن تستدرك ما فات الأقدمين ، وسندرس محاولة الاستاذ الشهيد سيد قطب الناجحة التي تدل على اصالة وذوق وإبداع .

فلنتعرف اذن الى « الكشاف » و « ظلال القرآن » .

* * *

---

(١) « التصوير الفني » ص ٢٢

أ ـ الكشاف للزمخشري :

الزمخشري هو محمود بن عمر ابو القاسم . وقد عرف بجار الله ؛ لأنه جاور في مكة مدة من الزمان . ولد في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ ، وتوفي في جرجانية من قرى خوارزم سنة ٥٣٨ هـ . كان من اكبر رؤوس الاعتزال في عصره ، وكان حنفي المذهب ، وترك عدة كتب نافعة ؛ من اشهرها : « اساس البلاغة » في مفردات اللغة التي تستعمل في المجاز ،و « المفصل » في النحو و « الفائق » في غريب الحديث .

اما تفسيره فله مكانة كبيرة . ومما يدل على هذه المكانة ثناء كل من وقفوا عليه ، ومعظمهم من خصوم الزمخشري والمعتزلة كابن بشكوال والشيخ الهروي وابي حيان والتاج السبكي . ولكل ممن ذكرنا اقوال في الثناء على « الكشاف » .

* وسنذكر بعض الملاحظات حول هذا الكتاب :

١ ـ سبب تاليفه هو طلب جماعة من المعتزلة إلى الزمخشري أن يؤلف لهم تفسيرا . فكان يعتذر في بادىء الأمر ؛ إلى أن جاور في مكة ، فطلب إليه اميرها أبو الحسن بن حمزة أن يكتب تفسيرا فاستجاب لذلك بعد أن كان قد بلغ من الكبر عتيا ، وقد استطاع انجازه بسرعة كبيرة ؛ ببركة هذا الحرم المعظم كما يقول في المقدمة :

(... ووفق الله وسدد ، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم ، وبركة افيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم) ومعلوم انخلافة ابي بكر سنتان واربعة أشهر .

٢ ـ وكان الزمخشري معتدا بهذا الكتاب فخورا به الى حد بعيد حتى نسب اليه صاحب « كشف الظنون »[1] البيتين الآتيين :

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي

ان كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء و« الكشاف » كالشافي

---

(١) « كشف الظنون » ١٤٧٦/٢

٣ ـ وعنوان الكتاب هو : « الكشاف على حقائق التنزيل • وعيون الاقاويل في وجوه التأويل » .

٤ ـ وهو تفسير لم يسبق مؤلفه اليه ، لإبانته وجوه الاعجاز في آيات القرآن وبلاغته . وقد اعانه على تحقيق ذلك معرفته بلغة العرب ، وإحاطته بعلوم البيان والنحو . قال في المقدمة :

(ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن . وهما : علم المعاني ، وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة . وتعب في التنقير عنهما ازمنة ، بعد ان يكون آخذا من سائر العلوم بحظ ، جامعا بين امرين : تحقيق وحفظ) .

وقد اثبت الزمخشري في « كشافه » انه ممن اتصفوا بهذه الصفات إذ كان يعتمد في بيان المعنى على أساليب لغة العرب المعهودة في مأثور كلامهم .

٥ ـ اللغة التي كتب بها الزمخشري كتابه لغة رفيعة سامية بليغة .

٦ ـ جمع هذا الكتاب خاصتين اثنتين لم توجدا في غيره :

اولاهما : انه اوسع كتاب في استجلاء نواحي الجمال في القرآن والكشف عن وجوه الاعجاز .

ثانيهما : انه اضخم تفسير للمعتزلة وصل إلى أيدينا وهو يعبر عن عقائدهم من خلال شرحه للآيات ، ويمكننا ان نقول : إنه جمع اقوال ائمة الاعتزال المتقدمين مثل الجاحظ والقاضي عبد الجبار وغيرهما من كبار المعتزلة .

ولا بد من الاشارة إلى أن الزمخشري قد يخالف المعتزلة في مواضع قليلة ، ذهب فيها إلى خلاف الراي الذي يتجه اليه علماء الاعتزال ، فمن ذلك موضوع عذاب القبر الذي يذهب إلى إثباته ويناقش فيه المخالفين على طريقته (فان قلت . . . قلت)(١) .

---

(١) « الكشاف » ٣٣٩/١

وفي مثل هذه المواضع نجد ابن المنير يثني عليه وعلى صنيعه الثناء المستطاب ؛ فيقول مثلا في تعليقه على تفسير الزمخشري للآية **(وإنما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز)**(١) .

يقول ابن المنير : (ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة ، فإنهم يجحدون عذاب القبر . وها هو قد اعترف به)(٢) .

٧ ــ خلا هذا التفسير من الحشو والتطويل ، على ان هذا الايجاز والتركيز لم يورث الكلام غموضاً ولا تعقيدا ، بل هو واضح جميل .

٨ ــ بنى المؤلف مناقشاته على طريقة افتراض السؤال ، ثم وضع الجواب عنه . يبدأ بعرض السؤال بقوله : (فان قلت) ثم يأتي بالجواب مصدرا بقوله : (قلت) .

٩ ــ يقل من ذكر الروايات الاسرائيلية ، ويناقش ما يورده منها . وغالباً ما يردها ؛ ولذا فاننا نستطيع ان نعد تفسيره « الكشاف » خاليا من الاسرائيليات نسبيا .

١٠ ــ الأحاديث النبوية قليلة فيه أيضا ، وقلما يعتمد المؤلف على الحديث في شرحه لمعنى الآية ؛ ومع ذلك فان فيه عددا وافرا من الأحاديث الموضوعة دون أن ينبه على ذلك ، ولا سيما في فضائل السور ، إذ كان يورد في آخر كل سورة الاحاديث التي تشير الى فضلها وثواب قراءتها ؛ ومعظمها موضوع .

١١ ــ يشتد على أهل السنة والجماعة ويذكرهم بعبارات فاحشة ؛ وقد ينسبهم الى أهل الأوهام والخرافات وقد ينسبهم ــ على سبيل التعريض ــ الى الكفر .

ومن اجل ذلك قال الرازي في « تفسيره » :

(خاض صاحب « الكشاف » في هذا المقام في الطعن في أولياء الله ، وكتب

---

(١) آل عمران : ١٨٥

(٢) « الانتصاف » المطبوع بهامش الكشاف ، ١/٣٣٩

فيها مالا يليق بعاقل ان يكتب مثله في الفحش . فهب انه اجترا على الطعن في أولياء الله تعالى فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد ؟) .

١٢ ــ الطابع العقلي والمذهب الكلامي واضحان في منهج الزمخشري في الكتاب ، ولذلك فان اعتباره ممثلا لاتجاه التفسير بالراي امر مقبول .

١٣ ــ وهو يؤول الآيات بما يتناسب مع نحلته ، ويصرفها عن ظاهرها بتكلف وتعسف . انظر مثلا تفسيره لقوله تعالى : « ناظرة » في الآيةالواردة في سورة القيامة (**كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ، وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة**)(١) لترى مدى التعسف ، وتحميل النصوص مالا تحمل . ذلك لأن المعتزلة يرون انه لايمكن رؤية الله ابدآ .

وهو كذلك في كل آيات الصفات يصرف الآية عن ظاهرها ، ويعتمد على المجاز والاستعارة .

١٤ ــ وقد يلجأ في رد دلالة الآية التي لاتوافق مذهبه يلجا إلى ادعاء انها من المتشابه ، يقف ذلك الموقف امام النصوص التي تصادممذهبه، إن لم يمكنه تأويلها .

١٥ ــ يحسن عرض فكرته على الوجه المناسب حتى ان كثيرا من المغالطات لتخفى على كثير من الناس ، ولا سيما أن عددا من هـــذه الموضوعات شائك ، ليس لدى جمهور الناس فكرة واضحة عنها ، ولذافقد احسن طابعوه الذين طبعوه مذيلا برد عليه لابن المنير سنذكره بعد قليل .

* * *

تأثير « الكشاف » :

كان لكتاب « الكشاف » تأثير كبير علىعلماء المسلمين ، يدلناعلى هذا التأثــير :

---

(١) سورة القيامة : ٢٠ ــ ٢٣

١ ـ الكتب الكثيرة : التي الفت حول « الكشاف » . فقد كان منها كتب في الرد على الافكار المنحرفة التي وردت في الكتاب . وكان منها كتب تتعلق بتخريج الاحاديث ، وكان منها كتب تتصل بالشواهد شرحا واعرابا واتماما ؛ وكان منها كتب تعد شرحا للكشاف ؛ وكان منها كتب تعد تلخيصا له . وقد الف هذه الكتب رجال من أهل السنة . بل ومن ائمة أهل السنة كما سنرى .

وسنذكر كتبا اربعة هي :

١ ـ « الانتصاف » للشيخ احمد بن محمد بن منصور المنير الاسكندري المالكي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ . وقد تعقبه في اعتزالياته تعقبا عجيبا . ولم يدع له اشارة ولا تصريحا دون ان يأتي عليه بالمناقشة والرد . وقد فند حججه ، وقابل عنفه بعنف مثله أو اشد .

٢ ـ « الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف » لامير المؤمنين في الحديث الامام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ؛ وهو كتاب نافع جدا ؛ لانه يوقف القارىء على درجة الحديث الذي يمر معه .

٣ ـ « حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسيرالكشاف » .

٤ ـ « مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف » للمرزوقي المذكور .

٢ ـ ثناء كثير من خصوم الاعتزال على « الكشاف » ، فلو لم يكن هذا الكتاب من قوة التأثير بهذه الدرجة لما كان منهم مثل هذا الثناء عليه .

٣ ـ وهناك كتب اخرى في التفسير تأثرت بالكشاف تأثرا كبيرا ، لاعتماد مؤلفيها على هذا الكتاب بالذات اعتمادا كليأ ، لا سيما في النواحي المتصلة بالبيان والبلاغة ، ولم تعلن انها تدور حوله ، ونستطيع ان نعد من هذا القبيل اسماء كثيرة من كتب التفسير التي جاءت بعد عصر المؤلف ، واوضح مثال على ذلك تفسير البيضاوي والنسفي .

٤ ـ ومن الطريف ان نورد راي ابي حيان في « الكشاف » وذلك في ابيات ذكرها في « البحر المحيط »(١) نختار منها ما يأتي :

ولكنه فيه مجال لناقد	وزلات سوء قد اخذن المخانقا
فيثبت موضوع الاحاديث جاهلا	ويعزو الى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم اعلام الائمة ضلة	ولا سيما ان اولجوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة	بتكثير الفاظ تسمى الشقاشقا
يقوّل فيها الله ما ليس قائلا	وكان محبا في الخطابة وامقا
وينسب ابداء المعاني لنفسه	ليوهم اغمارا وان كان سارقا
ويخطىء في فهم القران لانه	يجوز اعرابا ابى ان يطابقا
وكم بين من يؤتى البيان سليقة	وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للالفاظ حتى يديرها	لمذهب سوء فيه اصبح مارقا

* * *

٢ ـ « في ظلال القرآن » للاستاذ سيد قطب :

ترجمة المؤلف : ولد الاستاذ سيد سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) ودرس دراسته الابتدائية والثانوية في مصر ، ثم دخل دار العلوم ، وتخرج منها يعمل في التدريس ثم شرع يشتغل في الصحافة والتأليف ، فعرفته البلاد العربية كاتباً مجيدا واديباً كبيرا ، وناقدا أصيلا .. ثم غلبت عليه الدراسات الاسلامية ، فقضى بقية حياته مجاهدا يدعو إلى الله على هدى وبصيرة ، وتحمل من أجل ذلك الكثير ، وضحى بالغالي والنفيس ، وظل يقود فكر مثقفي العالم الاسلامي في اصعب الظروف ، ومن وراء قضبان السجن إلى ان استشهد يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨٦ هـ الموافق لـ ٢٩ آب سنة ١٩٦٦ م . وخلف ثروة ضخمة من المؤلفات من اهمها :

---

١ . « البحر المحيط » : ٨٥/٧

الكتاب الذي نتحدث عنه وهو « في ظلال القرآن » و « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » و « خصائص التصور الاسلامي » و « الاسلام ومشكلات الحضارة » و « النقد الأدبي » و « معالم في الطريق » .

الكتاب :

قامت في مطلع هذا العصر نهضة دينية كان لبرز رجالها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله ، وكان لهذه النهضة أثر كبير في الجزيرة العربية وفي كافة أنحاء العالم الاسلامي .. ثم جاء القرن الرابع عشر الهجري ، فكانت فيه يقظة فكرية . ونهضة علمية . وذلك على أثر غزو الحضارة الأوروبية للمسلمين . واستيلاء دول أوربا على معظم ديار الاسلام . وكانت مصر أهم المراكز الفكرية في العالم الاسلامي . ولذلك فاننا نجد ان عددا من النوابغ الذين عرفتهم الأمة والذين قادو الحركة الفكرية والاصلاحية كانوا من ابناء مصر أو من سكانها الذين وفدوا اليها من جهة ما من العالم الاسلامي ، وقصدوها ليمارسوا دورهم الهام من أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وغيرهم .

وقد نمت هذه الحركة واثمرت ثمرات عديدة كانت خيرا على المسلمين ومن اهم ثمراتها التي تعنينا في بحثنا هذا تلك النهضة اللغوية التي بها اتصل الخلف بآثار السلف ، وارتقت بسببها اساليب الكتابة ، وظهرت طاقات ضخمة لا تقل عما عرفنا في تاريخنا ، وشرع العلماء يبحثون ويحاولون أن يضيفوا إلى تراثنا زاداً جديداً ، ويتابعون عمل الأجداد بهمة لاتكل ، واصالة وذوق .

وكان لدار العلوم دور محمود في هذه النهضة . فلقد خرجت عددا من الاعلام الذين قدموا خدمات جليلة للغة القرآن ... وكان من ابرزهم الاستاذ سيد قطب .

والاستاذ سيد ـ رحمه الله تعالى ـ اديب فذ ، وناقد اصيل ، وعالم متمكن ، وكاتب موهوب ، عني بالقرآن عناية كبرى ، واستمر في دراساته القرآنية قرابة ثلاثين سنة .

كانت المحاولة الجدية الأولى في هذه الدراسات كتابه القيم «التصوير

الفني في القرآن » الذي كان باكورة انتاجه القرآني . وقد كتب المؤلف قصة هذا الكتاب ، فذكر انها بدات بنشر مقال في مجلة « المقتطف » سنة ١٩٣٩ م تحت عنوان « التصوير الفني في القرآن » تناول فيه عدة صور فاثبتها وكشف عما فيها من جمال فني . وظل يعكف بين الحين والحين على القرآن يتملى صوره الفريدة إلى ان توفر على هذا البحث واصدر كتاب « التصوير الفني في القرآن » وقرر ان حقيقة جديدة برزت له وهي : (ان الصور في القرآن ليست جزءا يختلف عن سائره ، ان التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل . القاعدة الاساسية المتبعة في جميع الاغراض — فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال — فليس البحث اذن عن صور تجمع وترتب . ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز)(١) .

ثم يقول : (ذلك توفيق لم أكن اتطلع اليه حتى التقيت به)(٢) .

ويقول : (التصوير هو الاداة المفضلة في اسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الانساني ، والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، او الحركة المتجددة)(٣) .

ويقول : (ويجب ان نتوسع في معنى التصوير ... فهو تصوير باللون . وتصوير بالحركة . وتصوير بالايقاع ...)(٤) .

— كان هذا الكتاب الموجز الجميل الخطوة الاولى التي انتهت بالمؤلف الى كتابة تفسيره الكبير « في ظلال القرآن » .

وهكذا كان الاستاذ سيد الرجل الذي تابع عمل الباقلاني والجرجاني والزمخشري في الدراسات القرآنية من الناحية البيانية واستطاع ان يصل الى ما لم يبلغوه .

وسنذكر بعض الملاحظات عن هذا التفسير لنذل على اهم مزاياه وابرز خصائصه بايجاز :

---

(١) « التصوير الفني » ص ٩ — ١٠

(٢) « التصوير الفني » ص ١٠

(٣) « التصوير الفني » ص ٣٤

(٤) « التصوير الفني » ص ٣٥

١ - يدل عنوان الكتاب « في ظلال القرآن » على السمة التي تميز الكتاب .. انه كتاب يسجل الانطباعات والمشاعر التي يحسها المؤلف عند قراءته للقرآن .

يقول المؤلف في مقدمة الطبعة الاولى :[1]

(« في ظلال القرآن » عنوان لم اتكلفه . فهو حقيقة عشتها في الحياة ، فبين الحين والحين كنت أجد في نفسي رغبة خفية في ان اعيش في ظل القرآن فتره استروح فيها ما لا استروحه في ظل سواه ، فترة تصلني بالسماء ، وتفتح لي فيها نوافذ مضيئة ، وكوى مشعة ، وهي في الوقت ذاته تثبت قدمي في الأرض ، وتشعرني اني اقف على ارض صلبة ، لا تدنسها الأوحال ، ولا تزل فيها الأقدام) .

٢ - وقصة تاليف هذا الكتاب وسبب شروعه فيه ان المؤلف دعي من قبل مجلة شهرية ليكتب فصلا شهرياً في موضوع مسلسل ، فاختار عنوان « في ظلال القرآن » ثم تعاظمت الرغبة إلى إصدار ذلك الكتاب . يقول المؤلف :

(وكانت تعن لي خواطر متناثرة : خواطر في العقيدة ، وخواطر في النفس ، وخواطر في الحياة ، وخواطر في الناس .. كنت اكتفي بأن اعيشها ولا اسجلها ، فقد كان حسبي ان اعيش هذه اللحظات في تلك الظلال .. فلما ان صدرت « المسلمون » وكان عليّ ان اشترك في تحريرها بمقال شهري .. في موضوع مسلسل ، أو تحت عنوان دائم ، قفز إلى ذهني هذا العنوان : « في ظلال القرآن » ذلك كان مبدأ القصة .. ثم طمحت الرغبة ، وامتد الافق إلى محاولة اخرى ، ماذا لو عشت فترات في ظل هذا القرآن كله فسجلت كل ما يخالج نفسي ، وانا استروح هذا الجو العلوي الطليق ؟ .. ووفق الله وسرت في هذا الشوط خطوات) .

٣ - ويعلن بوضوح في هذه المقدمة أن تفسيره يختلف كل الاختلاف عن كتب التفسير الاخرى ، ويصر إصرارا كبيرا على تقرير انه لم يفعل في هذا الكتاب اكثر من ان يسجل احاسيسه ومشاعره التي عاشها في ظل القرآن . يقول رحمه الله :

---

(١) صدر الجزء الاول من هذه الطبعة سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م .

(وبعد ، فقد يرى فريق من قراء هذه الظلال انها لون من تفسير القرآن . وقد يرى فريق آخر انها عرض للمبادىء العامة للاسلام كما جاء بها القرآن . وقد يرى فريق ثالث انها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهي في الحياة والمجتمع ، وبيان الحكمة في ذلك الدستور .

اما انا فلم اتعمد شيئاً من هذا كله ، وما جاوزت أن أسجل خواطري وأنا احيا في تلك الظلال) .

٤ ـ ويبين منهجه في هذا الكتاب ، فيقرر انه حاول أن يبتعد عن الموضوعات النحوية واللغوية ، والقضايا الجدلية والكلامية ، والمسائل الفقهية ، وذكر أن الإسراف في ذلك يحجب القرآن عن روحه . ويستر جمال النص القرآني الاخاذ ، قال رحمه الله :

(كل ما حاولته الا اغرق نفسي في بحوث لغوية ، أو كلامية . أو فقهية ، تحجب القرآن عن روحي . وتحجب روحي عن القرآن . . . وما استطردت إلى غير مايوحيه النص القرآني ذاته من خاطرة روحية . أو اجتماعية ، أو إنسانية . وما أحفل القرآن بهذه الايحاءات !) .

وليس من شك في ان المؤلف رحمه الله قد استفاد من مختلف المناهج التفسيرية : كالتفسير بالمأثور ، والتفسير بالراي . والتفسير الاصلاحي . والتفسير البياني ، ولذا فانك تجد في هذا التفسير الجميل جولات عميقة في هذه الجوانب المختلفة ، مما يدل على اطلاعه الواسع ، واستيعابه لما يقرا ، والقدرة على أن ينتفع بذلك في اطار شخصيته الواضحة ، ومواهبه الفذة الاصيلة .

وهذه خاصة قل ان تتوفر للمؤلفين ، إذ تجد كثيراً منهم ينقلون في منأى عن تدخلهم ، ولا تكاد تحس بشخصياتهم .

٥ ـ ويشير الاستاذ المؤلف في مقدمته أيضا إلى أن هذا الكتاب تطبيق على نظريته التي تحدثت عنها في مطلع هذه الكلمة وهي نظرية : التصوير الفني في القرآن ، ويذكر انه في هذه الظلال يتذوق نواحي الجمال الفني في النص ، ومواضع التناسق في التعبير والتصوير ، ويعرض ذلك على الناس . قال رحمه الله :

(كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من احساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير، ولقد كانت هذه إحدى أماني منذ أن فرغت من كتاب « التصوير الفني في القرآن » قبل ثمانية أعوام(١) وسجلت فيه ما بدا لي واضحاً يومذاك : أن التصوير هو القاعدة الواضحة في التعبير القرآني الجميل ، وكنت قد أدرت الكتاب كله على هذا المحور لشرح هذه القاعدة ، والتمثيل لها من القرآن . كانت إحدى أماني أن يوفقني الله الى عرض القرآن في هذا الضوء ، ثم كمنت الرغبة أو توارت حتى ظهرت مرة أخرى في هذه الظلال) .

٦ ـ وخطة المؤلف ـ رحمه الله ـ في التفسير أن يعرض السورة كلها عرضاً إجمالياً ، ثم يقسمها إلى مجموعات كبيرة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص ، وبظللها ظل خاص . وبذلك تبدو وحدة النص القرآني ، والترابط بين أقسام السورة . وهذه الخاصة لا تكاد تجدها بهذا الوضوح والكمال والتمام في تفسير آخر . قال رحمه الله : (ولقد سرت في هذا العمل الجديد على أساس عرض كل مجموعة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص ويظللها ظل خاص في صورة درس قرآني) .

ويقدم بين يدي السورة مقدمة تتحدث عن غرض السورة وعن المحور الذي يجمع كل الموضوعات الواردة فيها ، وهذه المقدمات التي نجدها تسبق السور في « الظلال » مقدمات هامة ، تمهد للتفسير التفصيلي الذي سيأتي ، وتبين الوحدة في السورة ، وتعالج القضايا الاسلامية التي تشير اليها السورة بعقلية حركية ، تستفيد من السيرة النبوية لتخطط للحركة الاسلامية في العصر الحاضر ، وهي مقدمات طويلة ، ولا سيما في الطبعة الثانية . . دلل المؤلف فيها على عمق ادراكه للمفاهيم الاسلامية ، وحسن عرضه لها بلغة العصر مستقاة من القرآن الكريم . ومن أهم الأمثلة على ذلك مقدمة سورة الانعام ومقدمة سورة التوبة . وقد يختم السورة بخاتمة تجمع مقاصدها الاساسية ، حيث يعرض المؤلف رحمه الله التوجيهات والنقط الرئيسية في السورة ، ويستشهد لها ويوضحها بالآيات الكريمة .

---

(١) كتب المؤلف هذه السطور في رمضان سنة ١٣٧١ هـ حزيران ١٩٥٢ م .

ومن اوضح الأمثلة على هذا ما ختم به تفسيره لسورة الرعد . وهي خاتمة تقع في ثماني عشرة صفحة .

٧ ـ يمتاز هذا التفسير باسلوب مؤلفه الموهوب ، فهو يعرض موضوعات القرآن ومعانيه بأسلوب ادبي حي اخاذ سهل بليغ .

وقد اجتنب كثيراً من المصطلحات العلمية التي نعثر عليها في كتب التفسير . فكان كتابه سائغا مفهوماً مقبولا من جماهير القراء ، على انه كان يكثر من استعمال بعض الكلمات التي تكاد تكون خاصة به ، وإن الذي يألف اسلوب المؤلف يستطيع ان يدرك بسهولة معناها ، لا سيما وأنه قد شرح بعضها في كتابه « التصوير الفني في القرآن » ومن الطبيعي أن نجد في كتابة الكتاب الكبار بعض الكلمات التي يكثرون من ترذادها ، كما نجد بعض الجمل الخاصة التي تعد مظهرا من مظاهر الاساليب الشخصية .

٨ ـ يعالج هذا التفسير الموضوعات القرآنية باعتزاز بالاسلام يفوق الوصف . وايمان به لا حد له ، وبعقلية حركية تدعو إلى استئناف العمل بالقرآن في قوة وصراحة وحيوية ، والى إعادة سلطان القرآن على الحياة الانسانية في نطاق الافراد والامم والعالم كله .

كما عالج هذا التفسير بوعي عميق اصيل ، وبحرارة بالغة ، وعاطفة كريمة صادقة قضايا المسلمين الفكرية والاجتماعية والسياسية .

كما الم بقضايا الفكر المعاصر ، والحضارة القائمة ، واعلن بكل وضوح وتصميم ان المبادىء القرآنية هي ما تحتاجه الانسانية في أزمتها الراهنة اليوم .

٩ ـ ويتمتع المؤلف بتحرر تام من كل قيود العبودية الفكرية التي يرسف بها عدد من المفكرين المعاصرين ، وهو على معرفته بحضارة الغرب لم يكن مأخوذا بها ولا مبهورا بالجوانب البراقة فيها ، كان يقدرها حق قدرها ، ويقومها التقويم السديد . ويحذر من سيئاتها ومساوئها التي تزحف على ديار الاسلام ، وتتهدد حياتهم كلها .

١٠ والمؤلف يضع العقل في محله الذي ينبغي ان يوضع فيه ، دون ان يظلم العقل بتحميله ما لا يقوى على حمله ، ودون ان يعطله فلا يسخره فيما خلقه الله له .

١١ ـ ويربط المؤلف بين آيات القرآن التي فيها النور والهدى وبين واقع الجيل المثالي العظيم ، الذي تلقى هذا القرآن ليعمل به ويقيم جوانب حياته عليه ، وهو في تفسيره يدعو المسلمين إلى ان يأخذوا انفسهم بالحزم، ويعملوا بالقرآن كما فعل اهل الصدر الأول زمن النبوة ، ويحثهم على الانسلاخ من واقعهم المريض المتخلف ، ليكونوا سعداء في بلادهم ، وليسعدوا الانسانية كلها ، لأنه يقرر ان المسلمين يملكون بهذا القرآن مالا يملكه احد سواهم في الدنيا ، وليس عليهم إلا ان يكونوا هم الواقع الحي لمبادىء الاسلام لتجد فيهم الانسانية المعذبة الشقية طلبها . .

١٢ ـ واخيرا فان هذا التفسير يبرز قضية وحدة الرسالات السماوية ، التي بعث الله بها انبياءه ورسله . إذ كانت جميعاً تدعو إلى التوحيد واسلام النفس لله وحدة في الطاعة والعبادة .

* * *

كتب اخرى في التفسير البياني :

من اهم هذه الدراسات :

١ ـ « التفسير البياني للقرآن الكريم » للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء . وقد صدر منه جزءان الأول في سنة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م) والثاني في سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) وذكرت ان الاصل في منهج التفسير الأدبي (هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما في القرآن عنه ، ويهتدي بمالوف استعماله للالفاظ والاساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك ، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة ، يؤخذ اللفظ او الآية فيه مقتطعا من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه الى الاهتداء الى الدلالة القرآنية لالفاظه او استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية) ثم قالت : (واتجه بمحاولتي اليوم الى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار ، ملحوظ فيها وحدة الموضوع . فضلا عن كونها جميعاً من السور المكية . حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الاسلامية ، وقد بدت بهذا

الانجاه الى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة في التفسير وبين منهجنا الحديث الذي يتناول النص القرآني في جوه الإعجازي ، ويلتزم في دقة بالغة قولة السلف الصالح : « القرآن يفسر بعضه بعضاً ») .

اما السور التي عالجتها في الجزء الأول فهي : الضحى والانشراح والزلزلة والنازعات والعاديات والبلد والتكاثر . والسور التي عالجتها في الجزء الثاني هي : العلق والقلم والعصر والليل والفجر والهمزة والماعون.

٢ ـ « من منهل الأدب الخالد » للاستاذ محمد المبارك : وهو دراسة تحليلية ادبية لنصوص من القرآن درس فيها النصوص الآتية : سورة العاديات . وسورة الحاقة . وبعض سورة النحل ، وسورة يوسف ... والحق بذلك مقالين هما : عناصر الفكر والفن في الكتاب العربي المبين . والقرآن عربي الخطاب انساني الرسالة .

وقد اشار إلى طريقته في التفسير الادبي فذكر انها (تقوم على تلخيص الفكرة العامة للسورة أو النص ، ثم بسط ماتضمنته من افكار. وكشف مابين هذه الافكار من صلة وربطها بما تضمنه القرآن من مفاهيم وافكار واعمد في ذلك إلى عرض معاني الآيات والافكار التي تضمنتها عرضا مباشراً . هو حصيلة ما انتهى إليه رأيي في معانيها ، دون أن أنقل مختلف اقوال المفسرين ، ثم اعرض الطريقة الأدبية أو فن التعبير عن تلك المعاني والأفكار ، كالوصف ، والقصص ، والمثل المضروب ، والعرض المباشر ، مع بيان خصائص هذا الفن وانسجامه مع الموضوع في النص الذي هو موضوع الدراسة . ثم انتقل بعد ذلك إلى دراسة الآيات من حيث تراكيبها وجملها ومفرداتها ، وما لهذه التراكيب والألفاظ من خصائص أدبية بارزة . سواء من جهة المعنى وحسن التعبير عنه وقوته ودقته ام من جهة اللفظ وجرسه ونغمته وما لذلك كله من صلة بالفكرة المعروضة) .

* * *

الفصل الثاني

التفسير بالمأثور

مدرستان :

قامت مدرستان في التفسير منذ وقت مبكر : عرفت احداهما بمدرسة التفسير بالمأثور وعرفت الأخرى بمدرسة التفسيربالراي ، وكان بين هاتين المدرستين حوار هادىء حيناً ، وجدال عنيف وخصام احياناً ، وقد تشدد اصحاب المدرسة الاولى في تفسير القرآن تشدداً كبيراً حتى روي عن الأصمعي - وهو على ما نعلم من سعة الاطلاع والتبحرفيالعلوم - انه كان إذا سئل عن شيء من الكتاب او السنة يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا اعلم المراد منه في الكتاب او السنة اي شيء هو ! وكانوا يتحرجون من الخوض في التفسير .

التفسير بالمأثور :

التفسير بالمأثور اتجاه من اهم اتجاهات التفسير واجدرهابالعناية ، وهو اقدم هذه الاتجاهات كما سيتضح ذلك من خلال هذا الفصل .

ويعنون به : ان تفسر الآية من آيات القرآن الكريم بما يأتي :

١ - بما جاء في القرآن نفسه في موضع آخر ورد فيه معنى هذه الآية اكثر تفصيلا .

٢ - وبما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير .

٣ - وبما نقل عن الصحابة والعدول من التابعين مما يتصل بشرح الآية وذكر أسباب نزولها وفيمن انزلت .

* اما تفسير القرآن بالقرآن فإنه اشرف انواع التفسير واجلها ، إذ لااحد اعلم بمعنى كلام الله من الله جل وعز(١) . والأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن كثيرة جداً ، بل لقد الف العلامة المعاصر الشيخ محمد

---

(١) « اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن » ٢/١ .

الامين الشنقيطي تفسيراً اعتمد فيه توضيح القرآن بالقرآن . وسنكتفي بذكر الأمثلة الآتية على ذلك :

- وردت كلمة (يوم الدين) في سورة الفاتحةفي قولهتعالى : ((**مالك يوم الدين**)) وفسرت آية أخرى المراد من هذه الكلمة في قوله تعالى : (**وما ادراك ما يوم الدين ، ثم ما ادراك ما يوم الدين ، يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والامر يومئذ لله**)(١) .

- ووردت كلمة (كلمات) في قوله سبحانه (**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه**)(٢) ؛ وفسرت آية اخرى المراد من هذه الكلمة في قوله تعالى : (**قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**)(٣) .

- وقصة موسى ذكرت بايجاز في قوله تعالى : (**واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبياً**)(٤) ولكن هذه القصة وردت مبسوطة مطولة في مواضع متعددة من القرآن مثل السور الآتية : البقرة والاعراف وطه والشعراء والقصص وغيرها .

- وكذلك قصة آدم وإبليس وقصة ثمود وردت موجزة في بعض المواضع ومفصلة في مواضع أخرى .

* اما تفسير القرآن بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير فانه يلي تفسير القرآن بالقرآن . وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم عدداً كبيراً من الآيات ، يشهد لذلك ما جاء في كتب الحديث من تفسيره صلى الله عليه وسلم للقرآن فقد جاء في « صحيح البخاري » و « سنن الترمذي » وغيرهما ابواب طويلة في تفسير القرآن . قال ابن

---

(١) . سورة الانفطار ، آخرها .
(٢) سورة البقرة : ٣٧ .
(٣) سورة الاعراف : ٢٣ .
(٤) سورة مريم : ٥١ - ٥٤ .

تيمية : «يجب ان يعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم الفاظه - فقوله تعالى : (**لِتُبَيِّنَ للناس مانزل اليهم**)[1] يتناول هذا وهذا »[2] . والأمثلة على تفسير النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة نقتصر منها على المثال الآتي :

- ورد في آيات الصيام قوله تعالى : (**وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**)[3] . وجاء في « صحيح البخاري » عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله ما « الخيط الابيض من الخيط الأسود » أهما الخيطان ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « انك لعريض القفا ان ابصرت الخيطين » ثم قال : « لا .. بل هو سواد الليل وبياض النهار »[4] .

* واما تفسير الصحابة فكثير وقد اشرنا إليه في بحثنا عن تاريخ التفسير في عهد الصحابة وقد امتلأ به كتاب ابن جرير الطبري وغيره من كتب التفسير بالمأثور ونكتفي بالمثال الآتي :

- جاء في « صحيح البخاري » في تفسير قوله تعالى : (**والأنصاب والأزلام**)[5] : (قال ابن عباس : الازلام : القداح يقتسمون بها في الأمور . والنصب : انصاب يذبحون عليها)[6] .

* واما تفسير التابعين فكثير جداً - وقد حفل به كتاب ابن جرير الذي اشرنا إليه آنفاً . ونكتفي بالمثال الآتي :

- جاء في « صحيح البخاري » في تفسير قوله تعالى : (**ما جعل**

---

(1) سورة النحل : ٤٤ .
(2) « مقدمة في اصول التفسير » ص ٢٥
(3) سورة البقرة : ١٨٧ .
(4) « صحيح البخاري » ٦/٤٤ .
(5) سورة المائدة : ٩٠ .
(6) « صحيح البخاري » ٦/٤٤ .

الله من بحيرة ولا سائبة)[1] (عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها احد من الناس . والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم التي لايحمل عليها شيء)[2] .

هل تفسير الصحابة والتابعين من المأثور ؟

اختلف العلماء في عد تفسير الصحابة والتابعين من المأثور ، فمنهم من عده مأثوراً ، ومنهم من لم يعده كذلك . غير ان معظم كتب التفسير بالمأثور تورد منه الكثير .

ولعل الراي الصحيح في هذا الموضوع هو الراي الذي سبق ان قررناه في تاريخ التفسير وهو : ان ما جاء عن الصحابة والتابعين العدول فيما ليس من باب الاجتهاد والاستنباط وانما هو متوقف على السماع من النبي صلى الله عليه وسلم يعتبر من التفسير بالمأثور ، وهو ملزم إن صح سنده .

واما الأقوال المنقولة عنهم مما يتصل بالاجتهاد والاستنباط فليست من التفسير بالمأثور .

إذن فتفسير الصحابة والتابعين لايعتبر من التفسير بالمأثور إلا إن كان متعلقاً بالسماع من النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك كالإخبار عن امر غيبي لامجال فيه للاستنباط والاجتهاد ، ولا يمكن إعمال العقل فيه ، ولا الاعتماد على استنتاجه .

ومما يلحق بهذا النقل عن لسان العرب لأن القرآن إنما نزل بلغتهم وهم أهل اللغة وأدرى الناس بها .

ونستطيع ان نقول : إن اهم انواع التفسير بالمأثور هو التفسير المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي يذهب الذهن إليه عندما نطلق « التفسير بالمأثور » .

متى يقبل التفسير بالمأثور ؟

إن التفسير بالمأثور ـ فيما عدا التفسير بالقرآن بطبيعة الحال ـ

---

(1) سورة المائدة : ١٠٣ .

(2) « صحيح البخاري » ٤٦/٦ .

يقبل إن صح سند هذا الاثر المفسّر للآية ، ويلزمنا الأخذ به .

اما إذا كان سنده واهياً فلا شك في رده . ولذلك فإن علينا لنحكم على اثر بالقبول او الرد أن ننظر في رجال سنده لنعرف درجته .

اوليتــه :

لئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المفسر الاول لنستطيعن ان نقرر جازمين ان التفسير بالمأثور هو المرحلة الأولى في تاريخ التفسير وانه اول ماظهر من انواع التفسير . وقد ذكرنا سابقاً ان التفسير كان باباً من أبواب الحديث قبل ان يستقل . وما زال هذا الباب ركناً من اركان كتب الحديث الجامعة .

* * *

الاسرائيليــات :

نجد في كتب التفسير بالمأثور اخباراً كثيرة مروية عن بني اسرائيل . وهذه الاخبار عرفت بالإسرائيليات ، وذلك بسبب عدد من التابعين الذين كانوا من اهل الكتاب قبل ان يدخلوا في الإسلام ، والذين كانوا كثيراً ما يسألون عما في كتب اهل الكتاب ، ودخلت هذه الاخبار فيمجالالتفسير بالمأثور . ومن هنا وجب على من يقرأ في كتب التفسير ان يكون واعياً للموقف السليم الذي يجب ان يقفه المسلم من الإسرائيليات .

١ ـ تردّ كل الاسرائيليات التي تعارض القرآن ، او تعارض اصلا اسلامياً مقرراً .

٢ ـ تعتبر الروايات الاسرائيلية الموافقة للقرآن مقبولة ، ولكن لنا غنية عنها بما في القرآن .

٣ ـ اما الروايات التي لاتعارض القرآن ولا توافقه فينبغي انيكون موقفنا إزاءها موقف الحذر والأناة والحياد . لانكذبها خشية ان تكون صحيحة ، ولا نصدقها خوفاً من أن تكون مكذوبة . وهذا مصداق ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اخرجه البخاري عن ابي هريرة

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » (وقولوا آمنا بالله وما انزل إلينا ...) الآية ...(١)

قال ابن الملك تعليقاً على هذا الحديث : (إنما نهى عن تصديقهم وتكذيبهم لأنهم حرّفوا كتابهم ، وما قالوه إن كان من جملة ماغيروه فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل ، وإن لم يكن كذلك يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق)(٢) .

٤ ـ وهناك استدراك على هذا النوع الثالث من الاسرائيليات ذكره ابن كثير عند أول تفسيره سورة ق قال رحمه الله : (وإنما اباح الشارع الرواية عنهم في قوله « وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل)(٣) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (.. ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فانها على ثلاثة اقسام :

احدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه (لامن هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني)(٤) .

والحق الذي نراه أن هذا التقسيم يبيح لنا أن نروي عن بني إسرائيل النوع الثالث المسكوت عنه إن نحن التزمنا عدم تصديقهم وعدم

---

(١) انظر « صحيح البخاري » ١٢٦/٩ كتاب التوحيد : باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها . وانظر « فتح الباري » ٥١٦/١٣ .

(٢) انظر « مبارق الازهار » ٢٢٠/١ .

(٣) « تفسير ابن كثير » ٢٢١/٤ .

(٤) « مقدمة في أصول التفسير » ص ١٠٠ .

تكذيبهم . ولكن هذا شيء ، وإيراد هذه الإسرائيليات اثناء تفسير كتاب الله شيء آخر ؛ ذلك لأن إيراد هذه الرواية في هذا الموضع يعني انك تريد حمل الآية القرآنية عليها . وهذا يدل على تصديقك لها .

قال الأستاذ احمد شاكر في مقدمة « عمدة التفسير » :

« إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء . وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولا او رواية في معنى الآيات او في تعيين ما لم يعين فيها ، او في تفصيل ما اجمل فيها شيء آخر ، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم ان هذا الذي لانعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما اجمل فيه . وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ اذن بالتحدث عنهم امرنا ان لانصدقهم ولا نكذبهم . فاي تصديق لرواياتهم واقاويلهم اقوى من ان نقرنها بكتاب الله . ونضعها منه موضع التفسير او البيان ؟ اللهم غفرا »(١)

وقال الحافظ ابن كثير :

« وفي القرآن غنية عن كل ماعداه من الاخبار المتقدمة . لانها لاتكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان . وقد وضع فيها اشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين . كما لهذه الامة من الائمة والعلماء . والسادة والاتقياء . من الجهابذة النقاد . والحفاظ الجياد . الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه . من منكره وموضوعه ، ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين ، والمجهولين وغير ذلك من اصناف الرجال »(٢) .

وقال ايضاً :

« .. وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه ، بل

---

(١) « عمدة التفسير » للاستاذ احمد شاكر طبع دار المعارف ١٣٧٦/١٩٥٦ ص ١٥.

(٢) « تفسير ابن كثير » ٨٩/٣ عند تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف .

نحمله وقفا . وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته . وكثير من ذلك مما لافائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع بهفي الدين . ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة)(١) .

ونختم هذا الموضوع بإيراد كلمة رائعة لابن عباس رواها البخاري في « صحيحه » وهي قوله رضي الله عنه : (يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ؟ وكتابكم الذي انزل الله على نبيه احدث اخبار الله تقرؤونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم الله ان اهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بايديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله . ليشتروا به ثمناً قليلاً . افلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم احداً قط سألكم عن الذي انزل إليكم)(٢) .



تفسير الطبري

ترجمته(٣) :

هو ابو جعفر محمد بن جرير الطبري . من اهل آمل في طبرستان . ولد سنة ٢٢٤هـ ورحل من بلده وهو في الثانيةعشرة من عمرهطلباً للعلم ،

---

(١) « تفسير ابن كثير » ١٨١/٣ عند تفسير الآيات ٥١ — ٥٦ من سورة الأنبياء .

(٢) « صحيح البخاري » ١٥٨/٣ و ٦٠/٩ .

(٣) انظر في ترجمته : « وفيات الأعيان » و « تاريخ بغداد » و « معجم الادباء » و « طبقات الشافعية » و « تذكرة الحفاظ » و « البداية والنهاية » و « ميزان الاعتدال » و « ولسان الميزان » و « النجوم الزاهرة » و « كشف الظنون » و « تاريخ الأدب العربي » لبروكلمان ٤٥/٣ .

فجاء مصر والشام والعراق ، واستقر ببغداد . وكان من ائمة الحديث اهل الرواية والضبط المتقن . وقد شارك البخاري في كثير من اساتذته ، وروى عن العراقيين والشاميين ، كان ذا ثقافة موسوعية ، فهو كما قلنا من كبار ائمة الحديث ، وهو شيخ المؤرخين ، ومن كبار علماء القراءات ومن فحول علماء العربية . كما كان إماماً مجتهداً صاحب مذهب فقهي . وذكروا ان اصحابه يقال لهم : الجريرية . وقالوا : إن مذهبه شافعي ، وذلك قبل ان ينفرد بمذهب .

وقد اثنى عليه عدد من الافاضل منهم الخطيب البغدادي الذي قال فيه : (جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من اهل عصره) . وكان من الاتقياء الصالحين . وكان ذا اسلوب رفيع متين . وله شعرحسن . توفي سنة ٣١٠ هـ ببغداد .

تفسيره : كتابه من اهم كتب التفسير وسنورد بعض الملاحظات :

١ ـ عنوان الكتاب هو « جامع البيان من تأويل آي القرآن » .

ويدل هذا العنوان على ان هذا التفسير جاء بعد تفاسير عديدة ، كما يدل ايضاً على انه كتاب موسع . وتذكر كتب التراجم قصة تأليف هذا الكتاب ، ونحواها : ان ابا جعفر الطبري قال لاصحابه : اتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون الف ورقة . فقالوا : هذا مما تفنى الاعمار قبل تمامه ، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة(١) .

٢ ـ من المعروف المشهور ان كتاب ابن جرير من كتب التفسير بالمأثور ، غير ان هناك بعض العلماء ينكرون ذلك الراي ، ومنهم الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور الذي يقول :

(وإن الذين يعتبرون تفسير الطبري تفسيراً اثرياً ، او من صنف التفسير بالمأثور إنما يقتصرون على النظر إلى ظاهره بما فيه من كثرة الحديث والإسناد ، ولا يتدبرون في طريقته وغاياته التي يصرح بها من

---

(١) « المنتظم » لابن الجوزي ١٧١/٦ و « تاريخ بغداد » ١٦٣/٢ .

إيراد تلك الاسانيد المصنفة المرتبة الممحصة)(١) .

والحق أن تفسيره بالإضافة إلى غناه بالآثار والاحاديث يتعرض لتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض ، وذكر الإعراب والاستنباط .

٣ ـ كان تفسير الطبري مفقوداً منذ قرون او في حكم المفقود .. وظل كذلك إلى ان عثر على نسخة مخطوطة لدى الأمير حمود آل الرشيد من أمراء حائل في نجد ، وقد طبع عليها الكتاب(٢) لأول مرة ، ثم طبع بعد ذلك عدة طبعات . وقد شرع الاستاذ العلامة محمود محمد شاكر منذ سنة ١٣٧٤ هـ بطبعه طبعة جديدة هي غاية في الروعة والاتقان . وصدر منها حتى الآن ١٦ جزءاً .

٤ ـ اثنى العدد الغفير من العلماء في مختلف العصور على هذا الكتاب ومن ذلك قول الإمام المحدث الكبير ابن خزيمة : (نظرت فيه من اوله إلى آخره ، فما اعلم على أديم الأرض اعلم من ابن جرير)(٣) ومن ذلك قول ابي عمر الزاهد غلام ثعلب : (قابلت هذا الكتاب من اوله إلى آخره فما وجدت فيه حرفا خطأ في نحو او لغة)(٤) وهو من التفاسير القديمة التي وصلت إلينا ، ومن احسنها ترتيباً .

٥ ـ كتب مقدمة طويلة جداً ، وهي في حد ذاتها كتاب مستقل . وقد تحدث فيها عن وسائل المفسر التي يجب عليه ان يحصل عليها ويتقنها . وكتب فيها فصلاً في الكلمات التي اتفقت فيها الفاظ العرب والفاظ غيرهم من بعض اجناس الامم ، اي في الألفاظ القرآنية التي ليست بعربية على ما يرى آخرون ، وخصص فصلا مطولاً فسر فيه حديث الأحرف السبعة التي نزل القرآن عليها .

وقد ذكرنا رأيه في بحث القراءات . وكتب فصلا في معنى قوله

---

(١) « التفسير ورجاله » ص ٣٦ .

(٢) « التفسير والمفسرون » ٢٠٨/١ ينقل ذلك عن « المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن » ص ٨٦

(٣) « تاريخ بغداد » ١٦٤/٢ .

(٤) مقدمة الاستاذ محمود شاكر لتفسير الطبري ١٢/١ .

صلى الله عليه وسلم : « انزل القرآن من سبعة ابواب الجنة » ، وكتب فصلاً في المقدمة يهاجم فيه أولئك الذين يفسرون القرآن بآرائهم ، وتكلم في الحض على تفسير القرآن وتعلمه ، وكتب فصلاً في الرد على منكري القول في تأويل القرآن ، وفصلاً في المفسرين المحمودين والمذمومين ، وفصلاً في تأويل اسماء القرآن وسوره وآيه ، وفصلاً في تأويل اسماء الفاتحة ، ثم فسر الاستعاذة والبسملة .

وقد استغرقت المقدمة ما يزيد على ١٣٠ صفحة .

٦ ـ يمتاز هذا الكتاب بالمنهجية ، فلقد درج المؤلف على خطة محكم الكتاب من أوله إلى آخره .

فهو يضع عنوانـا للآية كما يأتي : القول في تأويل قوله جل ثناؤه كذا ...) ا .

ثم يفسر الآية بعد ان يسردها ، ويبين المراد منها ، ويولي بيان الصلة بين الآية والآية اهتماماً كبيراً ، حتى يتضح الترابط في السياق والموضوعات ، ويلجأ إلى شرح الآية بما ورد في معناها من القرآن في مواضع أخرى منه ، وله جولات في بعض المفردات اللغوية جيدة ، إذ يبين المعنى الاصلي للمفردة ، ثم يبين المعنى المنقول إليه مع بيان مناسبة النقل . ثم يورد اقوال المفسرين من الصحابة والتابعين والعلماء في تفسيرها متصلة بالاسانيد إلى اصحابها ، ويرجح بينها ، ويختار واحداً منها يعتمده ، ويناقش من يخالفه في تفسير الآية على الوجه الذي اختاره . وعنده عبارات يكثر من ترديدها ، سأورد بعضها فيما يأتي :

(القول في تأويل قوله جل ثناؤه) ـ (اختلف اهل التأويل في ...)

(واولى هذه الاقوال بالصواب واشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة قول من قال) ـ (ذكر من قال ذلك) ـ (وبمثل ما قلنا قال اهل التأويل) ـ (وبنحو ما قلنا قال اهل التأويل) ـ (وبنحو الذي قلنا في ذلك قال عدد من اهل التأويل ذكر من قال ذلك) .

٧ ـ والمؤلف في آرائه التي يوردها في تفسيره واضح الشخصية ، جازم غير متردد ولا مقلد ، وهو ينتقد أولئك الذين يبحثون فيما لا فائدة منه ، ويعرض بهم كثيرا ، ويقف عند الحد الذي تدل عليه الآية ، ولا يجاوزه الى اقوال لا ينفع العلم بها ، ولا يضر الجهل بها ، فمن ذلك قوله في

تحديد البعض الذي ضرب به قتيل بني إسرائيل فقام حيا : (والصواب من القول عندنا في تأويل قوله (**فقلنا اضربوه ببعضها**)[1] ان يقال : امرهم الله جل ثناؤه ان يضربوا القتيل ببعض البقرة . ليحيا المضروب ، ولا دلالة في الآية ، ولا في خبر تقوم به حجة على اي ابعاضها التي امر القوم أن يضربوا القتيل بها . وجائز ان يكون الذي امروا ان يضربوه هو الفخذ ، وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف وغير ذلك من ابعاضها ، ولا يضر الجهل باي ذلك ضربوا القتيل ، ولا ينفع العلم به مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله)[2] .

ومن ذلك رايه في تحديد الطعام الذي كان على المائدة التي نزلت استجابة لدعوة عيسى عليه السلام : (**قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لاولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين**)[3] .

قال المؤلف بعد ان أورد أقوال العلماء في الذي كان على المائدة : (واما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال : كان عليها ماكول ، وجائز ان يكون سمكاً وخبزاً ، وجائز أن يكون كان ثمرا من ثمر الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولا ضار الجهل به ، إذا اقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل)[4] .

وشخصية المؤلف ذات الجوانب الجذابة جعلت كتابه مرجعاً مهماً لعدد من ذوي الاختصاص ممن يريد التفسير .

إن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية ، وترجيحاته لما يراه صوابا من الآراء والأقوال المختلفة ، واعتماده على خطة منهجية سليمة ، ومقاييس علمية ولغوية جعلت لكتابه من القيمة ما ليس لكتاب آخر ، واعطت مكانة لكتابه لاتقل عن مكانة الآثار والروايات والآثار الحديثية .

---

(1) سورة البقرة : ٧٣ .

(2) « تفسير الطبري » ٢٣١/٢ تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر .

(3) سورة المائدة : ١١٤

(4) « تفسير الطبري » ٢٣٢/١١ تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر .

٨ ــ أسلوبه أسلوب مبين جزل فصيح يمتع قارئه ويفيده . وليس من شك في أن أسلوبه يحتاج من دارسه إلى أناة في قراءته حتى يكون قادراً على استيعاب ما جاء فيه . وقد ذللت طبعة الأستاذ شاكر كثيرا من مصاعبه .

يقول الاستاذ محمود شاكر : (كان يستوقفني في القراءة كثرة الفصول في عبارته ، وتباعد أطراف الجمل ، فلا يسلم لي المعنى حتى أعيد قراءة الفقرتين منه مرتين أو ثلاثا ، وكان سبب ذلك أننا ألفنا نهجا من العبارة غير الذي انتهج أبو جعفر ، ولكن تبين لي أيضاً أن قليلا من الترقيم في الكتاب خليق أن يجعل عبارته أبين)(١) .

٩ ــ وهو في كتابه نصير لأهل السنة من ناحية الاعتقاد . وكثيرا ما يرد على القدرية والفرق الضالة .

١٠ ــ ويعنى بالقراءات فيوردها . ويوازن بينها ، وقد يرد بعضها أو يرجح بعضها على بعض ، وهو في تصديه لهذه الناحية يدل على معرفة واسعة بالقراءات ، وقد سبق أن ذكرنا أنه ألف فيها كتابا خاصاً .

١١ ــ يشتمل هذا الكتاب على عدد كبير من الاحاديث والآثار المسندة، وكثير منها صحيح ، وفيها الضعيف أيضاً ، ولكن المؤلف بذكره لأسانيدها يخرج من المسؤولية والعهدة ، وقد أشار السيوطي في « الاتقان »(٢) إلى مواضع الضعف في مرويات ابن جرير التفسيرية .

وهنالك من جملة المرويات عدد كبير من الإسرائيليات ، ولعل ذلك ناتج عن اتساع معارفه التاريخية يقول الأستاذ شاكر : (ولما رأيت أن كثيرا من العلماء كان يعيب على الطبري أنه حشد في كتابه كثيرا من الرواية عن السالفين الذين قرؤوا الكتب وذكروا في معاني القرآن ما ذكروا من الرواية عن أهل الكتابين السالفين : التوراة والانجيل ــ احببت أن أكشف عن طريقة الطبري في الاستدلال بهذه الروايات رواية رواية ، وأبين كيف أخطأ

---

(١) مقدمة الاستاذ محمود شاكر لتفسير الطبري ١١/١

(٢) « الاتقان » ٢٢٤/٢

الناس في فهم مقصده . وانه لم يجعل هذه الروايات قط مهيمنة على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . واحببت ان ابين عند كل رواية مقالة الطبري في إسنادها : وانه اسناد لا تقوم به حجة في دين الله ولا في تفسير كتابه ، وان استدلاله بها كان يقوم مقام الاستدلال بالشعر القديم . . .)[1] .

هـذا وقـد تولى الأستاذ المحـدث احمـد شاكـر التحقيق في اسانيد الروايات والأحاديث وذكر درجتها في الاجزاء الأولى ثم تابع عمله اخوه الأستاذ محمود .

١٢ ـ يورد المؤلف اقوال ائمة الفقه في آيات الاحكام ، وينفرد احيانا ببعض الآراء التي تخالفهم مؤيدا رايه بالحجة القاطعة . ويبحث ذلك بحثا فقهياً رصيناً ، وكيف لايكون كذلك وهو إمـام صاحب مذهب . وكان في ابحاثه الفقهية يعير الإجماع اهمية كبيرة .

١٣ ـ يورد المؤلف اقـوال النحويين في تخريـج بعض التراكيب القرآنية ، وكثيرا ما يجعل التخريج النحوي الراجح توجيهـا للقراءة . وكثيرا ما يورد إعرابا لمواضع في الآيات ، وأوزاناً صرفية لبعض الكلمات ، ويستشهد لما يذهب اليه بالشعر الجاهلي والاسلامي ، وكذلك في رده على مخالفيه . وقد اعد الأستاذ شاكر فهرساً للمباحث النحوية في آخر كل جزء من الأجزاء التي صدرت .

ولذلك فان في البحوث التي وردت في كتابه ثروة علمية ضخمة جدا .

١٤ ـ يمتاز هذا الكتاب بتأثيره الواسع الضخم على كل الكتب التي الفت بعده ، حتى اضحى كثير منها عيالاً عليه ، واعتمد عليه كل من جاء بعده ، وقد كان هذا التأثير في القديم والحديث كما اسلفنا ، وفي العصر الحاضر اهتم به المستشرقون والعلماء المسلمون .

ويبدو أن كتاب ابن جرير كان مصدرا للتاليف عند المتقدمين ، فبعضهم يختصره ، وبعضهم يستخرج منه كتباً ؛ كما فعل أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي الأندلسي المتوفى سنة ٤١٩ هـ . . فقد استخرج من

---

(١) انظر مقدمة الاستاذ شاكر من « تفسير الطبري » ١٦/١ ـ ١٧ وانظر تعليقه ٤٥٣/١ ـ ٤٥٤

تفسير الطبري كتاب « اختصار غريب القرآن » والف كتاب « مختصر من تفسير الامام الطبري » وقد طبع الكتاب الاخير في سلسلة (تراثنا) في الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م اقتصر فيه مؤلفة من ابرز الروايات في نظره ، واستغنى عن الاشارة الى تعدد القراءات والاعراب والاشتقاقات والاخبار .

١٥ ـ كان كتابه نواة لما وجد بعد من التفسير بالراي .

* * *

كتب اخرى في التفسير بالمأثور :

هناك كتب عديدة من كتب التفسير بالمأثور سنقتصر على إيراد اسماء ثلاثة كتب منها ، ونخص احدها ـ وهو تفسير ابن كثير ـ بكلمة موجزة . اما هذه الكتب فهي : « معالم التنزيل » للبغوي الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ هـ و « تفسير ابن كثير » لإسماعيل بن عمرو المتوفى سنة ٧٧٤هـ و « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .

كتاب « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير :

ابن كثير هو عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمرو ن كثير . ولد سنة ٧٠٠ هـ ببصرى جنوبي دمشق ، ونشأ يتيماً بدمشق ، ورزق حافظة نادرة ، فاشتغل بالحديث ، ودرس الفقه ، والف فيه ، وشرع في كتاب كبير في الاحكام لم يكمل . وانكب على كتب التفسير ، والف كتابه الذي نحن في صدد الحديث عنه الآن ، وترك كتاباً في التأريخ سماه « البداية والنهاية » وهو كتاب جيد .

لازم الحافظ المزي وتزوج بنته ، واخذ عن ابن تيمية ، واحبه ، واثنى عليه في « البداية والنهاية » . توفي سنة ٧٧٤ هـ .

واما كتابه فهو من اشهر كتب التفسير بالمأثور ، واكثرها شيوعاً وانتشارا في الناس ، وزادت المطابع في عصرنا من شهرته ، فطبع اكثر من

مرة ، مستقلا حينا ، ومع تفسير آخر(١) حينا آخر . وعنوان الكتاب هو « تفسير القرآن العظيم » ، وقد قدم له بمقدمة طويلة قيمة تحدث فيها عن اصول التفسير ، ويبدو انه استفاد فيها كثيراً من كلام شيخه ابن تيمية في رسالة له في اصول التفسير .

وطريقته ان يذكر الآية او الآيات ، ثم يفسرها بعبارة سهلة ، ويورد بعض الآيات التي توضح الآية إن وجدت ، وهو على ذلك حريص جدا ، وهذا شأنه في تاريخه ايضا عند تعرضه لقصص الانبياء ، ثم يورد الأحاديث التي تتعلق بالآية . ثم يأتي بأقوال الصحابة والتابعين ، يورد ذلك كله بأسانيده . وقد يرجح بعض الأقوال على بعض ، وقد يرد بعض الاقوال . وهو يورد في تفسيره نادرا بعض الاسرائيليات ، وقد ينبه احياناً الى منكراتها ، وقد جمع الاستاذ احمد شاكر في مقدمة « عمدة التفسير » طائفة من أقواله التي تعبر عن رأيه في الاسرائيليات . ويتعرض إلى الموضوعات الفقهية وقد يدخل في ابحاث فقهية موسعة . وهو متأثر الى حد كبير بتفسير ابن جرير (فانه لم يقتصر على نقل الآثار بل نقل كلام ابي جعفر بنصه في مواضع متفرقة)(٢) وقد شرع الأستاذ احمد شاكر بتهذيبه في كتاب سماه « عمدة التفسير » وصدرت منه أجزاء خمسة ولكنه توفي قبل ان يتمه رحمه الله .



---

(٢) طبع مع « تفسير البغوي » .

(١) انظر مقدمة الاستاذ محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٢ .

الفصل الثالث

التفسير بالرأي

سبق أن ذكرنا اتجاهين قاما في التفسير هما : التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي ، وقد فصلنا القول في التفسير بالمأثور في الفصل السابق، ونريد أن نبحث في هذا الفصل عن التفسير بالرأي . ونود أن نذكر هنا أن خلافاً شديداً قام بين العلماء حول هذا التفسير ، فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه ، والذي نراه هو أن تحديد المراد من كلمة (الرأي) يزيل كثيراً من الخلاف والجدل . لأن كلا الفريقين يفهم كلمة الرأي فهماً لا يوافقه عليه الفريق الآخر .

أما **المانعون فقد** ذهبوا الى حظره وتحريمه . واستدلوا على ذلك بأدلة اهمها :

١ ـ قالوا : إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم ، وهو غير جائز .

٢ ـ واستدلوا بالآية الكريمة (**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**)(١) وفهموا من الآية أن البيان للرسول ، وليس لغيره إلا أن ينقل قوله بعد تحري ما صح . وواضح ان مثل هذا القول يخرج من دائرة المأثور ما يروى عن الصحابة ، وان كانت كل كتب التفسير بالمأثور تمتلىء بأقوال الصحابة بل والتابعين .

٣ ـ واستدلوا بالحديث « اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم . فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »(٢) وبالحديث : من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد

---

(١) سورة النحل : ٤٤

(٢) أورده الترمذي في باب ماجاء في الذي يفسر القرآن برأيه (انظر « تحفة الاحوذي » ٦٥/٤ ، وفي كتاب الترمذي رواية اخرى هي « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . وقال : حديث حسن صحيح .

اخطأ »(١) .

٤ ـ واستدلوا بامتناع كثير من الصحابة والسلف من القول في تفسير القرآن ، كأبي بكر رضي الله عنه وسعيد بن المسيب والشعبي والاصمعي .

واما **المجيزون** فقد ناقشوا هذه الأدلة وبينوا انها لا تنطبق عليهم كما يأتي :

١ ـ قالوا : ليس التفسير بالاجتهاد قولاً على الله بغير علم . وإنما هو استخدام العقل في فهم كتاب الله العظيم . وقد جعل الله للمصيب اجرين وللمخطىء أجراً واحداً . واحتجوا بالحديث المشهور في كتب الأصول وهو (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل معاذا حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم ؟ قال معاذ : بكتاب الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فان لم تجد ؟ قال معاذ : فبسنة رسول الله . قال فان لم تجد ؟ قال معاذ : اجتهد رأيي . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله)(٢) .

٢ ـ واجابوا عن الاستدلال بالآية (**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم**)(٣) بأن في الذي ورد بيانه عنه صلى الله عليه وسلم كفاية عن كل تفسير ، وأما الذي لم يرد عنه صلى الله عليه وسلم بيانه ففيه مجال

---

(١) أورده الترمذي من حديث جندب بن عبد الله (٦٥/٤) ولكن الحديث ضعيف ، لان في سنده سهيل بن أبي حزم ، وهو ضعيف (وانظر كتاب « الباعث على الخلاص » للحافظ العراقي بتحقيقنا ص ١٤٧ ـ ١٤٨) .

(٢) رواه أحمد وابو داوود والترمذي وابن ماجه . وأورده ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » ص ١٢٦ ونقل الشيخ ناصر الالباني عن البخاري انه قال فيه : انه حديث منكر (انظر كتابنا « الحديث النبوي » ص ٣٦) وأخرج هذا الحديث من طرق الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » ١٨٨/١ ـ ١٨٩ وصححه وذكر ان أهل العلم قد تقبلوه واحتجوا به ، واخرجه ابن كثير في مقدمة « تفسيره » ٣/١ وقال : (وهذا الحديث في المسند والسنن باسناد جيد كما هو مقرر في موضعه) .

(٣) سورة النحل : ٤٤

لأن يعمل اهل العلم الاكفاء تفكيرهم فيه ونقفوا على اسراره . وقالوا : إنه لا تعارض بين الآية والتفسير بالرأي .

٣ ـ وأجابوا عن الحديثين بأن النهي محمول على من قال برايه في مثل متشابه القرآن مما لا يعلم إلا عن طريق النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقالوا : إن المراد من كلمة (الرأي) الواردة في الحديثين هو الراي الذي يغلب على صاحبه من غير دليل . والهوى الذي يميل اليه المرء ولو كان الحق في غير جانبه . وقالوا : إن النهي محمول على من يقول في القرآن بظاهر العربية من غير ان يرجع إلى اخبار الصحابة الذين شاهدواتنزيله . ونقلوا لنا تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم لآيات القرآن الكريم ومن غير أن يتقيد بشروط التفسير . واضافوا الى ذلك ان الحديث الثاني حديث ضعيف لا يحتج به اصلا .

٤ ـ وقالوا في إحجام من احجم من الصحابة والسلف رضوان الله عليهم عن التفسير بالراي : إنما كان منهم ورعا . ويمكن ان يكون إحجامهم مقيدا بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه ، ويمكن ان يقال ايضا : إنما احجم من احجم منهم لأنه لم يكن يتعين للاجابة ، وكان هناك اناس يقومون بهذه المهمة ، وإلا فان لم يكن هناك سواه لشرح كتاب الله وجب عليه التفسير حتى لا يكون كاتماً للعلم .

* * *

ولم يكتف هؤلاء العلماء برد ادلة المانعين ، وإنما احتجوا لقولهم بأدلة عديدة سنقتصر على ايراد اهمها :

١ ـ قالوا : إن القرآن نفسه يأمر بالتدبر والاستنباط ، واستشهدوا بقوله سبحانه : **(ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم)**(1) وبقوله تعالى : **(افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب**

---

(1) . سورة النساء : ٨٣

اقفالها)[1] وبقوله عز وجل : (**كتاب انزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**)[2] .

ولا يكون التدبر إلا بالتأمل الذي يعتمد على الفهم وإعمال الفكر والاجتهاد . وبذلك يكون القرآن نفسه آمراً بالتفسير بالرأي . فتدبر القرآن متوقف على فهمه ، ولا نستطيع أن نفهم الآيات التي لم يرد في شرحها أثر أو حديث الا بأن نجتهد في تفسيرها ضمن الشروط التي نص العلماء على ضرورة توافرها .

٢ ـ لو كان الاجتهاد بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً ، ولتعطلت بسبب ذلك كثير من الاحكام الشرعية .

٣ ـ فسر الصحابة القرآن ، واختلفوا في تفسيره على وجوه ، ولم يسمعوا كل شيء قالوه من النبي صلى الله عليه وسلم . بل هناك من الأقوال ما سمعوه ، وهناك ما اجتهدوا فيه . هذا ومن المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاؤه لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

* * *

ويعتبر قول الامام الراغب الاصفهاني الذي سنورده قولا منصفا قرر الحق بأجلى بيان . وذلك حيث يقول : (فمن اقتصر على المنقول اليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج اليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى (**ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**)[2] وكما سبق أن قلت في مطلع هذا الفصل : إن تحديد مدلول كلمة (الرأي) يحسم الخلاف ، والنظر المتأني العميق في دوافع كل من الفريقين يظهر تقارب وجهات النظر بينهما ، حتى يكاد يبقى الخلاف بصورة لفظية ، (فالرأي) عند أهل الأثر هو الهوى الذي لا يضبطه ضابط ، وهو بهذا المعنى مكروه من الفريقين ، بينما (الرأي) عند القائلين بالتفسير

---

(١) سورة محمد : ٢٤

(٢) سورة ص : ٢٩

بالراي هو الاجتهاد المقيد بقيود وإعمال الفكر في كتاب الله على ضوء هداه وشرح رسول الله .

* * *

اشترط العلماء القائلون بالتفسير بالراي أن تتوافر في المفسر القدرة التي تمكنه من التفسير ؛ ولا بد أن يكون المفسر ملماً بعلوم اللغة وعلوم القرآن والعلوم الاسلامية والعلوم الاجتماعية العامة ؛ هذا بالاضافة إلى اشتراطهم في المفسر ان يكون ورعاً يخاف الله وذا إمكانات عقلية جيدة مما ذكرناه في مبحث أصول التفسير .

إذا كان التفسير بالراي ضمن هذه الحدود فان الحق يقضي بقبوله وإقراره . وهو الشيء الطبيعي الذي يقتضيه التفاعل مع الكتاب الكريم. واستنطاقه في شؤوننا المعاصرة . ولا بد من الاشارة الى ان اتباع الفرق الضالة التي عملت في التفسير كانت تعتمد التفسير بالراي لتنفذ عن طريقه إلى نشر ضلالاتها وآرائها المنحرفة .

وقد يكون كلام الذين انكروا التفسير بالراي إنكارا عنيفاً ؛ قد يكون كلامهم نتيجة لاطلاعهم على كلام هؤلاء المنحرفين والله أعلم .

* * *

تفسير الرازي :

كتب التفسير بالراي كثيرة من اهمها : « الكشاف » و « تفسير الرازي » و « تفسير البيضاوي » و « النسفي » و « الخازن » ... وسندرس فيما يأتي تفسير الرازي :

ترجمته :

هو محمد بن عمر التيمي البكري ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازي ولد في الري سنة ٥٤٤ هـ ونسب اليها ؛ وهو قرشي النسب .

رحل في طلب العلم . واستطاع ان يبلغ فيه المنزلة العالية . فقد كان متفرقا في العلوم العقلية والنقلية . وكان طبيباً مشهورا . وكان واعظا بارعاً ، وكان يحسن الفارسية ، وله شعر بها وبالعربية . وكان صاحب وقار ، له هيئة جميلة ، اذا ركب مشى معه نحو الثلاثمائة . توفي في هراة سنة ٦٠٦ هـ .

الف كتباً كثيرة في عدد من العلوم . وله طريقة في التاليف خاصة به . لم يسبق اليها . ولقد احصى مترجموه كتبه فكانت شيئاً كثيرا . ذكر له الاستاذ محيي الدين عبد الحميد خمسين مؤلفاً عربياً واشار إلى مؤلفاته بالفارسية(١) وزاد الأستاذ عبد الله الصاوي على ما ذكر محيي الدين ٢٣ كتابا .

كتاب ((مفاتيح الغيب)) :

١ ـ جاء الرازي في زمن اصبحت فيه الثقافة الاسلامية فلسفة مستقلة متميزة ، حيث ضعف سلطان المعتزلة . ولم يعد الفلاسفة الذين هم امتداد الفلسفة اليونانية هم وحدهم في الميدان .

وقد تاثر الرازي بعصره وبهذه الفلسفة ، كما تأثر ببعض الشخصيات امثال الغزالي والجويني والباقلاني ، ولم يلبث ان أصبح الرازي احد اساطين هذه الثقافة الاسلامية ، لقد تطلع الى ان يضع القرآن العظيم موضع الدراسة والبحث والتحليل ، على منهج يكشف تفوق القرآن على سائر الطرائق الفلسفية . وانفراده بالقدرة على هداية البشر الى غايات الحكمة .

قال الرازي في وصيته(٢) التي أملاها قبل موته :

(لقد اختبرت الطرق الكلامية . والمناهج الفلسفية ، فما رايت فيها

---

(١) انظر مقدمة الاستاذ محيي الدين لتفسير الرازي طبع المطبعة المصرية سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣) .

(٢) انظر الوصية كاملة في آخر ترجمته التي كتبها الاستاذ عبد الله الصاوي في آخر الجزء ٣٢ من « تفسير الرازي » ص ٢١٥ .

فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك الحقائق العميقة ، والمناهج الخفية ». ونقل ابن الصلاح عن الطوعاني عن الرازي قريباً من هذا الكلام[1] .

ومن اجل ذلك كان يرى انه ينبغي على الناس ان يلتفتوا الى القرآن وحده ، ليجدوا فيه الحق ... وقد وضع لهم تفسيره هذا ليكون معواناً لهم على تبصر هذه الحكمة السامية في الهداية .

٢ ـ وطريقة الرازي في التفسير : ان يفسر الآية من نواح متعددة ، لغة وبلاغة وفقهاً وما الى ذلك . ثم يأتي بعد ذلك الى الاستنباط ، فيذكر المسائل التي يمكن ان تبحث بما يوحيه النص ويشير اليه .

وكان مولعاً بكثرة الاستنباطات . يدل على ذلك قوله في مقدمة تفسيره :

« اعلم انه مر على لساني في بعض الأوقات ان سورة الفاتحة يمكن ان يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة ، فاستبعد هذا بعض الحساد ، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب » .

٣ ـ يبدو انه لم يؤلف كتابه متسلسلا ، على انه كتاب واحد ، ولم يتبع في تفسير السور ترتيب المصحف ، يستنتج هذا من التواريخ التي وضعها المؤلف في نهاية عدد من السور .

فقد ذكر انه انتهى من سورة في تاريخ معين ، ثم ذكر في السورة التي ترتيبها في المصحف بعدها انه انتهى من تفسيرها في تاريخ يسبق ذلك التاريخ .

وهكذا فكأنه كان يعتبر تفسير كل سورة بحد ذاته كتاباً مستقلا . وترى ذلك واضحا في مقدمة سورة الفاتحة .

٤ ـ في الكتاب كلام يتصل بالمؤلف واحواله في مناظراته ورحلاته ، فمن ذلك مثلا ما جاء في نهاية سورة يونس حيث قال :

---

(١) « شذرات الذهب » ٥/٢١ ـ ٢٢ .

(يقول جامع الكتاب : ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الاصم رجب سنة إحدى وستمائة ، وكنت ضيق الصدر ، كثير الحزن ، بسبب وفاة الولد الصالح محمد ، افاض الله على روحه وجسده انوار المغفرة والرحمة ، وانا التمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين ، ان يخص ذلك المسكين بالدعاء والرحمة والغفران ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خير خلقه محمد ، وآله وصحبه أجمعين) .

ومن ذلك ذكر رحلته الى خوارزم . وإيراد مناظرة جرت له هناك مع بعض النصارى . جاء في تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران **(فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم)**(١) (اتفق لي حين كنت بخوارزم أن اخبرت انه جاء نصراني يدعي التحقيق والتعمق في مذهبهم ، فذهبت اليه وشرعنا في الحديث ...) وساق جدله في مسألة الوهية المسيح والسؤال على بطلان ذلك بأوجه قال في ختام تقريرها :

(وعند ذلك انقطع النصراني ولم يبق له كلام) .

٥ ــ لم يكن المؤلف متعصباً لمذهبه الشافعي ، فهو مثلا عندما تعرض لآية الصدقات قال : (هذه الآية لا دلالة فيها على قول الشافعي ...) .

٦ ــ يمتاز هذا التفسير بالبحوث الواسعة الفياضة في نواحٍ شتى من العلم ، حتى صدقت كلمة ابن خلكان : (إنه جمع فيه كل غريب وغريبة) .

٧ ــ يذهب بعض العلماء (٢) إلى انه لم يتم الكتاب بنفسه ، واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

ــ انهم وجدوا في الكتاب بعض المقاطع التي تدل على ان كاتبها غير الفخر الرازي ، فمن ذلك ما جاء عند قوله تعالى في سورة الواقعة **(جزاء بما كانوا يعملون)**(٣) : (المسألة الاولى اصولية ذكرها الامام فخرالدين رحمه

---

(١) سورة آل عمران : ٦١

(٢) من هؤلاء العلماء ابن حجر في « الدرر الكامنة » ج ١ ص ٢٠٤ ، وابن خلكان في « وفياته » وابن قاضي شهبة وحاجي خليفة في « كشف الظنون » .

(٣) سورة الواقعة : ٢٤

الله في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها) ثم قال : (وقد اجاب عنه الامام فخر الدين ـ رحمه الله ـ بأجوبة كثيرة ، واظن به انه لم يذكر ما اقوله فيه) .

ـ في أول الكتاب لا يحيل المؤلف قارئه على بحث تقدم . وتكثر هذه الاحالات في القسم الأخير من الكتاب .

ولكن الشيخ ابن عاشور يرى رأيا آخر عبَّر عنه بالكلمات التالية : (إن الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير : تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي . وبقي شيء في الأمالي والمسودات بيد بعض تلاميذه . فاقبل على تصنيفه وتحريره . والحق في ذلك الفرع بالاصل . فالكتاب بروحه هو للرازي كله . وبتحريره هو من وضعه في الأول ووضع تلميذه . . في الآخر)[1] .

وإدراج بعض الكلام من النساخ في كثير من الكتب أمر موجود بكثرة في كتب ثقافتنا الاسلامية ، وهو هنا محتمل الوجود جدا ؛ فليس بعيدا ان يكون الناسخ من أهل العلم ؛ وقد زاد بعض العبارات بما لا يخرج بالكتاب عن اصله وروح مؤلفه .

٨ ـ قيمة الكتاب تبدو في انه أول محاولة ناجحة لانتزاع علم التفسير من الطائفتين اللتين احتكرتا هذا العلم وهما : طائفة المحدثين وطائفة الأدباء المعنيين بالبلاغة ؛ وهذه المحاولة مكنت طائفتين أخريين ان تشتغل فيه وهما المختصون في أصول الدين (التوحيد وعلم الكلام) والمختصون في أصول الفقه .

والرازي من اهل هذين الفنين كما رأينا ، وقد جعل أتباعه من العلماء في هذين الحقلين يخوضون في التفسير ، وبذلك اتجهت كتب التفسير وجهة جديدة .

٩ ـ لا يترك مسألة من مسائل الاعتزال تتصل بما هو في صدد تفسيره إلا ويعرضها ويرد عليهم ، وينقض حججهم ، ويقرر مذهب اهل السنة .

---

(١) « التفسير ورجاله » للشيخ محمد بن عاشور ص ٩٠ .

ويتعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة ويرد عليهم ، وإن كانت طريقته في البحث على نمطهم واسلوبهم ؛ ويأخذ ابن حجر عليه تقصيره في رد أقوال اهل الضلالات بعد ان يعرضها عرضاً جيداً[1] .

١٠ ـ يكثر من الاستطراد إلى العلوم الكونية والفلكية .

١١ ـ يهتم بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض ، وبين السور ايضاً ؛ وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة ؛ بل كثيراً مايذكر أكثر من مناسبة .



(١) « لسان الميزان » ٤٢٧/٤

آية وحديث

الرســـول عند الله وعند الناس

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

[سورة الإسراء : ٩٤ - ٩٥]

صدقَ الله العظيم

عن تميم بن أُسَيْدٍ رضي الله عنه قال «انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يخطُبُ فقلت : يا رسولَ الله رجلٌ غريبٌ جاءَ يسألُ عن دينِه لا يدري ما دينُه؟ فأقبلَ عليّ رسولُ الله ﷺ وتركَ خطبتَه حتى انتهى إليّ فأُتِيَ بكرسيّ فقعد عليهِ وجعلَ يعلِّمني مما علَّمه الله ، ثم أتى خطبتَه فأتمّ آخِرَها»[1].

ذاك هو رسولُ الله عليه الصلاة والسلام إلى النـاس، رجـلٌ منهـم

(١) المسند (ط. المكتب الاسلامي) ١/ ١٢٢ و١٣٩ و٥/ ٨٠، وانظر رياض الصالحين ص ٢٦٧ باب التواضع.

يحدثونه ويحدثهم، يسألونه ويجيبهم، يطلبون منه أن يعلمهم دينهم فيعلمهم، لا حجاب بينه وبينهم، يعرف أنه بشر مثلهم، ويعرفون أنهم بشر مثله، وأن الله ربه وربهم قد أوحى إليه قوله ﴿ قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ أنّما إلاهكُم إلهٌ واحدٌ فمن كانَ يرجو لقاءَ رَبِّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشرِكْ بعبادة ربِّه أحداً ﴾.

فهذا الشأنُ إذن مُقَدَّرٌ بحكمةِ اللهِ جَلَّت قدرتُه، وموصوفٌ بأمرٍ منه سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ إنّما أنا بشرٌ مثلُكم ﴾، والعلاقةُ بين الرسولِ والمرسِل عزّ وجلّ عِلاقةٌ واضحةُ المعالم والأبعادِ بقولِه تعالى ﴿ يُوحىَ إليّ ﴾، فليس الأمرُ مرهوناً به ولكنه رهنٌ بمشيئةِ ربِّ العالمين، فهو الذي يوحي إليه، ويُلقي عليه كلماتِه حتى يبلِّغَها للناس.

والرسالةُ التي اصطفاهُ اللهُ من بين البشرِ لإبلاغِها للناس، رسالةٌ مُحدَّدةٌ من العزيزِ المتعال ﴿ أنّما إلاهكُم إلهٌ واحدٌ فمن كانَ يرجو لقآءَ ربِّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً ﴾.. أن يبلِّغَ ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ الناسَ بما أوحى إليه ربُّه، ويهديَهم إلى وحدانيةِ الخالقِ المبدعِ جلّ وعلا، ويدلّهم ـ بما علّمه الله ـ إلى الأعمالِ الصالحات التي تحقق لهم مرضاةَ اللهِ سبحانه يومَ لقائِه في الآخرة.

«إنّا أرسلناكَ بالحقِّ بشيراً ونـذيراً» ذلك هو الرسولُ عند اللهِ وعند الناس، فهو عند اللهِ مُرْسَلٌ بالحقِّ الذي هو أمرُ الله وفرقانُه الذي بيَّنَ فيه للناسِ برحمتِه سُبلَ الهدايةِ والرَّشاد، وهو عند الناسِ رسولٌ من ربِّ العالمين، يبشِّرُهُم برضوان الله ويدلُّهم على ما ينفعهم في دُنياهُم وفي آخرتهم، وينذِّرهم بما أعدّ الله للكافرينَ يومَ القيامةِ جزاءً بما أساءوا في الحياةِ الدنيا.

ولكنْ من الناسِ مَنْ لم يدرك الحكمةَ الإلهيةَ في أن يبعثَ اللهُ رسولاً من البشر، ولا يكون مَلَكاً منَ الملائكةِ، فقال فيهم الله سبحانه ﴿ ومَا منعَ

الناس أن يؤمنوا إذا جآهم الهدى إلاّ أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً»!!..
ولم يكن ذلك منهم إلاّ استكباراً على أمر الله، واستكثاراً على رسول الله ﷺ
أن يكونَ هو ـ وليس واحداً منهم ـ الذي اصطفاهُ ربُّ العِزَّةِ لحملِ شرفِ
الرسالةِ الإلهية، ومِوالِ تلك الحُظْوةِ الكريمةِ عند الله وبين الناس.

وقد يكونُ هذا الاستكبارُ منهم لبعث الله رسولاً من البشر ناتجاً عن عدمِ
إدراكِ الناس لقيمةِ بشريَّتِهم وكرامتِها على الله، فَهُمْ يرونَ ـ في أنفسِهم ـ أنّ البشر
أقلُ شأناً وأهونُ قدْراً من أن يختارَ اللهُ منهم مَنْ يحمل كلماتِه إلى الناس، ورأوا أنّ
الملائكةَ أوْلى بذلك منهم. ونسوا أنّ اللهَ قالَ في كتابه العزيز ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكة
اسجدوا لآدمَ فسجدوا ﴾.

فليس الإنسانُ بهيِّنٍ على الله، وما خلقَهُ سبحانه وتعالى باطلاً، وبعثَ
إلى الناسِ رسولاً منهم مبشراً ونذيراً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فوقف
بين يديه مرتجفاً، فحنَا عليه الرسولُ عليه الصلاة والسلام وقال «لا تخفْ إنما
أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكلُ القديدَ بمكة».

بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، عليك أفضلُ الصلاة والسلام.

كرامة الإنسان

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

[سورة الجاثية : ١٢ ـ ١٥]

صدق الله العظيم

تلك أيها القارىء الكريم كرامةُ الإنسانِ عند ربِّه سبحانه وتعالى، فهو يَحظَى من رعايةِ اللهِ بالقسطِ الوافرِ، الذي يُتيحُ له أن يُسَخِّرَ بها كلَّ موجودٍ مخلوقٍ في هذا الكون، وينتفعَ به في شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى طرفٍ من القوانين التي وضعها اللهُ لتسيير الوجودِ والمخلوقات، ولولا ذلك

الاهتداء لما استطاع الإنسانُ بقدراته المحدودة أن ينتفع بشيء من قُوى الكونِ الهائلة في سمائه وأرضه.

والبحرُ أحدُ مظاهرِ الكونِ الضخمةِ التي سخّرها اللهُ للإنسان، وهداه إلى شيء من سرّ تكوينها وخصائِصها، عرفَ منه هذه الفُلكَ التي تمخُرُ عُبابَه، وتطفو على أمواجِه، «لتجري الفُلْكُ فيه بأمره» فهو - سبحانه - الذي خلق البحرَ بهذه الخصائص، وخلقَ مادّةَ الفلكِ بهذه الخصائص، وأبدعَ جلّت قدرتُه بقية الظواهر الكونيةِ المعينةِ على ذلك، من ظواهـر الضغط الجوي وسرعة الرياح وجاذبية الأرض.. وما إلى ذلك.

وهَدى الإنسانَ إلى هذا كلّه فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحرِ في نواحٍ أخرى «ولتبتغوا من فضلِه» كالصيدِ للطعامِ وللزينة، وكذلك التجارةِ والمعرفةِ والتجربةِ والرياضة.. وسائر ما يبتغيه الحيُّ من فضل الله في البحار.

سَخَّر اللهُ للإنسانِ البحرَ والفلكَ ليبتغي من فضلِ الله، وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام، وعلى التسخير والاهتداء ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾... وبهذه الآيات يوجّهُ اللهُ الإنسانَ إلى الوفاءِ بهذا الحقّ، وإلى الارتباطِ بذلك الأفقِ، وإلى إدراكِ ما بينَه وبينَ الكونِ من وحدةٍ في المصدرِ ووحدةٍ في الاتجاهِ إلى الله.

وليس ذكرُ البحرِ في هذه الآيةِ الكريمةِ إلاّ مثالاً ونموذجاً، فلقد سخّرَ الله للإنسان ما في السماواتِ وما في الأرض من طاقاتٍ وقُوى ونِعَمٍ وخيرات، لذا قال تعالى بعد ذلك ﴿ وسخّرَ لكم مّا في السماواتِ وما في الأرض جميعاً منه ﴾.. فكلُّ شيء في هذا الوجودِ منه وإليه، هو سبحانه مُنشئه ومدبّره.

وفي كلّ ذلك آياتٌ لمن يفكرُ ويتدبر، ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليدِ

الصانعـةِ المدبـرةِ المصرِّفـةِ لظواهـر الـكون. . ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكَّرون ﴾، والفكرُ لا يكونُ صحيحاً وعميقاً وشاملاً إلاَّ حين يتجاوز القوى والطاقـات التـي يكتشِفُ سرَّهـا، إلـى مصــدر هذه القـوى والطاقـات، وإلى القوانين التي تحكمُهُ، وإلى الصلةِ بين هذه القوانين وبين بارئِها وخالِقها عزّ وجلّ.

وبعدَ أن عرفَ الإنسانُ مكانتَه عند الله، وفيمـا سَخَّـرهُ له سبحانـه من بدائعِ الكون. . يتلقى المؤمنونَ هذا التوجيه الكريمَ بالترفُّعِ والاستعـلاءِ وسِعَةِ الأفقِ ورحابةِ الصدر، في مواجهةِ الضعافِ العاجزين الذين لا تتصلُ قلوبُهم بتلكِ المعرفةِ. . ﴿قلْ للذين آمنوا يغفروا للـذين لا يرجـونَ أيامَ اللهِ ليجزي قوماً بما كانوا يكسِبون﴾.

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كأني أنظرُ إلـى رسـولِ الله ﷺ يحكي (أي يُشبِّهُ بالحركةِ والإشارة). . يحكي نبيّاً من الأنبياءِ - صلواتُ الله وسلامُه عليهم - ضربَه قومُه فأدْمَوْه (أي أسالوا دمَه) وهو يمسـحُ الـدم عن وجهِه ويقول «اللهمَّ إغفرْ لقومي فإنَّهم لا يعلمون»[1].

فَهَبْنا - اللهمَّ - معرفةَ بديعِ خَلْقِك، ودُلَّنا على سبلِ طاعتِك، وأسبغْ علينا نعمتَك التي أنعمتْ.

---

(١) أورده الإمام البخاري في كتاب الأنبياء.

المرجع والحكم

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[سورة النساء: ٦٤ ـ ٦٥]

صدق الله العظيم

إن في هذه الآياتِ البيِّناتِ تبياناً لأصلٍ من أصولِ الإسلامِ متين، وركناً أساسياً من أركان الايمان، ألا وهو طاعةُ رسولِ الله ﷺ، واتِّباعُ سُنَّتِه، والاقتداءُ به عليه أفضلُ الصلاة والسلام، واعتبارُ ما أمَرَ بهِ وما نَهَا عنهُ مُتمِّماً لشريعةِ اللهِ سبحانَه التي بيَّنها في كتابِه العزيز.

وما ذلك إلاَّ لأنَّ اللهَ جلَّت قدرتُه قد هَدَى رسولَه الكريمَ إلى الايمانِ

قبل أن يبعثه في الناس رسولاً، وعلّمهُ قبل أن يكلّفه بتعليم قومِه، وأوحى إليه قبل أن يأذن له إبلاغ العالمين، وغفر له ما تقدّم من ذنبِه وما تأخرَ قبل أن يجعله شفيعاً للمؤمنين، حتّى قال تعالى فـ ﴿ قُلْ إن كنتم تحبُّون اللهَ فاتَّبِعوني يُحبِبكُمُ اللهُ ويغفرْ لكم ذنوبكم ﴾.

﴿ وما أرسلنا من رَّسولٍ إلاّ ليطاعَ بإذنِ الله ﴾... ليطـاعَ في أمـرين، الأول هو ما أُوحيَ إليه من ربِّه أن يبلِّغَه للناس، ويهديهم إليه من أحكامِ الله بأوامرِه ونواهيه، والثاني هو ما يأمرُ به الرسولُ وما ينهَى عنه، وما يسلُكه من سلوكٍ ويعملُه من أعمالٍ.. وكلُّ ذلك بإذنٍ من اللهِ، وهُـدىً منه سبحانـه وتعالى في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، فهو كما قالَ الواحدُ القهار ﴿ ومَـا ينطـقُ عن الهَوى إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحَى ﴾.

﴿ ولو أنهم إذ ظَّلموا أنفسَهم جآءوكَ فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهمُ الرسولُ لَوَجدوا اللهَ توَّاباً رَّحيماً ﴾.. ولقد جاءَ في الخبرِ أن هذه الآيةَ نزلتْ في جماعةٍ من المنافقين على عهدِ رسول الله ﷺ أضاعوا على أنفسِهم فرصةَ أن يستغفرَ لهم الرسولُ الكريم، ولكنَّ الله توَّابٌ في كلِّ وقتٍ على من يتوب، واللهُ رحيمٌ في كلِّ وقتٍ على من يؤوب، والذين تناولَهم هذا النصُّ ابتداءً كانت لديهم فرصةُ استغفار الرسول ﷺ لهم.. وقد انقضتْ، وبقيَ بابُ اللهِ مفتوحاً لا يُغلق.

﴿ فلاَ وربِّكَ لا يؤمنونَ حتّى يحكِّموكَ فيما شَجَر بينَهم ﴾، لقد أقسمَ اللهُ بذاتِه العليَّة، مقرِّراً بذلك جلَّ وعلاَ شرطاً أساسياً من شروطِ الإيمان، وحدّاً واجباً من حدودِ الإسلام.. وهو الرجـوعُ إلـى رسـولِ اللهِ ﷺ في كلِّ أمرٍ يُختلفُ فيه، وتتغايرُ فيه وجهاتُ النظر، فالمرجعُ والحَكَمُ عندئذٍ هو رسولُ الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

وبديهيٌّ، وقد أقسمَ اللهُ ذلك القسمَ الجليل، أن تحكيمَ الرسول

الكريم ليس تحكيمَ شخصِه عليه الصلاة والسلام، ولكنَّ المقصودَ هو تحكيمُ سُنَّتِه ومنهجِه، واتّباعُ أحكامِه وآرائه، والاقتداءُ بسلوكِه ومذهبِه، مما نقله إلينا صحابتُه وعترتُه الأكرمون رضوانُ اللهِ عليهم أجمعين، ففي ذلك طاعةٌ للهِ وامتثالٌ لأمرِه في قولِه تعالى ﴿وما آتاكمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكمْ عنه فانتهوا واتّقوا اللهَ إنّ اللهَ شديدُ العقابِ﴾.

وما في اتّباعِ سنّةِ رسولِ الله ﷺ إلاّ كلُّ خيرٍ وصلاحٍ، ففي أقوالِه وأفعالِه عليه الصلاة والسلام المثالُ الذي يُحتذى، والنموذجُ الذي يُقلَّد، والقدوة التي تُتّبع، للوصول إلى رضوان اللهِ سبحانه وتعالى.. ﴿لقد كانَ لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حَسنةٌ لمن كانَ يرجو اللهَ واليومَ الآخِرِ﴾.

ويتمم الله آيته الكريمةَ بقولِه ﴿ثمّ لا يجدوا في أنفسِهم حرجاً مّما قضيتَ ويسلّموا تسليماً﴾، فالاحتكامُ إلى فِعلِ رسولِ الله ﷺ وقولِه، والرجوعُ إلىَ سنّتِه الشريفةِ لا يكونُ تامًّا كاملاً إلاّ إذا رافقه رضى النفسِ، وقبولُ الضميرِ، واطمئنانُ القلب.. حينئذٍ يتكاملُ الإيمانُ بالامتثالِ لشريعةِ الله عزّ وجلّ واتباع سُنّةِ نبيه عليه الصلاة والسلام.

وعن ابن سارية رضي اللهُ عنه قال «وعَظَنَا رسولُ اللهِ ﷺ موعظةً بليغةً وَجِلَتْ منها القلوبُ وذرفتْ منها العيون فقلنا: يا رسولَ الله كأنها موعظةُ مُودِّعٍ فأوْصِنَا.. قال: أوصيكمْ بتقوى اللهِ والسمعِ والطاعةِ وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي، وإنّهَ منْ يعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنّتي وسنّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المَهْدِيين، عَضُّوا عليها بالنواجذِ»[1].

فاكتبْنا ـ اللهمَّ ـ في أمةِ محمدٍ الذين يهتدون بهَدْيه، ويتمثّلونَ سيرتَه، ويتّبعونَ سنتَّه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(1) ابن ماجه (تحقيق فؤاد عبد الباقي) باب اتباع سنة الخلفاء ١/ ١٥ ـ ١٧، سنن الدارمي ـ باب اتباع السنة ١/ ٤٤ ـ ٤٥.

قومٌ يحبّهم الله ويحبّونه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [سورة المائدة: ٥٤ ـ ٥٥].

صدق الله العظيم

سبحانَ من هذا كلامُه، الذي أنزلَه على عبدِه ورسولِه، عربيّاً مُحكماً لا عوج فيه، مُبيناً عن قدرةِ اللهِ عزّ وجل، واصفاً لحالِ المؤمنين وعلاقتِهم بربهم، وعلاقةِ بعضِهم ببعض، وعلاقتِهم بالكافرين، هادياً لهم إلى سُبل الخير، مُذكّراً إياهم بفضلِ الله عليهم ونعمتِه، إذ هَداهم للإيمان، ثم أعزّهم

واكرمهم بأنْ وصفهم ـ سبحانه وتعالى ـ بأنّهم قومٌ «يُحِبُّهم ويحبّونه» جلّ وعلا .

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ﴾ . . ما أكرَمه من نداءٍ، وما أجلّهُ من خطاب، تُنصتُ له الآذانُ وَجلةً من هيبةِ المنادِي، فهو العزيزُ الجبّار، وينتبهُ العقلُ من غفوتِه، فالحكيمُ العليمُ هو المخاطِب، وتتّقِدُ النفسُ وتتوهجُ شوقاً لمعرفةِ مَا أوحى اللهُ إلى رسولِه عليه أفضلُ الصلاة والسلام أن يبلّغَهُ للناس، فالموحي إليه هو ربُّ العزةِ الرؤوف الحليم، وتخفِقُ القلوبُ فرحاً أن ناداها ربُّها بأفضلِ ما يُنادى به العبادُ الصالحون «يا أيها الذين آمنوا».

﴿مَن يَرتدَّ منكمْ عن دينِه فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونَه﴾، ذلك هو القولُ الفَصْل، إن خرجتم عن دينِ الله، وكفرتم بنعمته إذ هداكم، وخالفتم شرائعه التي بيَّنها لكم . . فذاك أمرٌ يسيرٌ على اللهِ جلَّت قدرتُه، أن يذهبَ بمن عصا أمرَه، ويأتي بآخرين أفضلَ منهم، وأقربَ إلى الله سبحانه وتعالى «يُحبُّهم ويحبُّونَه» فالحبُّ والرضى المتبادل هو الصلةُ بينهم وبين ربهم الودود الرحيم.

وحبُّ اللهِ لعبدٍ من عبادهِ أمرٌ لا يستطيع إدراكه إلاّ من يعرفُ اللهَ ـ سبحانَه ـ بصفاتِه التي وصفَ بها نفسَه عزَّ وجل، وإلاّ من وجدَ وَقْعَ هذه الصفاتِ في إحساسِه وشعورِه . وحبُّ العبدِ لربِّه نعمةٌ لا يدركها إلاّ من ذاقها، وعرفَ طريقَها بالتقرُّبِ إلى اللهِ بالطاعةِ والامتثال، وتصفيةِ النفسِ من شوائبِ الدنيا ومشاغِلها التي تصرفُ القلبَ عن ذكرِ اللهِ، والاتجاهِ إليه بنيّةٍ صادقةٍ وعملٍ صالح .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال في حديثٍ قدسيٍّ إن الله تعالى قال: ما تقرَّبَ إلى عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يَزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يسمعُ بِهِ، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويَده التي يبطشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها،

وإن سألني أعطيتُه، ولئن استعاذَ بي لأعيذنَّه»[1].

ثم يصفُ اللهُ تعالى المؤمنين بعد ذلك بقوله :﴿ أذِلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين ﴾ . . فالمؤمنُ ذلولٌ للمؤمن، غيرُ عَصيٍّ عليه ولا صعب، هيِّنٌ ليِّن، مُيسَّرٌ مستجيب، سَمْحٌ ودود، ومَا في الذلَّةِ للمؤمنين من مذلةٍ ولا مَهَانَة، إنما هي الأخوَّةُ ترفعُ الحواجزَ وتزيلُ التكلُّفَ. ثم هم «أعزَّةٌ على الكافرين» وليست العزةُ هنا غيرَ الصلابةِ والإباءِ النابعَيْنِ من الثقةِ بدينِ الله، والإعتزازِ بهَدْيِه الكريم.

﴿ يُجاهدونَ في سبيلِ الله ولا يَخافونَ لَوْمَةَ لائِم ﴾ . . فهم عاملون على رفعِ رايةِ الحق، وإعلاءِ كلمةِ الله، ونُصْرَةِ دينهِ الحنيف، لا يخشون في ذلك أحداً، ولا يشغلهم عن ذلك لومٌ من لامَ أو عتابٌ من عاتب، فهم في سبيلِ اللهِ يجاهدون، وهي أكرمُ سبيلٍ وأعزُّ نهج.

﴿ ذلكَ فضْلُ اللهِ يؤتيه من يَشآءُ واللهُ واسعٌ عليم ﴾ فضلُ اللهِ إذ هَداهم وأكرَمهم بالإيمان، وأحبَّهم وأحبُّوه، وهو عزَّ وجلَّ يعطي عن سَعَةٍ وهو الغنيُّ الحميد، ويعطي جَلَّ شأنُه عن علمٍ، وهو الخبيرُ بعبادِه، المطلعُ على ما في سرائرهم وقلوبهم، المحيطُ بما يعملون في السرِّ والعلانية.

فاللهم قرِّبنا إلى مغفرتك ورحمتك أنتَ الحليم الوهَّاب.

فليتَكَ تحلو والحياةُ مريرةٌ
وليتَك ترضى والأنامُ غضابُ
وليتَ الذي بيني وبينَك عامرٌ
وبيني وبين العالمينَ خرابُ
إذا صَحَّ منك الودُّ فالكلُّ هَيِّنٌ
وكُلُّ الذي فوقَ الترابِ تُرَابُ

---

(١) أورده الامام البخاري في الرقاق ـ باب التواضع.

رحمة الله التي كتبها على نفسه

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

[سورة الزمر: ٥٣ ـ ٥٥].

صدقَ الله العظيم

قد يذنب الواحد منا ذنباً كبيراً أو صغيراً، بوسوسةٍ من الشيطان، أو بهوىً من النفس الأمَّارةِ بالسوء، أو بالصُّحبةِ الفاسدةِ الغوية.. ثم يصحو ضميرُه وإحساسُه، وتهتزُّ نفسهُ بما ارتكبَ وأذنب، ويضطربُ فؤادُه، فيأخذُ في لَوْمِ نفسِه ويشتدُّ عليها حتى ينسى رحمة اللهِ تباركَ وتعالى، وييأسَ من غفرانِه ـ سبحانه ـ فيمضي مُشَوَّشَ الفكرِ والوجدانَ، يَخبطُ في الحياةِ خبط عشواءَ، لا يرى لنفسِه سبيلاً فيها للنجاة.

لكن اللهَ سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة، وإنها لرحمةٌ واسعةٌ، تسعُ كُلَّ معصيةٍ وتغفرُ كل ذنبٍ، إذا كانت التوبةُ صادقة والأوبةُ إلى اللهِ خالصةً، وفيما أوردناه من سورةِ الزمرِ دعوةٌ من اللهِ العليِّ القدير للتوبة والإياب، دعوةٌ للعصاةِ المسرفين الشاردين في تيهِ الضلال، دعوتُهم إلى الأمل والرجاءِ والثقةِ بعفو الله.

إنَّ اللهَ رحيمٌ بعبادِه، وهو يعلمُ ضعفَهم وعجزهم، والعواملَ المسلطةَ عليهم من داخلِ كيانِهم ومن خارجِه، ويعلمُ ـ وهو المحيطُ بكلِّ شيءٍ علماً ـ أن الشيطانَ يقعدُ لهم كلَّ مرصد، ويأخذُ عليهم كُلَّ طريقٍ.. لذلك يمدُّ اللهُ ـ جَلَّ شأنه ـ لعبادِه في العون، ويوسعُ لهم في رحمته، ولا يأخذُهم بمعاصيهم وذنوبِهم إلاَّ بعدَ أن هيأ لهم جميعَ سُبلِ الصَّلاح، فبعد أن يلجَ الواحدُ منهم في المعصية، ويسرفَ في الذنب، ويستولي عليه اليأسُ والقنوط... يسمع نداءَ الرحمةِ الكريم ﴿قُل يا عباديَ الذين أسْرَفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحْمةِ الله إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنه هو الغفورُ الرحيم﴾.

وقد قيلَ إنّ هذه الآيةَ الكريمةَ قد نزلتْ في وَحْشيِّ الذي قتلَ حمزةَ عمَّ رسولِ الله ﷺ وسيِّدَ الشهداء، حين أرادَ أن يُسلمَ وخافَ ألاَّ تقبلَ توبتُه، فلما نزلت الآية أسلم، فقيلَ لرسولِ الله ﷺ: أهذه لهُ خاصةً أمْ للمسلمينَ عامَّةً؟ فقال عليه الصلاةِ والسلام: بل هي للمسلمينَ عامةً[1].

﴿وانيبوا إلى ربِّكم وأسْلِموا لهُ مِن قبلِ أن يأتيكمُ العذابُ ثمَّ لا تُنصرون﴾. هذا هو الطريق، الانابةُ أي التوبة إلى اللهِ الرؤوف الرحيم، والإسلامُ له في كُلِّ أمر، إنها صلةٌ مباشرةٌ بين المخلوق والخالق، مَنْ أرادَ الإيابَ من الشاردين في ضلالِ المعصيةِ فليؤب، ومن أرادَ التوبةَ من

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٤.

مراجع الكتاب

١ ـ الاتقان — لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

٢ ـ إحياء علوم الدين — لمحمد بن محمد الغزالي

٣ ـ الأركان الاربعة — لابي الحسن الندوي

٤ ـ أساس البلاغة — لمحمود بن عمر الزمخشري

٥ ـ الاستيعاب — لابن عبد البر

٦ ـ أسرار البلاغة — لعبد القاهر الجرجاني

٧ ـ الأسس الاخلاقية — ابو الاعلى المودودي

٨ ـ أسس الاقتصاد في الإسلام والنظم المعاصرة — أبو الأعلى المودودي

٩ ـ الإصابة — لابن حجر العسقلاني

١٠ ـ أصول النحو — لسعيد الافغاني

١١ ـ إعجاز القرآن — لابي بكر الباقلاني تحقيق احمد الصقر

١٢ ـ إعجاز القرآن — للرافعي

١٣ ـ إعراب ثلاثين سورة من القرآن — لابن خالويه

١٤ ـ إعراب القرآن — للزجاج

١٥ ـ الاعلام — لخير الدين الزركلي طبع مصر

١٦ ـ الباعث الحثيث — لاحمد شاكر

١٧ ـ الباعث على الخلاص — للحافظ العراقي تحقيق محمد الصباغ

١٨ ـ البحر المحيط — لأبي حيان

١٩ ـ البداية والنهاية — لابن كثير الدمشقي طبع مصر

٢٠ ـ البرهان — لبدر الدين الزركشي تحقيق أبو الفضل إبراهيم

٢١ ـ التبيان في إعراب القرآن — للعكبري

٢٢ ـ تاج العروس — للزبيدي طبع المطبعة الخيرية

٢٣ ـ تاريخ بغداد — للخطيب البغدادي

٢٤ ـ تاريخ الأدب العربي — لبرو كلمان (الترجمة العربية)

٢٥ ـ تاريخ التراث العربي — لفؤاد سزكين

الكتاب	المؤلف
٢٦ ـ تاريخ التشريع الاسلامي	لمحمد الخضري
٢٧ ـ تاريخ الخلفاء	للسيوطي تحقيق محيي الدين عبد الحميد
٢٨ ـ تاريخ دمشق	لابن عساكر ، تهذيب عبد القادر بدران ،
٢٩ ـ تاريخ الطبري	للطبري دار المعارف بمصر
٣٠ ـ تاريخ القرآن	لابراهيم الابياري
٣١ ـ تاريخ القرآن	لمحمد طاهر الكردي
٣٢ ـ تحفة الاحوذي	للمباركفوري
٣٣ ـ التراتيب الادارية	للكتاني
٣٤ ـ التشريع الإسلامي وحاجتنا اليه	لمحمد الصباغ
٣٥ ـ التصوير الفني في القرآن	لسيد قطب
٣٦ ـ التفسير البياني	لبنت الشاطىء
٣٧ ـ تفسير الجلالين	للسيوطي والمحلي
٣٨ ـ تفسير سورة النور	لابي الأعلى المودودي
٣٩ ـ تفسير الطبري	للطبري
٤٠ ـ تفسير القرطبي	للقرطبي
٤١ ـ تفسير المراغي	لأحمد مصطفى المراغي
٤٢ ـ تقريب السيرة النبوية	لمحمد الشبراوي
٤٣ ـ التكافل الاجتماعي في الإسلام	لمحمد أبو زهرة
٤٤ ـ تنظيم الإسلام للمجتمع	لمحمد أبو زهرة
٤٥ ـ تهذيب التهذيب	لابن حجر العسقلاني
٤٦ ـ جامع الأصول	لابن الأثير
٤٧ ـ جامع بيان العلم وفضله	لابن عبد البر
٤٨ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح :	لابن تيمية
٤٩ ـ الحجاب	لابي الأعلى المودودي
٥٠ ـ الحديث النبوي	لمحمد الصباغ
٥١ ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته	لسيد قطب
٥٢ ـ خطط الشام	لمحمد كرد علي
٥٣ ـ خلق المسلم	لمحمد الغزالي
٥٤ ـ دلائل الإعجاز	لعبد القادر الجرجاني
٥٥ ـ رحلة ابن بطوطة	لابن بطوطة
٥٦ ـ رحلة ابن جبير	لابن جبير
٥٧ ـ الرسالة	للشافعي تحقيق احمد شاكر

٥٨ ـ زاد المسير لابن الجوزي
٥٩ ـ سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي : لابن القاصح
٦٠ ـ سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين : لعلي محمد الضباع .
٦١ ـ سنن أبي داوود
٦٢ ـ سنن ابن ماجه
٦٣ ـ سنن الترمذي
٦٤ ـ سيرة ابن هشام تحقيق مصطفى السقا
٦٥ ـ شذرات الذهب لابن العماد
٦٦ ـ شرح مسلم للنووي
٦٧ ـ الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض
٦٨ ـ صبح الأعشى للقلقشندي
٦٩ ـ صحيح البخاري للبخاري
٧٠ ـ صحيح مسلم لمسلم
٧١ ـ ضحى الإسلام لأحمد أمين
٧٢ ـ طبقات الشافعية للسبكي
٧٣ ـ طبقات الشافعية للعبادي
٧٤ ـ الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي
٧٥ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب
٧٦ ـ العقائد الاسلامية لسيد سابق
٧٧ ـ كتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب تحقيق الشيخ ناصر الالباني طبع المطبعة العمومية بدمشق
٧٨ ـ عمدة القاري للعيني
٧٩ ـ عنوان البيان في علوم التبيان لمحمد حسنين مخلوف
٨٠ ـ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري
٨١ ـ غيث النفع للصفاقسي
٨٢ ـ فتح الباري لابن حجر
٨٣ ـ فضائل القرآن لابن كثير
٨٤ ـ الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي
٨٥ ـ الفهرست لابن النديم
٨٦ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب
٨٧ ـ في المجتمع الإسلامي لمحمد أبو زهرة
٨٨ ـ القاموس للفيروزبادي

٨٩ ـ القرآن والعلم الحديث — لعبد الرزاق نوفل
٩٠ ـ الكشاف — للزمخشري
٩١ ـ كشف الظنون — لحاجي خليفة
٩٢ ـ لسان العرب — لابن منظور
٩٣ ـ اللؤلؤ والمرجان — لمحمد فؤاد عبد الباقي
٩٤ ـ مباحث في علوم القرآن — لصبحي الصالح
٩٥ ـ مبارق الازهار في شرح مشارق الانوار — لابن الملك
٩٦ ـ مجموع الفتاوى — لابن تيمية
٩٧ ـ المجتمع الإنساني في ظل الاسلام — لابي زهرة
٩٨ ـ المحكم في نقط المصاحف — للداني
٩٩ ـ مختار الصحاح — للرازي
١٠٠ ـ مختصر السيرة — لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب
١٠١ ـ المدخل — لابن الحاج
١٠٢ ـ المرشد الوجيز — لابي شامة ، مخطوط
١٠٣ ـ المستدرك — للحاكم
١٠٤ ـ المصاحف — لابن أبي داوود
١٠٥ ـ المفردات — للراغب الاصفهاني
١٠٦ ـ المطالع النصرية — لنصر الهوريني
١٠٧ ـ معاني القرآن — للفراء
١٠٨ ـ المعجزة الكبرى القرآن — لمحمد ابو زهرة
١٠٩ ـ المعجزات المحمدية — لوليد الأعظمي
١١٠ ـ معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام — لابي الأعلى المودودي
١١١ ـ المفردات في غريب القرآن — للراغب الاصفهاني
١١٢ ـ مقالات الكوثري
١١٣ ـ مقاييس اللغة — لابن فارس
١١٤ ـ مقدمة ابن خلدون
١١٥ ـ مقدمة — لمحمود محمد شاكر للظاهرة القرآنية
١١٦ ـ مناهل العرفان — للزرقاني
١١٧ ـ من منهل الأدب الخالد — للاستاذ محمد المبارك
١١٨ ـ ميزان الاعتدال — للذهبي
١١٩ ـ النبأ العظيم — لمحمد عبد الله دراز
١٢٠ ـ النشر — لابن الجزري

١٢١ ـ نظام الأسرة في الإسلام — لمناع قطان

١٢٢ ـ نظام الاسلام — لمحمد المبارك

١٢٣ ـ نظرية الاسلام الخلقية — لابي الأعلى المودودي

١٢٤ ـ نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور — لابي الأعلى المودودي

١٢٥ ـ نكت الانتصار للصيرفي وهو تلخيص كتاب الانتصار للباقلاني تحقيق محمد زغلول سلام طبع الاسكندرية

١٢٦ ـ نور اليقين — لمحمد الخضري

١٢٧ ـ الوساطة — للجرجاني

١٢٨ ـ الوحي المحمدى — لرشيد رضا

١٢٩ ـ وفيات الاعيان — لابن خلكان

١٣٠ آية وحديث — لعلي ذو الفقار شاكر

الفهرس

القسم الثاني :